

يحيى حقي

*** الخيط الابيض فى وحدة التعاطف**

من المسلم به اليوم أن المؤلف يلتزم الحياد قبل أشخاصه ، لايتدخل فيتبرع بالنطق جهرا بالحكم عليهم بل يترك الحكم للقارىء وحده ، يستمده من واقع مخالطته لهم وهم يتشابكون ويتفرقون وبعد اكمالهم لدورة حياتهم فى الرواية من بداية الى نهاية ، وكأن فن الرواية أصبح يعتمد على تملق القارىء واثارة خيلائه بايهامه أن الأمر كله موكول اليه ، وأن أصدق الحكم هو حكمه ، ايهام للقارىء لأن المؤلف رغم هذا الحياد المزعوم لايمكن له الا أن يضمر نوعا من التعاطف مع كل شخص من أشخاصه فمنهم القريب الى قلبه ، ومنهم البعيد عن قلبه ، والقرب والبعد على درجات متفاوتة ، ولكن هذا التعاطف مدسوس بين السطور ، مختف وراء اللوحة كما يقال ، لامفر منه للمؤلف فلولاه لما كان عنده شىء يقوله ، انه وسيلته الوحيدة لرسم أشخاصه بصدق ، لاستخلاص الدلالة من أكوام الأقنعة ، للتعبير عن مزاجه وفلسفته ازاء الكون والبشر ، غاية الأمر أن المؤلف يتساوى فهمه لجميع أشخاصه ، القريب منها لقلبه والبعيد ، فالمعنى الحقيقى لحياد المؤلف هو فى هذه المساواة فى الفهم لا فى تجرده أو خشيته من التعاطف .

* * *

ولكن تعاطف المؤلف لاجدوى منه ولا معنى له الا اذا كانت له قدرة الانطباع بحذافيره على قلب القارىء ، فيلتحم الطرفان وتنشأ بينهما وحدة التعاطف .

وانشاء وحدة التعاطف بين المبتكر والمتلقى هو غاية كل عمل فنى جدير بهذا الوصف أن يرتفع المتلقى الى مستوى المبتكر أن يشاركه جنته وجحيمه، أن تنتقل اليه كل هزة للمبتكر مهما صغرت ، حقا أن الناس تتفاوت فى الاستجابة لهذه الهزات لتراوح حسهم بين الرقة والبلادة ، فالعيب عيب العاجز او القاصر لاعيب العمل الفنى ، انه يبلغ القمة حين يوحى لكل مغترف منه بأنه قد استنفد معينه بالاناء الذى فى يده ، كبر أو صغر

وقد يكون الكلام السابق من قبيل البديهيات فكيف لاتنشأ وحدة التعاطف والفن لايعترف بمؤلف مصاب بمرض نفسى يجعله يحط من قدر الجمال ويرفع من شأن الدمامة ، ولا مفارقة كـذلك فى التعاطف بين المؤلف والقارىء اذا رسم المؤلف شخصياته مسطحة لها جانب واحد ، الشرير شرير صرف ، والخير خير محض ، ولكن احتمال تباين التعاطف بين القارىء والمؤلف يقوم حين يرسم المؤلف أشخاصه - كما يطالبه الفن - مستديرة لها جوانب متباينة ، فيها ما هو جميل وفيها ما هو دميم ، فهو بدوره مطالب فى نظر الفن لا الاخلاق وحدها أن يعطى كل جانب حقه من الاهتمام ولونه من التعاطف ، فاذا كان الجانب الدميم من المقومات غير الثانوية للشخصية ، فينبغى للمؤلف ان لم يشأ الالحاح عليه أن يتفادى على الأقل ربط تعاطفه بالجانب الجميل وحده ، فقد يتخذ فى هذه الحالة - وعلى غير ارادته - صورة من يريد « تمويه » جانب الدمامة وتبليعه للقارىء بسهولة ، والقارىء لن يخفى عليه هذا الجانب الدميم المتروك بلا تعاطف من المؤلف ، فلا يستطيع أن يجارى المؤلف فى تعاطفه للجانب الجميل وحده ويجد نفسه منجذبا للاهتمام بالجانب الدميم لأن المؤلف أراد أن يخدعه عنه ، وهكذا يكون تعاطف القارىء مع شخصيات الرواية مخالفا لتعاطف المؤلف ، ويفقد العمل الفنى رسالته وان كان فى القمة من حيث الصنعة .

***

هذه هى الأفكار التى شغلتنى بعد قراءة رواية (الخيط الأبيض) للصديق الأديب الكبير محمد مفيد الشوباشى فهى جديرة بسبب تألق الفكر ونفاذ الأحساس وجلال الهدف واتساع اللوحة وصدق الوصف وبراعة الصنعة وجمال الأسلوب وقدرتها على الايحاء بالجو - فى الطبيعة والنفوس - بأن تكون من الأعمال الفنية التى تدخل تاريخ الادب لولا خلل خفى يلبد فى عجزها غير المفهوم عن انشاء وحدة التعاطف مع البطل بين المؤلف والقارىء ، ولعلها أول رواية عندنا تثير هذه القضية وحلال لها أن تزهو بهذا الفضل .

وضع المؤلف لنفسه غاية جليلة ، لقد انصرف عن المشاكل الفردية أو الجزئية ، وأراد أن يرسم على لوحة فسيحة حقبة هامة من تاريخ بلادنا ، هى مطلع ثورة سنة ١٩١٩ ، حين نزعت مصر الى التحرر من الاحتلال الاجنبى فى جميع صوره ، احتلال عسكرى واحتلال ثقافى ، حين أخذت تبحث عن شخصيتها ، عن ادب صادق التعبير عن نفسها ، يهدف الى خدمة المجتمع والرقى به ، فكانت أولى خطواتها فى التحرر الثقافى هى القضاء على هذا الاعجاب المستحوذ عليها بكل ماهو أجنبى .

وقد رمز المؤلف لمصر ببطل روايته أحمد بن محمود منصور وكيل مصلحة التلغرافات والتليفونات ورمز لبريطانيا بفتاة انجليزية هى « لورا » بنت مستر ويمان مدير تلك المصلحة . وكان الجوار فى السكن بالقاهرة واشتراك الأبوين فى العمل قد جمع بين الأسرتين قبل الحرب العالمية الأولى فى صداقة وطيدة بقيت بعد احالة الاثنين الى المعاش، اذ ظلا متجاورين بعد انتقالهما الى الاسكندرية حيث تقع أهم أحداث الرواية .

واذا كان مضى المؤلف فى الرمز غير واضح كل الوضوح فى رسمه لأسرة أحمد فانه سافر كل السفور فى رسمه لأسرة لورا ، فالأسرة المصرية متماسكة متحابة ، غير متعصبة ولكنها مستمسكة بتقاليد قوميتها ، وسيلة الابن فى كسب أبيه هو الاقناع بلهجة الاحترام لا الثورة بزعيق وقح ، والبنت (منى) تتزوج من الشاب الذى تختاره لها أسرتها (مصطفى لطفى المحامى بقلم قضايا الحكومة) ليس فى الأسرة أى ضعف أخلاقى فهى فى صداقتها للأسرة الانجليزية معتزة بكرامتها فلا تحنى رأسها ولا تعانى من مركب النقص - الصورة هنا فى الحقيقة مسطحة لا يظهر منها الا جانب الخير وحده أما الأسرة الانجليزية فهى مرسومة فى صورة الأسرة المنهارة ، الأب مطربش قد بت صلته بوطنه وأقام بمصر بعد احالته على المعاش ، جميع أبنائه مصابون بمرض عصبى شديد فالبنت الكبرى (لينورا) مصابة بالهبل ، والابن (رونالد) مخبول وأختهما (نونا) تتعلل بمرض قلبها لتعتزل الناس . وقد ظن المؤلف - فيما يبدو - ان المضى فى الرمز على هذا النحو يخدمه من حيث قيام التطابق بين انهيار الاحتلال وانهيار هذه الأسرة ، ولكنه فى الحقيقة قد أضر به ، اذ كان غرضه الاكبر هو الاشادة بثورة مصر على انجلترا ، فكيف يبث

فينا الاعجاب بهذه الثورة اذا كان خصمها فى مثل هذا الانهيار ؟ كنت أحب — لكى تتحقق المقابلة — أن تكون أسرة ويمان أسرة انجليزية عريقة ولها شموخها وجبروتها وتعاليها على أهل مصر ولكنها فى الرواية تكاد تكون هى الأخرى أسرة بلدية ، ليس لها من الانجليزية الا الاسم ، تفطر على فول مدمس وتتغدى بالملوخية ٠

ويجىء هنا أيضا — وان كان الوضع مسبقا ومقلقلا — مثل آخر على اهتزاز الرمز ٠ فقد أراد المؤلف أن يرمز لاخفاق الاحتلال فى أن ينشب بقية من اظفاره فى أرض مصر فجعل أسرة (ويمان) تطرد بعد الثورة من البيت الذى تملكه بدعوى ان ملكية العقارات محرمة على الأجانب ، والعجيب أن الذى يروى لنا هذا الخبر هو بطل الرواية نفسه وكان قد أصبح محاميا — وكل من له المام بالقانون ولو بقدر ضئيل يعلم أن ملكية العقارات لم تكن محرمة على الأجانب حينئذ ، ولكن ماذا تقول فى شهوة الرمز؟ انها من محام منتفخ بالاعجاب بالنفس سقطة لاتغتفر، بطل الرواية الذى يرمز لمصر غارق فى لجة الجهل!

وأحب أن أفرغ هنا من حكاية هذا الرمز برمتها وأختم كلامى عنها بابداء اعجابى بصنعة المؤلف لأنه أبقى كل هذه الرموز كامنة دون ان تسفر عن وجهها سفورا مبتذلا رخيصا ، فلا تفقد الوقائع قط فعاليتها وتسلسلها وارتباطها بالحياة دون أن ترتفع الى التجريد — والمؤلف فوق ذلك قد عرف بمهارة كيف يخلع رداء المؤرخ ليبقى له رداء القصصى وحده ، فلم يزحم روايته — كما يفعل غيره من مؤلفى الروايات التاريخية — بالتواريخ واقتباسات من الخطب والمنشورات ومقالات الصحف ، وان كان ينبهم أحيانا على القارىء غير الخبير بتاريخ هذه الحقبة أن يفهم من الرواية أسباب تطور الموقف السياسى الذى يمثل (الخلفية) فى الخيط الأبيض ٠

ليس من العسير بعد الوصف الذى قدمته لك للاسرتين ان تصدق أن لورا قد صدت عن شاب انجليزى يريد ان يتزوجها لتهب كل قلبها وحبها واخلاصها وعمرها لأحمد ، جارها المصرى ٠ ولكنه لايستطيع أن يفصل بين الحب والسيطرة التى يخشاها ، فيتملص منها ويجد كل سعادته وهنائه واستتباب شخصيته والتحامه بوطنه فى زواجه من فتاة مصرية سمراء هى (رجاء) أخت نسيبه الاستاذ مصطفى لطفى ، وكما نما خط استقراره العاطفى نما أيضا خط استقراره الروحى والمذهبى ٠ تحول عن المحاماة بعد أن أخفق فيها اخفاقا ذريعا بسبب خجله وحيائه ليصبح اديبا ينادى فى الصحف بضرورة اعتناق أدب مصرى أصيل يخدم الشعب ويسمو به والاهتداء الى هذا الرأى هو الخيط الأبيض فى حياته ٠

ونفهم من الرواية أن احمد أصبح من أعلام الأدب فى مصر ، وأن دعوته قد نجحت واستلفتت الأنظار وجذبت لها الانصار ، فهو فى نهاية الرواية يظهر لنا فى صورة الزعيم ، لقد وجد أخيرا تحقيق آماله فى تحرير وطنه ، وفى تحقيق تحرير أدبه من السيطرة الأجنبية ٠

عسى أن يتضح بعد هذا التلخيص — وأعترف أنه مخل — ان المؤلف أراد أن يرسم أحمد فى صورة البطل بالمعنى اللغوى لهذه الكلمة لا بالمعنى الروائى وحده ، فقد رمز به الى جهاد مصر ضد الاحتلال بجميع صوره ، وارتفع به درجة درجة حتى أبلغه مقام الزعامة المحاطة بالأنصار ، وتنطق الرواية بأن المؤلف شديد الاعجاب بهذا البطل ، متعاطف معه بكل جوارحه ، يرمقه بانبهار كأنه مثله الأعلى ، انه متلذذ بتقييده لكل لفظ يخرج من فمه ، وكل حركة يأتيها ، بل كل فكرة ترد على خاطره ، وكل تحول ولو خفى ضئيل يطرأ على قلبه ، هذه اللذة وكأنها التنويم المغناطيسى هى التى جعلتنا نحس أن المؤلف لايشعر أنه يرسم لنا أيضا كل عيوبه البشعة ، أو أنه اذا شعر بما يفعل فانه غير مبال بها ٠ ولكن القارىء ليس له مثل لذته المسحورة ولانومه المغناطيسى ولذلك فان هذه العيوب تقفز لعينه بل تكاد تستحوذ على اهتمامه ومحال اذن أن تتم وحدة التعاطف ، بل الذى تم هو تضاد فى التعاطف : اعجاب من المؤلف ونفور من القارىء يكاد يبلغ حد التأفف ٠

وكيف نعجب ببطل هو مثال بديع لجبلة اسمها عندى « الاسفنجية » انه لم يرتفع درجة بمجهوده الذاتى ، بل بمساعدة من الغير فلا تنفلت من فمه كلمة شكر أو اعتراف بجميل ، بل يكاد يمتن على من يرفعه أنه ارتفع معه ، فلا يكون

نضجه الا نفخة كذابة أو تخمة دودة العلق بالدم الممتص ٠

ان نسيبه مصطفى لطفى هو الذى يدفعه الى المسجد للاستماع الى خطباء الثورة ٠ كل مشاركته فى الجهاد الوطنى هو سيره مرة فى مظاهـرة ٠٠٠ لم يشترك فى خلية أو تنظيم سياسى ٠

كل شىء فى جعبته الثقافية كان فى أول الأمر من عمل لورا ــ رمز الاحتـلال ــ هى ، التى كانت تقرأ عليه الشعر الانجليزى وتبصره بمعنى الجمـال ومعنى الأدب ، هى التى تحاول تهذيب ذوقه ، هى التى تذهب معه لمكتب المحاماة الذى لايصطـاد زبونا واحـدا لتنظم له الأثاث الدميم الذى اشتراه ورصه فى المكتب هيلا بيلا ، وبدلا من أن يشكرها كشر لها عن أنيابه اللامعة متهما لها بأنها تحـاول السيطرة وفرض ذوقها عليه ٠ هى التى وقفتوراءه فى كل خطوة تدفعه الى الامام ٠ وتثبت له ثقته فى نفسه ٠

بل ان تحولاته الثقافية حين أقلـع عن عبـادة الأدب الانجليزى ليلقى نظرة الى الادب الفـرنسى والايطالى كان من نصيحة أصدقاء له بالقاهرة ٠أخذ عنهم الرأى ثم بشر به كأنه صاحبه الذى اهتدى اليه وحده ٠

لامفر للقارىء منأن يقارن بين (لورا) و(أحمد) ، (لورا) رمز الاحتلال وأحمد رمز الجهـاد الوطنى والنزوع الى التحرر ، ولا مفـر له ــ مع الأسف ــ الا الاقرار بأن لورا تمثل جميع القيـم الانسانية فى أرقى صورها ، هذه الفتاة وهبتقلبها لأحمد باخلاص لاشك فيه ، انها غير منافقة ، فهى لا تنكر أنها انجليزية ولكنها صادقة فى تأكيدها لأحمد أنها تحب مصر أيضا ، انها تراه يخونها ومع ذلك تدعو له بالسعادة ، بل تكاد هى التى تدفعه دفعا الى الخروج من حيرته ليتزوج من الفتـاة المصرية، لأنها تريد قبل كل شىء هناءه وتوفيقه ، واحمد يقسم لها أنه يحبها ويؤكد لها أنه سيتزوجهـا ثم لاينفك يطعن قلبها طعنات مميتة ، والعجيب انهـا ليست هى التى تثور ، بل هو الذى يثور عليها اذا حزنت ، لأن حزنها يؤلم حضرته ٠٠ ياله من جـزار يذبح ويبسمل انه يرقبها بعين النسر ، ويسـجل فى قلبه ــ وهو الذى يزعم حبها ــ كل آثار فعـل الزمن بهذهالمخلوقة المسكينة ، التى فقدتجميعأسرتها وبقيت وحيدة عمياء وسط كلابها ، انه يلحظ أثر خلع أحد ضروسها فى تشويه وجهها ، وليس هذا فعل عين المحب الذى يقسم لها أغلظ الايمان ، بأنها تسكن قلبه ! لقد خشى أحمد أن تستعبده (لورا) فكان هو الذى استعبدها وهو ماض فى طريقالتحرر ٠٠ ليس فى أدبنا الحديث صورة بشعة للأنانية مثلصورة أحمد، البطلالذى يرمز بهالمؤلف الىمصر٠٠ أنانية مصحوبة باعجاب شديد بالنفس وباستعـلاء على الغير ، وبالزهو بالقدرة على الملاحظة فى السر٠٠ أن طيفه العـزيز لم يشرق فى صـفحة من صفحات الرواية الا خشيت انا ايضا أن يوجه الى نظرته المتجسسة من تحت لتحت ٠

انهدمت وحدة التعاطف وأضاعت الرواية رسالتها رغم محاسنها العديدة التى ذكرتها فى أول هذاالمقال٠

والأثر الذى بقى فى نفسى بعد أن نسيت تمزيقها لى هو أننى فى اجتماع أسرة ذات ليلة من ليـالى الشتاء حول مدفأة ، فتستمع الى حديث ابنها البكر الذى يعود من رحلة طويلة ، فيلذ له ان يستعيـد معها ذكريات صباه وشبابه وهو آمن من النقد لأنه وسط أحبائه ، فلا يفوته أن يذكر أيضا أخته زينب وما جرى لهـا مع أنها لا دود لها فى أحـداث الرواية ٠



الملامح الفلسفية للاشتراكية العربية ٢

الاشتراكية العربية والاشتراكيات اليمينة

بقلم : الدكتور صلاح الدين عبد الوهاب

أوضحنا فى العدد السابق من هذه المجلة كيف تتميز الاشتراكية العربية بفلسفة خاصة تفرق بينها وبين الاشتراكية الماركسية • ونعود اليوم لنبين كيف تختلف اشتراكيتنا عن نوع آخر من أنواع الاشتراكية ولدت فى دول لم تتأثر بفلسفة كارل ماركس وهى مايمكن أن نسميه بالاشتراكية اليمينية •

وقد ظهرت البوادر العملية للتطبيق الاشتراكى اليمينى فى حركة التأميمات التى قامت بها دول أوربية كثيرة بعد الحرب العالمية الأولى •

ففى **ألمانيا** ظهرت بوادر الاشتراكية فى دستور فيمر لسنة ١٩١٩ • ثم صدر قانون خاص بتاريخ ٢٣ مارس سنة ١٩١٩ وضع هذه الاشتراكية موضع التنفيذ ، فنص على اخضاع مصادر الثروة الانتاجية لملكية المجموع (أى مجموع الشعب) من أجل استعمالها لتحقيق الصالح العام •

وفى **فرنسا** ألجأت كثير من الظروف المشرع الى الى اصدار قانون ١١ أغسطس سنة ١٩٣٦ الذى ترك لوزير الحربية والبحرية والطيران الحق فى تأميم مصانع المواد الحربية • وكذلك دعت اعتبارات الأمن الوطنى ومنها المحافظة على حصيلة الضرائب ، دعت الدولة الفرنسية الى احتكار الكبريت والمطابع وبنك الاصدار •

ويكفى أن نتأمل قائمة المشروعات المؤممة فى فرنسا لنتبين أن عملية التأميم شملت كل مشروع يتعلق من قريب أو من بعيد بالصالح العام • فقد أممت مناجم الفحم فى ١٣-١٢-١٩٤٤ وأممت مصانع سيارات رينو فى ١٦ يناير ١٩٤٥ (ولكن أخذ هذا التأميم بالذات صورة العقوبة) وكذلك أممت البنوك وشركات التأمين وشركات الغاز والكهرباء والصحافة وشركات المواد المعدنية وكثير من المشروعات الهامة الأخرى •

وفى **انجلترا** لعبت الدولة دورا هاما فى تنمية الاقتصاد القومى منذ تولى حزب العمال الحكم بين سنتى ١٩٤٦ و ١٩٤٩ • ويدخل فى المشروعات التى أممت تطبيقا لهذه السياسة بنك انجلترا والطيران المدنى وصناعة الفحم والمواصلات السلكية واللاسلكية

وصناعة النقل وصناعة القطن ومشروعات الكهرباء والغاز والحديد والصلب .

وساد ذات الاتجاه فى دول غربية أخرى مثل ألمانيا والسويد .

* * *

وسنركز اهتمامنا فى هذا المقال على استعراض أوجه التفرقة بين اشتراكيتنا وبين **الاشتراكية اليمينية** السائدة فى انجلترا .

يطلق مؤرخو الفكر الاقتصادى على الاشتراكية التى ظهرت قبل ماركس اسم «الاشتراكية الخيالية» **لانها لم تكن تقوم على تحليل علمى دقيق ،** وانما نبعت من مجرد الرغبة فى القضاء على النظم الاقتصادية السائدة وما كانت تؤدى اليه من ظلم للطبقات الكادحة . وفضلا عن ذلك فلم يكن من الممكن أن تظهر الاشتراكية العلمية قبل قيام الثورة الصناعية التى أدت الى تأكيد الانفصال بين طبقة الرأسماليين وطبقة العمال ، وظهرت مساوىء **المذهب الحر الذى يقوم على** ترك المبادأة الفردية دون قيود ، وعدم تحديد الملكية الفردية بأى طريق من الطرق ، ووقوف الدولة من وسائل الانتاج موقف المنظم والمشرف فقط .

وقد ترتب على هذا النظام أن هضمت حقوق طبقة العمال والأجراء فلم يكن يسمح لهم بحق التصويت ، ولا بحق تكوين اتحادات تجارية ولا نقابات . وكانت أجورهم غير كافية ونسبة البطالة مرتفعة جدا .

ولعل ابلغ وصف لحالة طبقة العمال ما كتبه جواهر لال نهرو عن عمال انجلترا عند بدء الثورة الصناعية اذ قال : « تأثر عامة الناس غاية التأثر بالنمو الصناعى فهجروا الأرض الزراعية الى المصانع ، وبدات تنمو طبقة عاملة صناعية متزاحمة فى مدن قبيحة تفتقر الى جميع المواصفات الصحية » .

وبدأ العمال الانجليز يستشعرون حقيقة حياتهم وأنهم يموتون موتا بطيئا ، فاخذوا يجتمعون سرا فى أماكن غير مطروقة ويشكلون جمعيات سرية بقصد الكفاح فى سبيل مستقبلهم .

واستمر الحال هكذا حتى ظهر رجل من بين أصحاب المصانع فى مانشستر يمتاز بالانسانية ، فبدأ يدخل الاصلاحات الكثيرة مصانعه بقصد تحسين أحوال العمال حتى اثارت هذه الأعمال ضجة كبرى بين طبقة الرأسماليين أصحاب المصانع . ولكن لم يثنه ذلك عن المضى فى طريق الكفاح من أجل العمال .

وكان هذا الرجل هو روبرت أوين الذى يقال أنه أول من استعمل كلمة « الاشتراكية » عام ١٨٣٠ .

وبفضل روبرت أوين صدر قانون المصانع الأول عام ١٨١٩ الذى يعتبر أول وثيقة رسمية فى طريق تأمين مستقبل العمال الانجليز .

* * *

ثم ظهرت بعد ذلك جماعة الفابيين عام ١٨٨٤ بفضل جهود بعض من المفكرين الاشتراكيين الذين اقتدوا بمبادىء فابيوس مكسيموس ، وقد انضم اليها جورج برناردشو . ويتلخص برنامج هذه الجماعة فى الاصلاح الاجتماعى **عن طريق أى نوع من** التنظيمات ودعوا الطبقة المتوسطة الى ضرورة الاشتراك فى ادارة راس المال الصناعى واستثماره بالتعاون فيما بينهم . ثم تطورت آراؤهم بعد ذلك فى المنشور الذى أصدره برناردشو والذى دعا فيه الى تأميم الأرض وحث الحكومات على التدخل بكل امكانياتها فى ميدان الانتاج . واعتمد شو فى هذا المنشور على « **نظرية القيمة » وان اعتبرها من خلق المجتمع لا من خلق العمال وحدهم بعكس ما قال به ماركس** .

وأوجزوا هدف الاشتراكية فى اتاحة الفرص لكل فرد دون ايثار طبقة على أخرى . والسبيل الواضح لتحقيق هذا الهدف — فى نظرهم — هو تحويل ملكية الأرض ورأس المال المنتج الى ملكية الشعب ، على أن تكون الحكومة هى الممثلة للشعب فتديره لحسابه .

وكان الفابيون يثقون ثقة كبرى فى أهلية الحكومات الديمقراطية فى أوربا وأمريكا لتنفيذ البرنامج الاشتراكى .

ولم يكن الفابيون يؤمنون بضرورة الوثبات الثورية فى مجال التطبيق الاشتراكى . بل كانوا يعتقدون بامكان الوصول الى الاشتراكية بالتدريج . اذ لا حاجة — فى نظرهم — الى احلال الاشتراكية محل الرأسمالية لايمانهم بعدم وجود فاصل بين النظامين ولاعتقادهم بأن كلا منهما يمكن أن يتحول الى الآخر عن طريق الاجراءات التشريعية .

على ان بعض زعماء الفابيين كانوا يلقون بتعاليمهم الاشتراكية من ابراج عاجية ، ولا ادل على ذلك من أن « سدنى وب » قبل لقب اللوردية وأصبح يعرف باسم لورد باسيفيلد وظل يحمل هذا اللقب الى ان توفى عام ١٩٤٧ . وكذلك ظل « جراهام والاس » يملك الضياع الواسعة والمزارع الضخمة فى الوقت الذى كان ينادى فيه بضرورة تقييد الملكية الزراعية .

ومما يؤكد هذا المعنى **أن زعماء الفابيين ظلوا** يحتفظون بأرستقرطيتهم فلم يندمجوا مع حزب العمال الذى نشأ فى نفس البيئة الفكرية التى نشأت فيها الجمعية الفابية ، وظلوا ينظرون الى رجال الحزب نظرة كبرياء وتعال رغم اضطرارهم الى ارسال ممثلين عنهم الى لجنة تمثيل العمال التى اعتبرت بمثابة جمعية تأسيسية .

***

١ – ومن هنا **يبرز الفارق الأول بين الاشتراكية** العربية والاشتراكية البريطانية . **فبينما ان الأولى ثورية اذا بالثانية تطورية** . ومعنى ذلك أن اشتراكيتنا لا تؤمن بالحلول الوسط ولا بالاصلاحات التدرجية بل تواجه ظروف المجتمع العربى مواجهة صريحة **لا تقف فيها عند حد محاولات التوفيق** compromise **بين المصالح المتعارضة والتناقضات التى كشف عنها النظام الرأسمالى** . وعملت ولا تزال تعمل على ايجاد حلول جذرية لتغيير شكل المجتمع الى مجتمع يتحقق فيه الكفاية فى الانتاج والعدل فى التوزيع . ولا تسيطر عليه **طبقة من الطبقات** .

واحلال الاشتراكية محل الراسمالية أمر لازم فى الاشتراكية العربية التى تؤمن بأن الاثنتين تمثلان ضدين لا يجتمعان ، والفاصل بينهما هو فاصل اساسى لا يمكن أن **يكفى فى تحديده مجرد اجراء** تشريعى بل يجب ان تتحول عقلية ابناء المجتمع من **عقلية رأسمالية استغلالية الى عقلية اشتراكية عادلة** .

والدليل على ثورية اشتراكيتنا انها حققت منذ سنة ١٩٦١ ما لم تستطع الاشتراكية اليمينية فى انجلترا تحقيقه منذ تولى حزب العمال الحكم لأول مرة سنة ١٩٢٣ . فلا تزال الرأسمالية متغلغلة تماما فى الحياة الاقتصادية فى انجلترا . اذ لا تزال بعض الأسر الارستقراطية الانجليزية تسيطر على المشروعات الصناعية الضخمة . ومن الأمثلة على De Ferranti التى تمتلك وحدها اكبر شركة لانتاج المواد الكهربائية فى انجلترا ، ولا يزال هناك من يمتلك بمفرده نصف مليون **فدان من الاراضى الزراعية وهو** Duke of Buccleuch **ولا يزال آرثر رانك يمتلك حوالى** ٩٠٪ من دور السينما ويسيطر على صناعتها وما زالت أسرة De Havilland تمتلك عدة مصانع ضخمة لانتاج الطائرات الحربية

هذا فى الوقت الذى لا تزال مشكلة البطالة فى انجلترا دون حل حاسم ، ولا يزال ملايين من العمال يعيشون فى ظروف اجتماعية حيرت علماء الاجتماع الانجليز .

فاذا قارنا بين كل ذلك وبين قانون تحديد الملكية الزراعية ، وقانون وضع حد اقصى لدخل الفرد السنوى ، وقوانين **اشتراك العمال فى أرباح المصانع والشركات** التى يعملون بها ، والقوانين التى كفلت لهم حدا أدنى للاجور ، **والقوانين التى خولتهم حق** التمثيل فى مجالس ادارة الشركات ، وقوانين تأميم المشروعات الانتاجية الكبرى والبنوك التى حالت دون افتئات الاستغلال الفردى والمصلحة الخاصة على صالح المجموع ، وقوانين الضرائب التصاعدية ، **اذا اجرينا هذه المقارنة ظهر لنا كيف نجحت الاشتراكية العربية فيما فشلت فيه الاشتراكية** اليمينية فى بريطانيا

٢ – وينحصر الفارق الثانى بين اشتراكيتنا والاشتراكية الانجليزية فى ان الاولى **لا تتجسد فى** اطار حزبى بعيد عن الوحدة القومية كما هو الحال فى الاشتراكية اليمينية فى انجلترا ، اذ يخطط منهاجها ويعمل على تحقيقها حزب العمال البريطانى وهو فى تصارعه الحزبى مع حزب المحافظين الاستقراطى يتخبط فى سياسته وفق اتجاهات الناخبين فنراه يتخلى فى كثير من الظروف عن مبادئه **الاشتراكية مما دعا الى ظهور بعض حركات التمرد** داخل الحزب بين وقت وآخر ، ومن قبيل ذلك الجناح اليسارى الذى ظهر بزعامة أنورين بيفان والذى كان يطالب بالعودة الى مبادىء الاشتراكية الأصلية .

ويعتقد السياسيون أن المعركة العنيفة التى نشبت داخل حزب العمال قد اسفرت عن نبذه فكرة التأميم من الناحية العملية . ويدور التساؤل الآن عن أفضل سياسة ينبغى للحزب اتباعها فى

الانتخابات القادمة والمقدر لها أن تجرى هذا العام لجذب اكبر نسبة من الاصوات (العائمة) والتى لم ترتبط بأى من الحزبين أرتباطا أيديولوجيا . وقد أثبتت التجارب ان هذه الاصوات « العائمة » التى تجمع عددا كبيرا من الشباب المثقف ، تلعب دورا أساسيا فى الانتخابات البريطانية .

ويتفرع على ذلك قصور التطبيـــق الاشتراكى البريطانى عن تحقيق الغايات الاشتراكية السامية على مستوى المجموع . فلو تصورنا أن تولى حزب العمال مقاليد الحكم بحصوله على الاغلبيـــة فى الانتخابات القادمة ، فانه لابد مصطدم كما حدث من قبل بمصالح الطبقة الارستقراطية والتى تتمثل فى مجلس اللوردات ، واصحاب المصالح الاقتصادية والاجتماعية الكبيرة وهم يكونون قوى لا يستهـان بها ، وبذلك تستمر التناقضات هى هى دون تغيير .

اما الاشتراكية العربية فلكونها اشتراكية قومية وليست اشتراكية حزبية ، فانها لن تكون هدفـا لمناورات حزبية أو محلا لهجوم قوى مناهضـــة للاصلاح بعد أن بدأ التطبيق الاشتراكى العـــربى بتخليص البلاد من ادران الرجعية وآثار الاقطاع والراسمالية المستغلة .

ولا شك أن تحالف قوى الشعب العاملة داخـل اطار الاتحاد الاشتراكى العربى هو خير ضمان لعدم الانحراف عن الاهداف .

٣ — ويتبلور الوجه الثالث من وجوه تميـــز الاشتراكية العربية عن الاشتراكية اليمينية فى الهدف التى تتوخاه الأولى بالنسبة لشكل المجتمع فبينما تهدف الاشتراكية العربية الى ازالة الفـــوارق الطبقية المصطنعة وتحقيق مجتمع لا طبقى تسود فيه المساواة القانونية بين أفراده ، وتكافأ فرص الجميع للعيش الكريم ، فان الاشتراكية اليمينية لا تبتغى تحقيق هذا الهدف بل تبقى على الطبقات وعلى الاطار الاجتماعى السائد ، وتحاول ان تحـل التناقضات وان تحقق العدالة الاجتماعية داخـل هذا الاطار .

وهذه النقطة بالذات تمثل فى نظرنا قطب الرحى فى الاشتراكية العربية . فهى فى سبيلها لمواجهـة الصراع الحتمى والطبيعى بين الطبقات لا تلجأ الى طريق العنف والصدام .. وانما تعمل على ايجاد نمط اجتماعى جديد اكثر عدالة لتتوزع بداخله الثروات والدخول فيصبح العمل هو المصـــدر الاساسى للرزق مع وضع حد أقصى للملـــكية الزراعية وللدخل العام مهما تنوعت مصادره .

فحل التناقض الطبقى انما يكون سلميا لانه يتم داخل اطار من الوحدة الوطنية المنظمة ، لا بضربة عشوائية كما فعلت الماركسية . ولعل اكبر كسب ايجابى أحرزته الاشتراكية العربية هو ما نص عليه الميثاق من حق العمال والفلاحين فى الحصول علـى نسبة تساوى ٥٠ ٪ على الاقل من جميع مقـــاعد التنظيمات الشعبية ولجان الاتحاد الاشتراكى اذ ان هذا الاجراء يحيل طبقات الشعب الكادحة الـــى سلطة موجهة بعد ان كانت طبقة لا تتمتع بأى حق من الحقوق .

ان الديمقراطية السياسية التى طالما تشـــدق الانجليز بها لا يمكن أن تتحقق الا بتحقق الحـرية الاجتماعية والتى لا طريق لها الا الاشتراكية . وانه لا شك يتنافى مع الاشتراكية وجود مجلس اللوردات الانجليزى والذى يضم طبقة أصحاب الالقـاب من المتعطلين بالوراثة والتى لا بد أن تقف فى وجـه كل اصلاح جذرى يرمى الى تخليص العمال والفلاحين من ارزاء الماضى ونقلهم الى مستوى التوجيـــه السياسى والاجتماعى للبلاد .



نهاية الاستعمار

بقلم : الدكتور محمد السيد غلاب



اذا كان القرن الخامس عشر قد شهد مطلع عصر الكشوف الجغرافية ، وشهدت القرون الأربعة التالية عصر التوسع الاوروبى عبر المحيطات أو عصر الاستعمار ، فان هذا القرن الحالى ليسمى بحق عصر نهاية الاستعمار . ولقد بدأ التحول والتغير يحل بنظم الاستعمار الاوروبى منذ نهاية الحرب العالمية الاولى ، فانتقلت بعض المستعمرات من مرتبة المستعمرة التى تخضع للحكم الاجنبى المباشر الى مرحلة الحكم الذاتى ، غير أن سرعة التغير نفسه قد ازدادت وسارت بخطى واسعة ، حتى ليبدو لنا الاستعمار وقد انهار انهيارا كبيرا يكاد يكون فجائيا . وحتى لاصبحنا نفتش فى الخريطة بحثا عن مستعمرة ما . بينما كانت أعيننا لا تقع الا على مستعمرات خارج القارتين الاوروبية والامريكية ، وكنا لا نكاد نعثر على دولة مستقلة واحدة فى القارتين الافريقية والاسيوية ، فكيف تم هذا التغير ، وما هى العوامل التى كانت كامنة فظهرت أو التى أثارت قوى جديدة تتطلع الى الاستقلال .

الاستعمار قديما :

الاستعمار ظاهرة بشرية قديمة ، ارتبطت فى عصور ما قبل التاريخ وفجره بانتقال جماعات من البشر وراء الرزق ، واستقرارهم فى أقاليم مختلفة، واتخاذها أوطانا لهم ، وبهذا المعنى يكون الاستعمار هو طلب العمران أو التعمير . وكانت المستعمرة تتكون بانتقال جماعة من الناس من وطنهم الأم ، والاستقرار فى وطن جديد ، ونقل معالم حضارة بلادهم الأولى الأصلية ومدنيتها الى هذا الوطن الجديد ، واقدم امثلة الاستعمار بهذا المعنى فى التاريخ ، بعد ظهور المدنيات الراقية فى حوض النيل الادنى ودجلة والفرات والحوض الشرقى البحر المتوسط عامة ، انتقال شطر من الفينيقيين يحملون حضارة المشرق الى جميع انحاء حوض البحر المتوسط ، وتكوينهم مستعمرات فينيقية فى كل مكان حلوا به ، فى جنوب ايطاليا ، وفى شمال افريقية ، وفى سواحل ايبيريا الجنوبية والشرقية . وكانت المستعمرة الفينيقية تضم المهاجرين من الوطن الام ، وتميزهم فى الحضارة

والثقافة عن سكان البلاد الاصليين ، وعلى هذا الدرب سار الاغريق فيما بعد ، منذ القرن السابع قبل الميلاد .

وتختلف هذه الظاهرة بشريا – أى حضاريا وثقافيا – عن ظاهرة التسلط والسيطرة أو العاهلية (الامبريالية) التى صاحبت تكوين الامبراطورية الرومانية ، فمثل هذه الامبراطورية كانت مثلا لسيطرة قوة مركزيةعلى كثير من الشعوب والامم بحكم البطش والجبروت والغريب انه بينما كتب المستعمرات الاغريقية ان تنجح فى بث الحضارة الاغريقية فى كل مكان حل فيه العنصر الاغريقى – حتى وهو تحت سيطرة الرومان – زالت الامبراطورية الرومانية وذوت وعفت مع مضى الزمان .

وقد شهدت العصور الوسطى حركات هجرة وانتقال واسعة فى أوروبا وافريقية فهاجرت قبائل وشعوب بأسرها من وسط آسيا الى أوروبا ، ودقت أبواب الامبراطورية الرومانية حتى انهارت ، وعمرت السهول والوديان وكونت فيها مستعمرات جرمانية وسلافية مختلفة ، أى استوطنتها ، وكونت الاوطان الاوروبية الحديثة ، كما انبعث العرب من شبه جزيرتهم وانتشروا من الخليج العربى الى المحيط الاطلنطى ، واختلطوا بالسكان الاصليين ، وتزاوجوا معهم ، واستعربت تلك الاقطار واتسعت رقعة الوطن العربى الكبير .

وجاءت آخر مظاهر الاستعمار الاستيطانى فى اعقاب الكشوف الجغرافية الكبرى أى منذ منتصف القرن الخامس عشر ، تلك الكشوف التى تمت على أيدى البحارة الاسبان والبرتغال ثم الهولنديين والفرنسيين والانجليز ، والتى فتحت آفاقا واسعة أمام تلك الشعوب البحرية فى الامريكتين وشرقى آسيا ثم فى استراليا وجزيرتى نيوزيلندة ثم فى افريقية . وقد هاجرت أفواج الاوروبيين الى الامريكتين واستراليا ، واستوعب العالم الجديد اعداد السكان المتزايدين فى أوروبا ، وقداقترنت تلك الحركة بعصر النهضة الاوروبية وتحرر الفكر من وصاية الكنيسة ، كما اقترنت بالفلسفة التجريبية والمادية ، وكان من نتائج تفاعل تلك العوامل جميعا أن تقدمت العلوم الطبيعية وظهرت آثار ذلك التقدم فى تحسن وسائل المواصلات ، وقهر كثير من الاوبئة والامراض المعدية ، فنقص معدل الوفيات وازداد السكان فى أوروبا زيادة كبيرة ، كما أدى تقدم العلوم الطبيعية الى استنباط وسائل اجدى وانفع فى حرث الارض والزراعة فى أوروبا ، أى الى ظهور الثورة الزراعية الاوروبية فى القرن السابع عشر ، كما أدى الى استنباط قوى جديدة تدفع بعجلات الصناعة ، قوة دفع المياه ، ثم قوة دفع البخار ، مما أدى الى ظهور الثورة الصناعية ، وكان من نتائج تلك الثورة القضاء على النظم الاقطاعية وشبه الاقطاعية فى الانتاج ، وظهور المصانع الكبرى وتكدس رأس المال ، وبزوغ قوة الرأسمالية وتأثيرها فى الحكم . وتوجيه دفة الحكم نحو الاستعمار . فالمصانع فى حاجة الى المواد الخام بأرخص الاثمان ، والسلع المصنوعة فى حاجة الى أسواق لتصريف منتجاتها .

الاستعمار الاوروبى الحديث :

ومن ثم كانت حركة الاستعمار الاوروبى الحديث مرتبطة بتطور النظام الاقتصادى والاجتماعى والسياسى لاوروبا الحديثة ، أى مرتبطة بنشأة الرأسمالية التى تسعى الى اجتناء اكبر قسط من الارباح فى اقصر وقت مستطاع ، والتى كانت تهدف باستمرار الى اخضاع اقتصاد المستعمرات ليتلاءم مع اقتصاد الدولة المستعمرة ويخدمه . وبذلك تخدم المستعمرات – بالمفهوم الحديث – غرضين أساسيين : كونها موردا للمواد الخام الرخيصة ، وسوقا لتصريف السلع المصنوعة .

ويعبر سيسيل رودس أحد بناة الامبراطورية البريطانية عن ذلك بقوله « يجب على حكامنا أن يتملكوا اقاليم جديدة لمواجهة زيادة عدد سكان وطننا ، ومن أجل فتح أسواق جديدة لمنتجات مصانعنا ومناجمنا ، وكما قلت دائما ، فان الامبراطورية مسألة تتعلق بالخبز والزبد .. واذا اردنا ان نتجنب اى حرب أهلية فعلينا ان نكون امبرياليين .. »

وكتب ايميه سيزار فى آراء عن الاستعمار : « انه هدف للبحارة والقراصنة والمغامرين الذين يبحثون عن الذهب ، هدف وصلوا اليه بالقوة ، وتحت ستار المدنية ، فى مرحلة معينة من مراحل التاريخ ، مندفعين أمام التنافس فيما بينهم .. » .

« وليس هناك استعمار برىء أو استعمار بدون نية الاستغلال ، وليس بين المستعمر والمستعمر الا الضغط والسرقة ، وفرض ثقافة معينة ، والعنف

والضرائب المجحفة ، والاحتقار وعدم الثقة ، انه لا يوجد اى اتصال انسانى ، فالرجل الابيض المسيطر هو المستفيد والمستغل فى حين ان الرجل الخاضع له ما هو الا وسيلة للانتاج » .

ولكى ندرك فداحة ما صنع المستعمرون فى البلاد التى اكتشفوها ، او التى اخضعوها وحكموها علينا ان نتساءل ، اين امم الهنود الامريكيين فى امريكا الشمالية ؟ والام صار امر الهنود الامريكيين فى امريكا الجنوبية ؟ وكيف وصل الملايين من الرقيق الاسود الى شواطىء الامريكيتين ، وكم من ملايين الانفس قضت نحبها فى حملات النخاسة من سواحل افريقية ، او بفعل الامراض الوبائية فى عرض المحيط الاطلنطى ، وما هو مصير هؤلاء الزنوج فى تلك السواحل البعيدة ، وعلينا ان نتساءل من هو المسئول عن الرق والعبودية واستغلال القوى البشرية ، ومن هو المسئول عن تحطيم القوميات الافريقية والاسيوية وتفتيتها ومسخ شخصياتها ، وعن المآسى البشرية التى نجمت عن سياسة التفرقة العنصرية فى افريقية وامريكا الشمالية .

ان الدول الاستعمارية الرئيسية الكبرى هى دول غرب اوروبا : بريطانيا وفرنسا وبلجيكا وهولنده واسبانيا والبرتغال ، وقد لحقت بها فيما بعد المانيا وايطاليا من ناحية وروسيا واليابان من ناحية اخرى . وتتفق مجموعة دول غرب اوروبا فى انها بحرية وانها صناعية . اذ ارتبط الاستعمار كما بينا بالكشف الجغرافى والمواصلات البحرية بالثروة الصناعية ، اما مجموعة الدول الاستعمارية الاخرى فهى بلاد تشكو — او هكذا تزعم — من اكتظاظها بالسكان .

ومن ثم اختلفت قيمة المستعمرات للدول الامبراطورية بعضها عن البعض الآخر ، فهى اما ذات قيمة استغلالية اقتصادية او استراتيجية او هى مواطن جديدة للفائض من السكان . كما ان الدول الاستعمارية دخلت فى ادوار متعاقبة من التسابق الامبراطورى والنزاع حول المستعمرات ، وشن بعضها على البعض الآخر حروبا استعمارية ، فانهارت بعض الامبراطوريات وتضخمت اخرى على حساب المنهزم وهكذا .

ويمكننا ان نقسم الامبراطوريات الاستعمارية الحديثة الى قسمين : امبراطوريات مندثرة ، واخرى فى دور التصفية . ونخشى ان نضيف قسما آخر هو الامبراطوريات فى دور التكوين او التى تلبس ثيابا جديدة تتفق وروح العصر .

الامبراطوريات المندثرة :

وأول الامبراطوريات المندثرة هى **الامبراطورية الاسبانية** ، وهذه بدأت بكشف كولومبس للعالم الجديد عام ١٤٩٢ ، وبلغت اوجها فى القرن السادس عشر وقامت على رماح طبقة الفاتحين المغامرين conquistadores مثل كورتز فاتح المكسيك وبيرو والانتيل .

وقد امتدت امبراطورية اسبانيا فشملت جبهة المحيط الهادى الامريكية وجزر الفيلبين ، ودخلت اسبانيا فى منافسة مع جارتها البرتغال فى هذا المضمار ، واحتكمت كل من الدولتين الكاثوليكيتين الى البابا الذى اصدر قررا بابويا بتقسيم العالم بينهما بخط طولى وهمى ! وقد اتجه الاستعمار الاسبانى فى امريكا الوسطى والجنوبية الى مناطق تجمع اصحاب المدنيات الامريكية الاصيلة ، مثل الازتك والانكا والمايا ، ولم تكن لدى اسبانيا من القوة البشرية المثلة فى عدد السكان ما يمكنها من تعمير مساحات واسعة فى العالم الجديد ، ولذلك فقد اتجه استعمارها الى الاستغلال الاقتصادى والاستنزاف . وقد تأثرت امبراطوريتها الاستعمارية الجديدة بنظامها السياسى والاجتماعى الداخلى شبه الاقطاعى ، ومن ثم فلم يكن لديها ما تقدمه من خبرة للمستعمرات ولم يكن الحكام الاسبان ، وهم من العسكريين والمغامرين يفعلون شيئا اكثر من تسخير الهنود الامريكيين فى المناجم ، بعد ان بهرهم بريق الذهب والفضة فى يد حكام الازتك السابقين وسحرتهم خرافة الدورادو ، واطبقوا فى نهم وجشع على ثروات الازتك والانكا والمايا ، ثم جلبوا الرقيق الاسود من غرب افريقية ليستنزفوا قواهم فى زراعة قصب السكر والطباق ليحصلوا على مزيد من الثروة ، وهكذا أصبح الاستعمار الاسبانى متسما بالقسوة فى سبيل الاستغلال الاستنزافى والثراء السريع ، فحطم قوى الشعب الهندى الاصلى ، كما حطموا تنظيماته الاجتماعية والاقتصادية .

وبدأت حركة تحرير المستعمرات الاسبانية السابقة فى العالم الجديد عام ١٨٣٠ ، وانتهت عام ١٨٩٨ باستقلال كوبا والفيلبين ، عقب الحرب الامريكية الاسبانية القصيرة الحاسمة .

غير أن الاسبان قد تركوا لغتهم وعاداتهم ونشروا الدين المسيحي في أمريكا الوسطى والجنوبية ، كما أنهم تركوا نظاما سياسيا شبه اقطاعى من الناحية الاجتماعية ، واستعماريا من الناحية الاقتصادية ، فالمجتمع الامريكي اللاتيني يتكون من قاعدة عريضة من الهنود الحمر سكان البلاد الاصليين ، فوقها طبقة أخرى من الخلاسيين وعامة الاسبان carole وتتربع فوق القمة حفنة صغيرة من سلالة المغامرين الفاتحين القدماء ، وهذه القلة هي التي تملك الاقطاعيات الواسعة haciendas تضم الواحدة منها عددا كبيرا من القرى الهندية ، يعمل فيها سكانها من الهنود الامريكيين والخلاسيين كأشباه الرقيق ، والطبقة الحاكمة في معظم جمهوريات امريكا اللاتينية لا تزال تحمل طابع المستعمر الاسباني القديم ، دمه ولغته وتقاليده الاقطاعية ، والشعوب لا تزال في حالة استرقاق ، ليس هذا فحسب ، بل ان تلك الطبقة الرقيقة من الحكام تترك للرأسمالية الامريكية (من الولايات المتحدة) استغلال ثروات البلاد الزراعية والمعدنية في مقابل تأمين حياة مترفة للقلة الغنية .

***

ومن ثم لا نستطيع أن نقول ان الاستعمار قد انتهى من أمريكا اللاتينية بمجرد اعلان استقلال جمهورياتها ، ما دام لم يصحب هذا الاستقلال ثورة اجتماعية حقيقية تعيد للاغلبية من الهنود الامريكيين والخلاسيين بل وفقراء الاسبان حقوقهم المشروعة في اوطانهم ، وما دام هذا الاستقلال لم يتحرر من سيطرة رأس المال الاجنبى من ناحية ومن النظم الاجتماعية الطبقية من ناحية أخرى . وتدل البوادر التي تظهر من حين الى آخر ، الى أن سير التاريخ في امريكا اللاتينية يشير الى هذا الاتجاه .

أما الاتجاه الآخر للاستعمار الاسباني فكان صوب الساحل الافريقي ، اذ تحرك العداء القديم بين الاسبان والمغاربة في مطلع هذا القرن ، واتخذت اسبانيا لها موطأ قدم على الريف الاسباني الى أن تم استقلال المغرب سنة ١٩٥٦ ، ولا تزال هناك ممتلكات اسبانية في الصحراء الكبرى ، دافنى ، ونقط صغيرة متفرقة على الساحل الافريقي الغربي وهي ساحل الذهب الاسباني وجزر فرناندو بو وانوبون داخل خليج غانا ، وغانا الاسبانية الصغيرة ، وهذه جميعا غنية في انتاج زيت النخيل والكاكاو ، كما لا تزال أسبانيا محتفظة بجزر كناريا .

أما الامبراطورية المندثرة الثانية فهي **امبراطورية البرتغال** ، وقد بدأت بحركة الكشوف الجغرافية في القرن السادس عشر ، ولا تزال تحمل الطابع البحري القديم ، فهي عبارة عن نقط ارتكاز ومحطات بحرية حول الساحل الافريقي ، أو الطريق الى الهند ، وقواعد بحرية أخرى على المحيط الهندي .

***

وكان للبرتغال امبراطورية واسعة في البرازيل ، تتبع نفس الاسلوب الاسباني في الاستعمار ، مع فارق واحد ، وهو تساهل البرتغاليين في الامتزاج مع سكان البلاد الاصليين واتخاذ الاماء والسرارى منهم ، ومن ثم تكونت سلالات خلاسية من مختلف العناصر الاثنولوجية في البرازيل ، واصبحت البرازيل بوتقة هائلة لصهر مختلف السلالات والشعوب . ولقد كان لعامل قلة عدد السكان البرتغاليين أثر كبير في فصم عرى الامبراطورية البرتغالية في العالم الجديد ، كما ان نظام حكمها الداخلي شبه الاقطاعي لم يتسع لحكم امبراطورية بعيدة ، ومن ثم أعلنت البرازيل استقلالها عام ١٨٨٨ .

ولا تزال بقايا الامبراطورية البرتغالية حتى الوقت الحاضر ممثلة في كاب فرت في غينيا البرتغالية وجزيرة ساو تومية الضئيلة القابعة داخل خليج غانا . واكبر هذه المستعمرات هي انجولا وموزمبيق ، على كل من الساحلين الغربي والشرقي لجنوب افريقية ، ولقد عمل سيسيل رودس على أن تظل كل من هاتين المستعمرتين بعيدة عن الاخرى ، وأسس مستعمرتى روديسيا الجنوبية وروديسيا الشمالية لتفصل بينهما ، بل انه لم يتورع عن أن يفاوض الالمان لتصفية مستعمرات البرتغال في افريقية قبيل الحرب العالمية الاولى .

أما النقط الاستعمارية البرتغالية الاخرى في آسيا فهي بقايا المحطات البحرية والتجارية التي كانت للبرتغال على اطراف تلك القارة في القرن الخامس عشر ، فلقد كانت البرتغال أولى الدول الاوروبية في اقتحام المحيط الهندي للتجارة ، يدفعها الى ذلك عامل الاستئثار بأرباح تجارة التوابل والافاوية الهندية والحرير الصيني الطائلة من ناحية والرغبة في مطاردة التجار العرب المسلمين في البحار الدفيئة من ناحية أخرى . ولم يستطع البرتغاليون

ـ بسبب قوة الامارات والممالك الهندية وتماسك الامبراطورية الصينية في ذلك الحين ـ من أن يظفروا بأكثر من مواطىء اقدام ضئيلة على سواحل الهند والصين ، هي جوا وديو ، وجزيرة تيمور الصغيرة في خليج السوند ومكاو قرب كانتون .

دخلت **هولنده** ميدان الكشوف الجغرافية في القرن السابع عشر ، وكونت شركة الهند الشرقية عام ١٦٠٢ ، واستطاعت تلك الشركة ان تقيم راس جسر لها في جزيرة جاوه بتأسيسها بتافيا سنة ١٦١٠ ، ومنها انتشرت الى بقية جزر السوند وملكا وسيلان وملقا ، كما انتشرت في نصف الكرة الغربي وأسس الهولنديون امستردام الجديدة على الساحل الشرقي لامريكا الشمالية وأسسوا لهم مستعمرة هولندية قديمة على ذلك الساحل ، وهذه هي نواة نيويورك فيما بعد ، كما اسسوا مستعمرات أخرى في جزر الهند الغربية والبحر الكاريبي وساحل امريكا اللاتينية الشرقي المداري .

غير ان حروب نابليون قد اخرجتها من مستعمراتها فلم تبق لها الا جزر الهند الشرقية وغيانا البرتغالية .

ويعتبر الاستعمار الهولندي مثلا في الاستغلال الاقتصادي البشع ، فلقد فرض الهولنديون على الاندونيسيين نظاما يشبه نظام السخرة البرتغالي ، اذ كان على اهالي القرى ان يتركوا خمس زمام القرية يزرعونه بدون مقابل لمصلحة الخزانة الهولندية ، كما كان على الفلاح الاندونيسي أن يقدم سدس مجهوده البشري في المزارع الهولندية الواسعة بدون مقابل ، وبذلك استطاعت هولندة ان تثرى على حساب الشعب الاندونيسي ، وتمكنت حكومتها من سداد دينها العام ، كما استطاعت اموال الخزينة الهولندية ان تكون جيشا قويا ، وتجدد خطوطها الحديدية وتعمق قنواتها المائية ، وان تزيد رقعة اراضيها ، وقد استمر هذا النظام الاستغلالي حتى عام ١٩١٨ ، عندما حل محله نظام الشركات الاستعمارية الاحتكارية الكبرى .

وتمكنت هولنده عام ١٩٣٩ ، وهي دولة صغيرة لا يزيد عدد سكانها على عشرة ملايين نسمة ـ أن تحتكر انتاج الكينا والفلفل في العالم وأن تمتلك ثلث مطاط العالم ، وربع زيت النخيل ، وخمس الشاي والقصدير ، وعشر السكر العالمي و ٤ ٪ من البن العالمي و ٣ ٪ من البترول العالمي ، وأن تتحكم في نحو ٧٠ مليون نسمة من البشر يزدادون مع الايام فقرا بينما هي تزداد غنى وثروة ! .

وقد انهارت هذه الامبراطورية الكبيرة بعد الحرب العالمية الثانية عندما رفض الاندونيسيون عودة الهولنديين مرة أخرى عام ١٩٤٥ ، وعندما التفوا حول وحدة لغتهم الملاوية ووحدة دينهم الاسلامي وحضارتهم الهندية ، وحملوا السلاح في وجه هولندة .

ولم يبق لهولنده سوى غيانا الهولندية على ساحل أمريكا الجنوبية الشرقي ، وبعض جزر الأنيئل الصغرى وجزيرة كراكاو ، ولهذه الجزيرة اهمية خاصة ، فهي التي تكرر بترول فنزويلا .

ان بلجيكا ودول وسط أوروبا ـ المانيا وايطاليا ـ لم تدخل ميدان الاستعمار الا متأخرة ، فبلجيكا لم تستقل الا عام ١٨٣٠ ، وقد دفع ثاني ملوكها ليوبولد الثاني بالمغامر الامريكي ستانلي الى وسط افريقية عام ١٨٨٦ ، وشجعه على المضي في اكتشاف نهر الكونغو ، في قلب افريقية الاستوائية ، التي ادارها كملكية خاصة ، سماها بالكونغو الحرة ، أي الحرة من رقابة البرلمان والحكومة البلجيكية ، ومارس فيها سياسة استغلالية بشعة ، الى أن تم وضعها تحت اشراف الحكومة البلجيكية نفسها . وتنتج الكونغو ٧٪ من النحاس العالمي ، الى جانب المنجنيز والقصدير والاورانيوم ، والمنتجات النباتية مثل زيت النخيل .

ومن الممكن أن نفهم شيئا مما يحدث في الكونغو بعد اعلان استقلالها عام ١٩٦٠ اذا تذكرنا بعض الحقائق الآتية : أن الحكومة البلجيكية تكاد تحتكر اسهم الشركة العامة البلجيكية التي تشمل شركة مناجم الماس واتحاد مناجم كاتنجا العليا بما تحويه من مناجم النحاس والكوبالت والاورانيوم . وتمتلك شركة بريطانية ١٤ ٪ من ارباح شركة مناجم كاتنجا السالفة الذكر ، وهذه الشركة تمتلك في الوقت نفسه ٩٠ ٪ من أسهم شركة خط حديد بنجويلا التي تقوم بتصدير منتجات كاتنجا المعدنية . كما ان حكومة الولايات المتحدة كانت قد وقعت اتفاقا مع حكومة بلجيكا عام ١٩٥٥ يخول لشركاتها الحق في الحصول على ٩٠ ٪ من الاورانيوم والثوريوم المستخرج من الكونغو .

فمصالح كل من بلجيكا وبريطانيا والولايات المتحدة متفقة فى الثروات المعدنية الهائلة التى تنتجها كاتنجا .

وهكذا كان الكونغو مثلا لانهيار استعمار سياسى استغلالى وقيام استعمار اقتصادى دولى من طراز معين .

اما **الامبراطورية الالمانية والايطالية** ، فهما امبراطوريتان قصيرتا العمر ، جاءتا متأخرتين بعد انتهاء عهود الكشف الجغرافى ونشأة الراسمالية والتكالب على الاستعمار . وربما كان هذا هو سبب المرارة التى كانت تشعر بها كل من المانيا وايطاليا نحو جاراتها الغربية . وقد قضت الحرب العالمية الاولى على امبراطورية المانيا فى توجو وكاميون وجنوب غرب افريقية وتنجانيقا . كما صفت ممتلكاتها فى شمال شرق غينيا الجديدة ، وارخبيل بسمارك وجزر مكرونيزنيا وساموا فى المحيط الهادى . وتقاسمت كل من بريطانيا وفرنسا وبلجيكا واليابان هذه الممتلكات .

وقد بدأت ايطاليا مغامراتها الحبشية عام ١٨٨٥ باحتلال مصوع وساحل ارتريا ، ولكنها انتهت بكارثة عدوة ، وغزت طرابلس عام ١٩١١ وضمت جزر الدوديكانيز فى نفس الفترة ، ثم لاحت لموسولينى أحلام عظمة قائمة على التوسع الامبراطورى ، فارسل جيوشه لغزو الحبشة عام ١٩٣٥ وضم المانيا عام ١٩٣٩ ، وكان يحلم بضم السودان حتى يتم ايصال شرقى افريقية الايطالى بسواحل برقة وطرابلس ، كما كان يحلم بضم تونس وقناة السويس . غير ان معظم امبراطوريته كانت مساحات صحراوية ، ولم تكن تضم اكثر من ١٢ مليون نسمة ، وأخيرا انهارت فجأة بعد خروج ايطاليا منهزمة من الحرب عام ١٩٤٥ .

امبراطوريات فى دور التصفية :

اما **الامبراطورية البريطانية** فهى تمثل صور الاستعمار الاوروبى الحديث ، الذى يتغير ويتطور ليلائم الظروف المتغيرة التى تجابهه باستمرار .

لقد كانت انجلترا حتى آخر القرن السادس عشر أمة من الفلاحين والصيادين ، الى ان اقتحم القراصنة الانجليز عباب الماء ، واعترضت سفنهم السفن الاسبانية العائدة من العالم الجديد محملة بمنتجاته من طباق وجلود وسكر ، وبثرواته من ذهب وفضة . وكان اشهر هؤلاء القراصنة سير فرانسيز دريك الذى أصبحت هجماته على المستعمرات الاسبانية فى البحر الكاريبى أعمالا وطنية ومربحة فى نفس الوقت . وبذلك تكون الاسطول البريطانى فى عهد الملكة اليزابيث الاولى .

وسارت انجلترا على غرار البرتغال وهولندة ، فأسست شركة الهند الشرقية التى بدأت تشق طريقها بصعوبة وجهد وصبر وأناة فى شبه القارة الهندية الضخمة ، كما اتجهت عبر المحيط الاطلنطى غربا واسست مستعمراتها على الساحل الامريكى، وكانت مستعمرات بالمعنى القديم للكلمة ، أى أوطان صغيرة تستقبل الفلاحين الذين لفظتهم أراضى النبلاء عندما حولوها من زراعة القمح الى رعى الضأن لانتاج الصوف ، والهاربين بعقائدهم الدينية المضطهدة ، ودأب هؤلاء المهاجرون منذ أول يوم الى قطع الغابات وتمهيد الارض للزراعة ، وبناء السفن للبحث عن رزق البحر وزراعة الحقول وتربية الحيوان وانشاء القرى والمدن ، أى انهم اتجهوا الى الاستعمار الاستيطانى .

ولقد لقنت المستعمرات الامريكية حكومة انجلترا درسا لم تنسه قط ، فبعد اعلان استقلال تلك المستعمرات التى أصبحت الولايات الثلاثة عشر الاولى عام ١٧٩٨ ، بدأ الانجليز فى استخدام كثير من الحذق واللباقة على مستعمراتهم فيما وراء البحار ، ولا سيما وان تطور النظام الاقتصادى والاجتماعى داخل بريطانيا ، ونشأة الثورة الصناعية فيها قد أكدت استمرار حاجتها الى الاستعمار . فلم تكن بريطانيا عندما دخلت ميدان الاستعمار تحمل آثار طبقة شبه اقطاعية، كما كانت تفعل اسبانيا والبرتغال فى منتصف القرن الخامس عشر ، ولم تكل امبراطوريتها الى مغامرين ومرتزقة يقتطعون لانفسهم الاقطاعيات الواسعة فى المستعمرات ، بينما يكتفى البلاط الملكى فى الدولة الام بنصيب معين على شكل جزية ، ولم يكن همها مجرد اختزان الذهب والفضة ، ولكنها دخلت هذا الميدان لخدمة نظام اقتصادى يقدم على الصناعة الراسمالية الكبيرة ، وكان غرضها من المستعمرات ان تستوعب الاعداد الكبيرة من السكان المتزايدين باستمرار ، أو توفر الغذاء اللازم لهم فى وطنهم الام، وكانت تسعى الى بناء قوتها كدولة عظمى ورفع مستوى معيشة أهلها ، والعمل على رخاء اقتصادياتها ورفاهية طبقة المالكين لاسهم الشركات فيها .

وقد كانت انجلترة تتفوق على الدول الاوروبية الاخرى فى الصناعة ، ومن ثم تحمل لواء حرية التجارة ، وكانت ترى فى الهند مستودعا لا ينفد للمواد الخام وسوقا واسعة لتجارتها . فعملت على حماية حدود الهند وتأمين تخومها ، وكان هذا يعنى ضم مساحات جديدة اليها ، من جميع أطرافها ، ويعتبر القرن التاسع عشر بحق عصر التوسع الامبراطورى البريطانى فى الشرق الاقصى وفى افريقية وظهرت نظرية تفوق الجنس الانجليزى ، الذى قال عنه الفيلسوف البريطانى جوزيف تشمبرلين : « هذا الجنس هو أعظم جنس حاكم عرفه التاريخ » كما قال كتشنر « ان ايماننا بسمو جنسنا جعلنا نغزو الهند ، واذا كان هناك مواطن هندى واحد بلغ من التعليم والذكاء شأوا بعيدا ، وحصل على اعلى الرتب التى يمكننا منحها اياه ، فانى مؤمن — على الرغم من هذا — بأنه لا يمكن ان يصل باى حال من الاحوال الى مستوى اى ضابط بريطانى مهما أثبت من شجاعة واقدام » .

وقد استطاعت بريطانيا ان تستأثر — بحق الكشف الجغرافى — على القارة الاسترالية كلها كما واصلت تقدمها غربا فى كندا ، ودخلت فى منافسة مريرة مع فرنسا فى التكالب على القارة الافريقية ، ودخلت فى حرب مع البوير عام ١٨٩٩ للسيطرة على جنوب افريقية واختلقت مشكلة مع مصر واحتلتها عام ١٨٨٢ .

وانتهزت فرصة هزيمة المانيا وتركيا عام ١٩١٨ وحلت من الاولى فى ممتلكاتها بشرقى افريقية ، والمحيط الهادى ، وفى الحصول على انتداب فلسطين والعراق وتثبيت اقدامها فى مصر .

وكانت الامبراطورية البريطانية تتكون من الممتلكات البيضاء : كندا واستراليا ونيوزيلنده وجنوب افريقية ، ومن امبراطورية الهند ، ومن الممتلكات الاستعمارية والمحميات فى افريقية وجزر الانتيل وجنوب شبه جزيرة العرب وفى الشرق الاقصى .

وكانت الامبراطورية البريطانية اعظم قوة سياسية واقتصادية فى العالم عام ١٩٣٩ ، تضم ربع سكان العالم ، وتهيمن على جزء كبير من الانتاج العالمى : نصف الارز العالمى ونصف الكاكاو والشاى والكتان والمطاط والقصدير والمنجنيز فى العالم . وتهيمن ايضا على ثلاثة ارباع الذهب والنيكل فى العالم ، وكل الجوت العالمى ، وثلث السكر والفحم والنحاس العالمى و ١٥ ٪ من القمح واللحم والزبد والقطن والحديد والفولاذ ، وتهيمن أيضا على انتاج بترول الشرق الادنى .

وكانت تخدم تلك الامبراطورية الضخمة اكبر بحرية فى العالم ، اسطول تجارى واسطول بحرى ينقل تلك الثروات الطائلة لتصب فى الجزر البريطانية ، مركز الصناعة ، حيث يعيش ٨٠ ٪ من السكان فى مدن . وعمال المصانع أو تجار صغار أو رجال أعمال كبار ، حيث تلعب الاسهم والبورصة دورا كبيرا فى حياة كل مواطن ، وحيث توجد الاسواق العالمية لمنتجات العالم الزراعية ، ففيها سوق القطن العالمى فى لفربول ، وسوق الكاكاو العالمى وسوق الجوت العالمى ، كل شئ يصب فى لندن ، ومن لندن يبدأ التوزيع . والى لندن تعود الارباح لتتحول الى عمائر ومؤسسات ومدينة راسخة ، والى زبد يغطى خبز الرجل الانجليزى فى الصباح وحديقة أنيقة امام منزله وسيارة خاصة . اى تتحول الى مستوى معيشى رفيع . كل هذا على حساب الكولى فى الشرق الاقصى ، والفلاح الهندى الذى يكاد يتضور جوعا ، ومنتج القطن فى دلتا مصر ، وعمال المناجم فى غرب افريقية !

ومن ثم كان الحرص الشديد على تأمين الامبراطورية وطرقها الجوية ، وكان احتلال النقط الاستراتيجية على طول شريان الحياة البريطانية ، من جبل طارق الى مالطة : قبرص — السويس — عدن — سنغافورة وطريق المحيط الاطلنطى والمحيط الهندى الى استراليا وطريق الاطلنطى وبناما الى استراليا .

وعلى ضوء هذا الحرص على تماسك الامبراطورية يمكن ان نفهم السياسة البريطانية فى القرنين الاخيرين ، فالتدخل البريطانى فى مصر ، والحمايات المضروبة على حوافى شبه الجزيرة العربية ، من عدن الى الكويت ، والانتداب البريطانى على فلسطين وشرقى الاردن والعراق ، كل هذا لتأمين طريق الهند الاصلى او الطريق البرى او الاضافى الى الهند ، وسياستها تجاه افغانستان وايران ايضا يمكن تفسيرها على هذا الضوء . فالشرق العربى والشرق الادنى بالنسبة لبريطانيا فقط ذات قيمة استراتيجية حتى قبل الكشف عن البترول ، وهو ايضا مادة استراتيجية زاد من اهمية هذه المنطقة .

أما افريقية فهى بالنسبة لبريطانيا ، مجـال الاستغلال الاقتصادى الواسـع ، والاستعمـار الاستيطاني حيث يطيب المناخ وتجود التربة «مثل جبال كينيا» ، وبقية الامبراطورية مجال اقتصادى واسع للصناعة البريطانية ، تحصل منها على المواد الخام بادنى الاسعار وتبيعها السلع المصنوعة ، أو مجال لاستثمار رءوس الاموال البريطانية ، اذ لم تكن هناك دولة صناعية واحدة فى الامبراطورية كلها سوى بريطانيا وحدها .

***

وان حرص بريطانيا على مستوى معيشة شعبها الرفيع هو الذى جعلها تستجيب لرغبات الشعوب التى تتحكمها وتحـاول الا تقطع ما بينهـا وبين الشعوب المستعمرة من علاقات ووشائج ، فابتدعت لذلك نظم الحكم الذاتى لايرلندة ، والحكم غـير المباشر لنيجيريا ونظـام الدومنيون ثم الكومنولث للممتلكات البيضاء ، واعترفت بالاستقلال لبعض الشعوب اذا وجدت الا مفر من ذلك . ولكنهـا كانت تعمل على أن ترتبط بمعاهدات اقتصـادية ودفاعية مثل معاهدات العـراق ١٩٣٠ ، ومصر ١٩٣٦ والاردن ١٩٤٦ .

ولعل أهم مظاهر الامبراطورية البريطانيـة فى الوقت الحاضر أنها سلمت الاستقلال الجزءالاكبر من الامبراطورية ، حتى لم تعد هناك امبراطورية ، وانها طورت نظام الدومنيون الـى الكومنولث ، بل ان دول الكومنولث نفسها بدأت تسلك سلوك الدول التامة الاستقلال .

وقد نشأ نظام الدمنيون Dominion البريطانى عام ١٩١٠ ، بعد ان خرجت بريطانيا منتصرة من حرب البوير ، وهى أول حـرب استعمارية بين أوروبيين وأوروبيين ، بقصد اخضاعهم بقـوة السلاح . ويبدو أن ساسة بريطانيـا ارادوا أن يخففوا من وطأة هذا الاذلال العسكرى فأعلنوا نظام الدومنيون فى الممتلكات البيضاء : جنوب افريقية . (مع تجاهل تام للاغلبية السوداء المطلقة) . وكندا واستراليا ونيوزيلنده ، حيث تعيش مجتمعات بريطانية كبيرة ، مما يذكرنا بالمستعمرات الفينيقية القديمة، وتعرف الدومنيون بأنها «مجتمعات مستقلة استقلالا ذاتيا ، داخل الامبراطورية البريطانيـة ، متساوية فى المركز ، لا تخضع احداها للاخرى بأى شكل من الاشكال ، سواء فى الامور الداخليـة أو الخارجية ، رغم اتحادهـا فى الولاء المشـترك للتاج » .

وبذلك اصبحت كل دومنيون دولة مستقلة لهـا حكومتها وتمثيلها السياسى الخاص ولكنها تحتفظ بروابط اربعة مع بريطانيا :

١ ــ الوحدة ورمزها التاج الذى يمثله حـاكم عام فى كل دومنيون .

٢ ــ المؤتمر الامبراطورى الذى ينعقـد بصفة دورية ، مرة كل عام على الاقل ــ من رؤساءوزارات الدومنيون ، لبحث المسائل الاقتصاديةوالسياسية العامة .

٣ ــ وجود وزير للدمنيون فى لنـدن ومندوب سام عن كل دومنيون فى لندن .

٤ ــ مجلس الدفاع الامبراطورى الذى يعقـد فى لندن .

وقد تغير اسم الدومنيون فيما بعـد الـى الكومنولث البريطانى عام ١٩٤٧ ، واصبح هـذا الاسم يحل محـل الامبراطورية البريطانيـة ، وخصوصا بعد استقلال الهند وباكستان ــ اصبح يتكون من : المملكة المتحدة (بريطانيا) وملحقاتها ، وجنوب افريقية ، وكندا واستراليا ونيوزيلنده . والهند وباكستان وسيلان واتحـاد الملايو وغانا ونيجيريا واتحاد جزر الهند الغربيـة . وتعرض بريطانيا باستمرار عضوية الكومنولث البريطانى على كل مستعمرة سابقة لها تحصل على الاستقلال .

وقد اصبحت كل من الهند وباكستان جمهورية ترفض الولاء للتاج البريطانى ، وان اعترفت بالتاج راسا للكومنولث ، وبذلك ضربتا المثل لغانا وجنوب افريقية .

وتربط دول الكومنولث بعضها بالبعض الآخـر مصالح اقتصادية هامة ، تحرص بريطانيا على دعمها وأهمها التمتع بامتيازات الدولة الاكثر رعـاية من ناحية الجمارك .

وقد أصيب هذاالنظام بعدة ضربات متواليـة ، كان من أولها رفض بورما الانضمام اليه ، وتفضيلها الاستقلال التام عام ١٩٤٧ ، ورفض جمهـورية ايرلنده البقاء فيه ومقاومة الوطنيين الافريقيين فى وسط افريقية فكرة الاتحاد الذى يضم روديسيا الجنوبية ومحمية روديسيا الشمالية ونياسـلاند توطئة لاعلان الاستقلال وعضوية الكومنولث واعلان جمهورية جنوب افريقية وانفصالها منه .

ولقد كان الدمنيون البريطانى أهم مورد للمواد الخام للدولة الام ، فهنـــاك امبراطورية الخشب والقمح فى كندا ، والصوف فى استراليـــا .. الخ . وأهم سوق للسلع البريطانية واكبر مجال لاستثمار رءوس الاموال ، وخزان كبير للقوى البشرية تجند منه الفيالق والفرق وتزج بها فى أتون المعارك خلال الحربين الماضيتين . ولقد وصلت تجار بريطانيـا مع دول الدومنيون عام ١٩٢٠ الى ٦٠ ٪ من قيمة تجارتها الخارجية ثم هبطت الى ٤٨ ٪ عام ١٩٥٣ اذ ازدادت كندا ارتباطا بالولايات المتحدة ، وبدات تقوم بها صناعات متعددة تستغنى بها عن السلع البريطانية .

الا أن دول الكومنـــولث لا تزال ترتبط برابطة الجنيه الاسترلينى ، التى تمنح لاعضائها تسهيلات اقتصادية معينة ، وسياسة التفضيل الجمـركى وتميزها تمييزا خاصا فى المعاملة الجمركية ، وهى جميعا ذات سياسات نقدية مشتركة ، وتربـــط عملاتها بسعر خاص ثابت مع الجنيه الاسترلينى .

اما فرنسا فلقد كانت لها ثانى امبراطورية مـن حيث المساحة وعدد السكان عام ١٩٣٩ غـير أن فرنسا ، بحكم موقعها الجغرافى ، دولة بحرية تطل على ثلاثة بحار ، ودولة قارية تحيط بها حدود برية لست دول ، ولذلك فقـــد كانت موزعة القلب بين أوروبا من ناحية وبين مغامرات ما وراء البحـار من ناحية اخرى، فلم تعرف فى سياستها الاستعمارية الاستمرار التاريخى أو وضوح الهدف أو وحـدة الفكرة ، وعجزت عن تطوير نظمهـــا الاستعمارية بحيث تتلاءم مع التطور الفكرى والنمو القـــومى للمستعمرات ، ومن ثم كانت تنسلخ منهـــــا مستعمراتها انسلاخا عنيفا نتيجة حرب داميـــة كما حدث فى الصين الهندية أو فى الجزائر .

وقامت أول امبراطورية فرنسية فى القـــرن الخامس عشر ، وشملت كندا وبعض جزر البحر الكاريبى ووادى نهر المسيسبى ، ولكنهـــا تأثرت بحروب لويس الخامس عشر والحروب الانجليزية الفرنسية فى عهد نابليون ، وانتهت تلك الامبراطورية بالتمزق تماما عام ١٨١٧ .

غير أن معاهدة فينا التى ختمت عصر الامبراطورية الاول فى فرنسا، قد تركت لفرنسا بعض المستعمرات قليلة الشأن مثل جزر المارتنيك وجواولوب وغيانا فى العالم الجديد وريونيون ونقط خمس على سواحل الهند . وقد استغلت فرنسا تلك المستعمرات كنقط انطلاق لبنـــاء امبراطورية ثانية ، رافقت قيـــام الجمهورية الثانية ، واعظمها ما فقدته من هيبـــة ، وسار الاستعمار الفرنسى فى اتجاهين ، اتجـــاه افريقى وآخر اسيوى ، أما الاتجاه الاول فاتخذ من الجزائر والسنغال قاعدتين له ، توغل منها نحـو داخل القارة الافريقية ، والتقى الاتجـــاهان فى الصحراء الكبرى والنطاق السودانى .

ثم كانت الامبراطورية الثانية وهزيمتها على يد بسمارك سنة ١٨٧٠ ، تلك الهزيمـة التى خرجت منها فرنسا أشد جشعا فى ميدان الاستعمار لاسترداد هيبتها مرة اخرى! فسارت فى سياستها الاستعمارية فى الجزائر ، وجعلت منهـــا موطنا للاستعمـــار الاستيطانى ، واتجهت نحو الاستعمار الاستغلالـى فى المستعمرات المدارية وحاولت من مناطق نفوذها فى المشرق العربى (الانتداب علـى لبنان وسوريا عام ١٩٢٠) .

ورغم تاريخ فرنسا الطويل فى ميدان الاستعمار، فانها لم تستطع تكييف سياسة خاصة لها ، وباءت فكرة الاندماج assimilation فى كثير من الممتلكات الفرنسية بالفشل ، فقد رفضها الجزائريون ، كما رفضها الفتناميون ، وهى نفسها لم تفعل شيئا يبرر تلك السياسة ، فهى لم تنشىء فى المستعمرات سوى مدارس ابتدائية ، ولم تشيد اقتصـــادا قويا فى المستعمرات ، ولم تحاول أن تتقرب من المجتمعات الوطنية ، واصبح فى كل مستعمرة فرنســـية مجتمعان ، مجتمع فرنسى ومجتمع وطنى ، وانشأت فى كل مستعمرة نظاما خاصا يعامل به الوطنيون أو الاصليون indigénat تميزا لهم عن القانون المدنى الذى يطبق على الفرنسيين والاوروبيين ، ولا تقارب أو اندماج بين كل من المجتمعين . بل انها استخدمت سلطتها فى المستعمرات بجبـــر الوطنيون فى العمل الاجبارى travail forcé فى مزارع الدولة أو الشركات الاستقلالية .

ولم يكن لدى فرنسا ما تبرر بانشاء مستعمرات استيطانية ودعوة مهاجرين فرنسيين للاقامة بها ، فسكان فرنسا لم يزدادوا زيادة كبيرة منذ القرن الثامن عشر ، ثم تباطأت هذه الزيادة فى القـــرن التاسع عشر .

ففى عام ١٨٦١ كان عـــدد سكان فرنســـا ٣٧ر٤٠٠ر٠٠٠ نسمة .

وفي عام ١٩٥٥ اصبح عـدد سكان فرنسا ٤٣٫٢١٦٫٠٠٠ نسمة .

أي ان سكان فرنسا ازدادوا بنسبة ١٦ ٪ في نحو قرن من الزمان (٩٤ سنة) !

ولقد كان هذا البطء الشديد في زيادة السكان عاملا معرقلا لنموها الاستعماري، لاسيما اذا تذكرنا انها دخلت ثلاثة حروب كبرى خلال قرن واحد ، ما بين ١٨٧٠ – ١٩٤٥ ، ولذلك كانت فرنسا تلجأ الى المستعمرات لتجنيـد القوى اللازمة لوقود الحرب .

بعد الحرب العالمية الثانية ، ارادت فرنسا ان تطور نظام امبراطوريتها الاستعمارية ، فدعت الى اجتماع برازفيل (في الكونغو الفرنسي) عام ١٩٤٦ لبحث العلاقة بين فرنسا والمتلكات المحكومة . ولكن قرارات هذا المؤتمر ، التي صيغت بلغة جميلة لم تغفل أكثر من اعلان أبوة الحكومة الفرنسية paternalism ولم يتحدث عن دول المستعمرات ، بل عن شعوبها ولم يعترف بالمساواة بين الفرنسيين والمحكومين ، فالاتحاد الفرنسي الذي حل محل الامبراطورية الفرنسية انشيء لكي يساعد المتلكات الفرنسية على ان تتطور تطورا ديمقراطيا ، بينما يظل مرتبطا بروابط المصـالح المشتركة . وقد تأسس هذا الاتحاد مع تأسيس الجمهورية الرابعة عام ١٩٤٦ وللاتحاد رئيس هو رئيس الجمهورية الفرنسية . ومجلس أعلى يتكون من ممثلي الحكومة الفرنسية وممثلي الدول المنضمة للاتحاد ، ومجلس يضم ممثلي الاتحاد جميعا . غير ان هـذا المجلس لا سلطة له فهو مجرد مجلس استشاري للحكومة الفرنسية والحكومات الاستعمارية . وتحاول فرنسا بهذا الاتحاد ان تجمع شمل المستعمرات في وحدة اجتماعية وحضارية وسياسية ، على أن تكـون لها القيادة لا ينازعها فيه منازع . ويضـم الاتحاد الآن جزر مارتنيك وجوا ولوب ويوتيون وجيـانا وغرب افريقيا الفرنسي (سابقا) وشرق افريقيـة الفرنسي (سابقا) وملاجاشي .

كما أنشأت فرنسا علاقات خاصة مع مستعمراتها ومحمياتها السابقة في الجزائر والمغرب وتونس وقد ابتدعت فرنسا تعبيرا مستحدثا يدل على العلاقة التي تحتفظ بها والتي تربطها ومستعمراتها السابقة وهو تبادل المنفعة ، غير ان هذا التعبير لم يمنـع غيانا الافريقية من أن تصوت ضد البقاء في الاتحاد الفرنسي، وتفضل الاستقلال التام عندما قدم دي‌جول استفتاءه المشهور للمستعمرات عام ١٩٥٨ ، كما ان الجزائر قد حصـلت على استقلالها بعد ثورة دامية وهي مصممة على ألا ترتبط بفرنسا بأكثر مما ترتبط بغيرها من دول العالم .

روسيا :

ويعتبر امتداد روسيا وتوسعها في وسط آسيا من الحركات الاستعمارية الكبيرة التي تمت في القرن التاسع عشر ، فلقد كانت دوقية موسكو تقبع خلف نطاق الغـابات الصـنوبرية في النصف الشمالي مما سمى روسيا فيما بعد ، عندما كانت جحافل التتار والترك تجتاح شرقي اوروبا ، وكان فرسان جنجزخان يشقون طريقهم في القرن الثالث عشر من مراعي وسط آسيا حتى مراعي جنـوبي روسيا الى ان وصلت الى ليبزج وتريست .

غير ان صولة المغول والتتار ما لبثت أن خمدت، فانحسر المد التتاري ، واستطاع دوقات موسكو أن يزيحوا تلك العناصر التركية ويعيدوا فتح روسيا. ولم يقف الامر عنـد هذا الحد ، فقد استخدم قياصرة الروس فرسان القوزاق للتوسع نحـو الشرق ، فوصلوا الى بحر قزوين في القرن السادس عشر ، ووصلوا سيبيريا في القرن التاسع عشر ، حتى انتهى بهم السير الى المحيط الهادي .

ثم استمر التوسع الروسي شمـالا بشرق حتى الاسكا في امريكا الشمالية ، ونحو الجنوب الـى تركستان حتى جبال وسط آسيا ، ولكن روسيا تنازلت أو باعت الاسكا للولايات المتحدة في أواخـر القرن التاسع عشر . وعملت على تثبيت مركزهـا في وسط آسيا .

وكانت نصف مساحة آسيا ملكا لروسيا عـام ١٩١٧ ، كما كانت روسيا تعمل على (تروس) هذه المساحات الشاسعة التي ضمتها اليها ، فهاجـر ثمانية ملايين روسي الى سيبيريا وعشرة ملايين الى منطقة القوقاز وخمسة ملايين الى تركسـتان ، وتركزت الحياة الاستعمارية حول خط حـديد سيبيريا ، وأمدت تركستان صناعة المنسوجات الروسية بنحو ٨٠٪ من احتياجاتها القطنية. وكان حكم روسيا اداريا تعسفيـا قوبل بكثـير من انتفاضات الاحتجاج والمقاومة في القوقاز وتركستان وأذربيجان .

وقد منح الدستور السوفيتي لكثير من القوميات حق الاستقلال الذاتي وتكوين جمهوريات داخل الاتحاد السوفيتي .

وقد اعلنت الثورة البلشفية في روسيا أن عداءها منصب على حكومة قيصر التي استعبدت كل الشعوب المحكومة سواء في ذلك من كان روسيا أو تركمانيا أو ارمينيا . وانها تدعو جميع العمال والجنود في دولة قيصر السابقة للاتحاد . وقد أعطى الدستور السوفيتي لكل قومية الحق في تكون جمهورية مستقلة ، تدخل في اتحاد حر مع غيرها من جمهوريات الاتحاد السوفيتي ، ولم تعد روسيا سوى جمهورية روسية سوفيتية اتحادية اشتراكية ، شريكة في الاتحاد السوفييتي الكبير الذي يضم أيضا جمهوريات روسيا البيضاء واوكرانيا (في اوروبا) وجمهوريات جورجيا وارمينيا واذربيجان (في القوقاز) وجمهوريات التركمان والاوزبك والتاجيك والقريميز والقازاق (في وسط آسيا وسيبيريا) . وقد ضمت اليها بعد الحرب العالمية الثانية جمهوريات استونيا ولاتفيا ولتوانيا .

وبذلك قدم السوفيت حلا جديدا لمشكلة المستعمرات ، اذ منحت حق الحكم الذاتي ، بل وتكوين الجمهورية المستقلة ، ودعيت للدخول في اتحاد حر على قدم المساواة مع القوميات الأخرى . غير أن روسيا تمثل ٩٠٪ من مساحة الاتحاد السوفيتي كله ، وتؤلف ٨٠ ٪ من مجموع سكانه . كما أن اللغة الروسية هي اللغة التي يجب ان يتحدث بها كل سكان الاتحاد الى جانب لغاتهم الاصلية ويجتمع ممثلو القوميات في مجلس خاص ، ولكنه ليس أعلى من مجلس السوفييت الاعلى الذي ينتخب بنسبة عدد السكان .

الولايات المتحدة :

وكان يقابل التوسع الروسي نحو الشرق في القارة الاسيوية ، توسع أمريكي نحو الغرب في القارة الامريكية حتى وصلت الى سواحل المحيط الهادى هي الاخرى ، واشترت الولايات المتحدة الامريكية الاسكا من روسيا عام ١٨٦٧ . وفي نهاية القرن التاسع عشر دخلت الولايات المتحدة في مضمار التوسع الامبراطورى ، تحت الرئيسين ماك كنلى وتيودور روزفلت ، فضمت هواى سنة ١٨٩٨ ، ودخلت مع اسبانيا المنهارة حربا سريعة حاسمة ضمت أثرها بورتو ريكو (في البحر الكاريبي) وجزر الفلبين (في المحيط الهادى) عام ١٨٩٩ . واعلنت مبدا مونرو الذى اغلقت فيه نصف الكرة الغربي في وجه المنافسات الاستعمارية الاوروبية ، وقلت فيه ان كلمة الولايات المتحدة في امريكا هي القانون. ورغم ان فرانكلين روزفلت قد أعطى الحرية لكوبا والحكم الذاتي للفلبين ، فان وضع امريكا اللاتينية كلها بالنسبة للولايات المتحدة لا يختلف كثيرا عن وضع المستعمرات ، فهي جميعا حقول استغلال لرؤوس الاموال الامريكية وامبراطورية اقتصادية واسعة .

انهيار الاستعمار :

لقد احدث الاستعمار الحديث ثورة في المجتمعات الاصلية التي اتصل بها ، في آسيا وافريقية . ثورة بطيئة ، هادئة غير محسوس بها ، ولكنها عميقة الاثر . ففي آسيا وافريقية تقابلت انماط تقليدية من المجتمعات لم تكن تعرف التكنولوجية أو العلم الحديث أو التنظيم الحديث للدولة أمام دول حديثة ذات قوة وسطوة وتنظيم سياسي واقتصادي متقدم، واستطاعت القوى الاوروبية ان تحفظ الامن الداخلي وتقضى على النزاع القبلي في المناطق التي احتلتها ، كما انها واجهتها بنظم اقتصادية جديدة ، تتمثل في المزارع الواسعة التي تستخدم فيها التكنولوجيا الحديثة ، وان تقضى على كثير من الامراض المتوطنة، ولكنها في مقابل هذا سلبت القوميات الافريقية والاسيوية كيانها وحطمتها ووضعتها في موضع التابع والمسود .

ومن ثم بدا الصراع الطويل بين القوميات الافريقية والاسيوية وبين السلطان الاستعماري الحديث ، وان كانت القوى الاستعمارية قد تحدت الزعامات التقليدية المحلية ، فلقد بدا ظهور طبقات جديدة متطورة ، تعلمت العلم الاوروبي وتسلحت بأجهزة التكنولوجية واخذت بأساليب مناوراته السياسية وبدات تطالب نفسها بالحرية وبنصيب من رفاهية الاوروبي المادية .

وكانت اليابان أول دولة اسيوية تأخذ بأسباب العلم الاوروبي وافانين التكنولوجيا الحديثة عام ١٨٦٧ ، واستعملت تلك العلوم والفنون كسلاح تقوى به نفسها لكي تكون على قدم المساواة مع

أوروبا (وامريكا) . وكان لهزيمة الروس على يد اليابان عام ١٩٠٥ رنة اسى فى اوروبا وفرح فى الدول الافريقية والاسيوية ، خلدها حافظ ابراهيـم فى قصيدته المشهورة على لسان اليابانية . وتلا ذلك ثورة الصين ١٩١١ والثورة المصرية ١٩١٩ وثورة تركيا سنة ١٩٢٢ وثورات الهند المتعاقبة .

وقد ساعد تلك الحركات التحررية ما تملكه تلك الشعوب من ايديولوجيات أصيلة مثل الاسلام فى العالم الاسلامى ، والهندوكية فى الهند ، والشنتوية فى اليابان ، وانبثاق القوميات الافريقية الاسيوية ، مثل القومية العربية التى تمتد عبر افريقيا وجنوبى غرب آسيا من المحيط الاطلنطى حتى الخليـج العربى . والقومية الصينية فى الصين .

يضاف الى هذا ما تعرض له النظام الاستعمارى الراسمالى نفسه من هزات عنيفة اثر حـربين عالميتين كبيرتين ، لم تفصل بينهما الا فترة هـدنة مؤقتة . فقد كانت الحرب العالميـة الاولى من ١٩١٤ ــ ١٩١٨ أول حرب كبيرة ، يشترك فيهـا الاوروبيون ، يقتل بعضهم بعضا ، بل لقد جندت فرنسا وبريطانيا من الشعوب المحكومة (مثـل السنغاليين والهنود) من تستخدمهم لقتال اوروبيين آخرين ، فبدأت هيبة أوروبا فى الانهيار فى أعين الافريقيين والاسيويين .

وكانت الحرب العالمية الثانية من ١٩٣٩ــ١٩٤٥ أشد ضراوة من الحرب الاولى ، جند فيها نحـو من ٩٣ مليون مقاتل ، فقد منهم نحو ٤٠ مليـون وشملت تلك الحرب القارات الخمس وانهكت بلا شك القوى الاستعمارية كلها ، ففقدت بريطانيـا استثماراتها فى امريكا اللاتينية ، وفقدت فرنسـا هيبتها بعد اذلال النازى لباريس ، وفقـد الاله الابيض (الرجل الاوروبى) كل هيبته فى جنـوبى شرق آسيا ، حيث تعمد اليابانيون الذين احتـلوا اندونيسيا اذلال الاسرى الاوروبيين امام أهـل اندونيسيا . ومن ثم لم يعد الرجل الاوروبى الها صغيرا يستطيع ان يفعل ما يشاء ، بل هو بشر ، ومن الممكن ان يكون بشرا عاجزا أيضا .

ولا شك أن كثيرا من الايديولوجيات الاوروبيـة قد تسربت الى المستعمرات ، مثل الليبراليـة الاوروبية ، ومبادىء الثورة الفرنسية فى الحـرية والمساواة والاخاء ، والماركسيـة .

كل هذه العوامل قد ادت الى انهيار الاستعمار الحديث ، والى قيام الحركات التحررية فى آسيا وافريقيـة . ولا شك أن الشعوب تتعلم أيضـا بالمشاهدة والتجربة ، فحركات التحرر ذات مقدرة فائقة على الانتشار . لا سيما فى عهد تحطمت فيه المسافات واصبح فى مقدور اى انسان يملك جهازا صغيرا أن يستمع صباح مساء الى أنباء ما يحدث فى العالم كله .

الاستعمار والصهيونية :

فى الوقت الذى كنت الامة العربية تحارب فيه النفوذ التركى العثمانى ، كانت بريطانيا تمنـح اليهود حق تكوين وطن يهودى فى فلسطين ، وذلك فى تصريح بلفور المشئوم .

وبذلك تمكنت الصهيونية العالمية ، وهى حركة استعمارية خبيثة ، من ان تطأ باقدامهـا ارض فلسطين ، بعد ان وقف سلاطين آل عثمان طويلا دونه . ففى ظل الانتداب البريطانى على فلسطين، تدفقت موجات المهاجرين اليهود من كل مكـان فى اوروبا نحو فلسطين ، فارتفعت نسبتهم من نحـو ١٠ ٪ من سكان فلسطين سنة ١٩٢٠ الى نحـو ٣٠ ٪ من سكان البلاد سنة ١٩٤٧ .

لقد استطاعت الصهيونية العالمية ان تقنـع بريطانيا بانها حليف طبيعى لها فى الوطن العربى . فهى ليست من أهله ، ولا يهمها امانيه القوميـة ، وهى تحرس لبريطانيا الضفة الشرقية من قنـاة السويس ، وفوق ذلك فهى تشطر الوطن العربى الاسيوى عن الوطن العربى الافريقى،وفلسطين تطل على مشرق البحر المتوسط ، ومن الممكن انشـاء الطرق بين موانى البحر المتوسط والخليج العربى ، وبذلك يصبح الطريق الاضافى لبريطانيا نحو الهنـد مأمونا .

وقد لعبت فلسطين فعلا هذا الدور أثناء الحرب العالمية الثانية ، اذ كانت جيوش بريطانيا وحليفاتها تنتقل بسهولة من الهند فالخليج العربى فالرافدين الى « امارة » شرقى الاردن فموانىء فلسطين على البحر المتوسط . كما ان بريطانيا استطاعت سحق ثورة رشيد عالى الكيلانى فى العراق من قواعدها فى شرقى الاردن .

واذا كانت الصهيونيةالعالمية تزعم لبريطانيـا انها عينها الساهرة فى مشرق الوطن العربى . فانها

كانت فى الحقيقة ترمى الى استغلال رءوس الاموال الاجنبية فى المشرق العربى . وكان فى تقدير اليهود الصهيونيين ؛ انهم سيكونون العقول المفكرة والايدى الماهرة وسط محيط من البدو والفلاحين. وان فلسطين المحتلة ستكون المصنع والمتجر الكبيرين لملايين المستهلكين المتخلفين اجتماعيا واقتصاديا . وبذلك تحتكر قلة او نخبة من المستعمرين الاوروبيين الصناعة والتجارة فى المشرق العربى بل والشرق الاوسط كله .

فاليهود اذن كانوا يرمون الى استعمار استيطانى واستعمار استغلالى فى الوقت نفسه ، يستوطنون جزءا من فلسطين ويستغلون المشرق العربى والشرق الاوسط كله .

ومن ثم كان احكام المقاطعة الاقتصادية على فلسطين المحتلة عملا فعالا فى سبيل هزيمة الغرض الاقتصادى للاستعمار الصهيونى ، واكثر من ذلك فنهضة الشعوب العربية العلمية والاجتماعية والاقتصادية هى الضربة القاضية على آمال الصهيونيين فى السيطرة اقتصاديا على المشرق العربى وجنوبى غرب آسيا وافريقية .

الاستعمار الحديث :

ولكن هل معنى هذا انيأس الاستعمار ويلقى السلاح تماما ؟ لقد قام الاستعمار — بعد عدة هزائم متوالية — بحركة التفاف جديدة ؛ فاصبح يقدم الاستقلال بيد ، والاغلال بيد أخرى ، واصبح والناس يرونه خارجا فى احتفالات مظهرية ، ولكنه يتسلل من أبواب خلفية مرة أخرى . واصبحت شعوب آسيا وافريقية مهددة بما يعرف بالاستعمار الحديث .

يتمثل هذا الاستعمار الحديث فى سياسة المساعدات الاقتصادية المشروطة التى تقدمها الولايات المتحدة للدول النامية ، والمساعدات المتعددة التى تقدمها بريطانيا لدول الكومنولث او البلاد الصديقة وفىنظام تبادل العونinterdependence الذى تقدمه فرنسا لمستعمراتها السابقة . كما يتمثل ايضا فى سياسة الاحلاف ومحاولة كل من القوتين الكبيرتين فى العالم — الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة — جمع الانصار والدول التى تدور فى فلكها .

وانه لجهد كبير ان تحاول دولة ناشئة لم تكد تحصل على استقلالها الا حديثا أن تتخلص من هذا الاخطبوط الحديث ، ولا سيما اذا تذكرنا ان الاستعمار ترك معظمها مجهدا منهوك القوى ، فى حالة كبيرة منالعجز الاقتصادى ، بل لقد ترك لمعظمها نظاما اقتصاديا تابعا ، فهى — فى معظمها — من الاقطار المنتجة للمواد الخام ، والدول الاوروبية هى التى تشترى تلك المواد وتصنعها ، ثم تعود فتبيع السلع المصنوعة لهذه الاقطار مرة أخرى .

والدول الاستعمارية السابقة فى موقف احتكارى بالنسبة لسوق شراء المواد الخام ، ومن ثم فقد عملت على خفض اسعار هذه المواد باستمرار ، بينما ارتفعت بأسعار السلع المصنوعة باستمرار ايضا ، ومن ثم كانت الدول الاستعمارية السابقة تزداد ثراء ، بينما تزداد الدول النامية المنتجة للمواد الخام فقرا ، يوما بعد يوم .

غير ان هناك امثلة رائعة عديدة امام تلك الدول الحديثة العهد بالاستقلال ، توضح ان الارادة القوية كفيلة بأن تقف امام الاستعمار الحديث واخطاره ، مثل تأميم قناة السويس ، وتمصير الشركات والممتلكات الاجنبية فى مصر ، ومواقف عدم الانحياز والحياد الايجابى فى الهند ومصر ويوغوسلافيا ، وجهاد الجزائر الرائع وموقف غينيا الصغيرة البطولى أمام ديجول . ومجابهة الصين الشعبية لمشاكلها العويصة .

ويبدو فى الافق الدولى من حين الى آخر بوادر تبشر بمستقبل رائع للدول حديثة العهد بالاستقلال ، مثل مقررات مؤتمر باندونج ومؤتمر القمة الافريقى . اذا هى حققت الوحدة الوطنية داخل حدودها ، وتكتلت فى وحدات قومية كبيرة ، وحددت أهدافها واتحدت فى سبيل تحقيقها .

بعض المراجع الهامة

الدكتورة دولت صادق والدكتور محمد السيد غلاب ، والدكتور جمال الدين الدناصورى : **الجغرافيا السياسية — الطبعةالثانية القاهرة١٩٦١**

Goldberg, H., French Colonization : Progress & Poverty, New York 1959.

Easton, S.U., The Twilight of European Colonization, a political analysis, Metheun, London 1961.

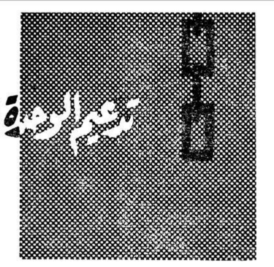
Mulenzi, J. L'internationalisation du phénomène Colonial, Bruxelles, 1958.

Dechamps, H. La Fin des Empires Coloniaux, Paris 1959.

Georges, H. Géographie et Colonization. Paris s.d.

Church, H. Modern Colonization, Hutchunson 1959.

ترجمة الدكتورة دولت صادق : الاستعمار الحديث



تدعيم الوحدة اللغوية فى الوطن العربى

بقلم :
الدكتور محمود السعران

رايته لاول مرة وهو يناقش رسالته للماجستير امام لجنة مكونة من المرحومين عبد الحميد العبادى ، وابراهيم مصطفى ، والاستاذ محمد خلف الله احمد ـ مد الله فى عمره ونفعنا بعلمه .

وكانت أول رسالة تناقش فى جامعة الاسكندرية ، وكانت اول رسالة جامعية احضر مناقشتها . وعرفته بعد ذلك عن قرب كصديق وكاستاذ ، وجمعتنا جلسات عديدة ، وقام بمراجعة ترجمتى لمسرحية « الحضيض » لمكسيم جوركى ، واكاد اقول انه اشترك معى فى ترجمتها ، واشتركنا معا وبعض الزملاء فى انشاء رابطة لخريجى كليات الآداب عام ١٩٥٢ ، ومع ذلك فقد ظلت صورته الواضحة فى ذهنى هى صورة طالب العلم الجاد المخلص ، بل لعل صلاتى العديدة به لم تزد هذه الصورة الا وضوحا وتاكيدا . فلم اره الا باحثا فى احدى المشاكل مشغولا باستجلاء كل ما يحيط بها حتى يهتدى الى حقيقتها والحلول السليمة لها . يصنع ذلك باخلاص شديد وحماسة لا تفتر ، وفى تواضع اصيل لا يشوبه استعلاء او ادعاء .

ومنذ اتصلت اسبابى بهذه المجلة ، وانا احاول ان اقنعه بالكتابة لها ، فلم يستجب الا منذ شهور قليلة ، وارسل هذا المقال الذى ننشره باعتزاز شديد واسى اشد ، فقد كان آخر مقال كتبه المرحوم الدكتور محمود السعران طالب العلم الجاد المخلص . رحمه الله وعوضنا فيه ـ وان عز العوض .

فؤاد دواره

ان لغتنا العربية الفصحى ، التى تجمع بين قلوبنا وعقولنا نحن العرب ، والتى تعد دعامة من الدعائم الأساسية للوحدة العربية السياسية الكبرى المرجوة ، ذات تاريخ طويل مجيد يرجع الى العصر الجاهلى . وهى بهذا من أطول اللغات الموحدة عمرا ، انها لتحمل طياتها من بذور النشاط والحيوية والفعالية ما يكفل لها الاستمرار والازدهار .

وعلينا نحن أصحاب العربية أن نوفر لعوامل التوحد اللغوى خير الظروف المواتية تدعيما له وتمكينا ، وأن ننتبه الى العوامل التى من شأنها أن تعوق نماء هذا التوحد واطراده فنعمل على كسر حدتها أو التخلص منها ، فثمة مظاهر لغوية تتأتى لأصحاب اللغة ، بالوعى والتوعية ، ان يتحكموا فى تطويرها بالعمل المنظم الدائب جيلا بعد جيل .

ولكن ذلك يقتضى النظر فى تاريخ لغتنا الطويل ، وادراك مراحل نموها ، والدراية بخصائصها على وجه سليم نظرا غير منفصل بالضرورة عن الأحوال الاجتماعية لأصحاب العربية .

ـ ١ ـ

ظهرت اللغة العربية الفصحى « لغة عامة » مشتركة فى العصر الجاهلى ، فصارت لغة الشعر والخطابة والأمثال والحكم والرسائل القصار ، صارت اللغة الواحدة التى ينشىء بها القائلون أيا كانت ديارهم : فى نجد أو الحجاز ، أو البحرين الخ ولغة المأثور من الشعر الجاهلى على تباين مواطن شعرائه ترعى أساليب معينة ، وتتبع نظما من التركيب مشتركة ، ولا يظهر فى هذه اللغة من آثار المحلية الا سمات قلائل لا تخلو من أمثالها أى لغة عامة ، وذلك كاستعمال « ذو » بمعنى الذى فى بعض أشعار قبيلة طيىء ، وآثار أخر عنى بجمعها اللغويون والنحويون .

وقد عملت على توحيد العربية فى العصر الجاهلى عوامل كثيرة استغرقت أزمانا لا نعلم مداها على وجه اليقين . وعوامل توحيد أى لغة كبرى ترتد الى ازدياد الاتصال والاختلاط بين المتكلمين المتباينين الذين يقدر لهم أن يصطنعوا لغة موحدة .

ومظاهر هذا الاتصال والاختلاط تختلف من بيئة الى بيئة ، ومن زمان الى زمان ، وان كان منها ما يعمل فى كل زمان ومكان . فما اهم مظاهر الاتصال والاختلاط فى البيئة العربية الجاهلية التى ادت الى ظهور العربية الموحدة ؟

***

اهم هذه المظاهر : رحلات التجارة وما كانت تستدعيه من التعامل والتفاهم بين رجال القبائل المختلفة . ورحلات البحث عن المرعى وما تستتبعه من احتكاك واتصال . والحروب الكثيرة بين القبائل المختلفة وما كان يصحبها من اسر ، وسبى ، ووفود للصلح ، ودعوة للسلام ، وفرض اصحاب لهجة السيطرة على اصحاب لهجة أخرى . وكان لاجتماع العرب مختلفى اللهجات فى موسم الحج فى مكة ، وفى سائر المواسم الدينية شأن كبير فى العمل على التقريب بين لهجاتهم المختلفة . ولا ننسى أثر المواسم الادبية التى كانت تعقد من وقت الى آخر ، ولا أثر رواة الأدب المحلى الذين كانوا ينشرونه بألسنتهم من موطن الى موطن ، فيضطرون فى بعض المواطن الى تغيير شىء من مفرداتهم ، او أساليبهم ، او طريقة نطقهم ليفهمهم السامعون . وكان لمكة دون سائر المدائن العربية أثرها فى توحيد العربية فهى مجتمع الحجيج ، مما رفع شأن قريش ولغتها بين القبائل ، وزاد ذلك ما كان لقريش من نفوذ فى تجارة القوافل .

هذه العوامل وسواها أحدثت آثارها فكانت اللغة العربية الموحدة . وكان للأدب الجاهلى شأن عظيم فى استفاضة هذه اللغة ، فالادب الجاهلى من وجه ثمرة من ثمار هذا التوحيد اللغوى ، وهو من وجه آخر ، وعلى تواليه بتوالى السنين ، قد دعم هذه اللغة ، وعمق من شانها فى نفوس العرب وأدناها الى قلوبهم .

ثم كان الاسلام وانتشاره ، وانتشار العربية معه فاتسعت رقعة الوطن العربى ، وكانت لغة القرآن — ولا تزال — من اهم عوامل الربط والتوحيد بين أرجاء هذا الوطن الفسيح . ومع الفصحى المشتركة الواحدة الموحدة حمل العرب الى الاقطار المفتوحة لهجاتهم المحلية المتباينة ، وقد تسربت بعض خصائص هذه اللهجات الى الكلام الفصيح فى هذا القطر او ذاك ، على السنة المتكلمين من اهل البلاد المفتوحة ، كما سنرى فيما يقبل من كلام .

— ٢ —

من الخطأ أن نظن الا خلاف فى الفصيح بين أقطار الوطن العربى ، بل ان الخطأ أن نعمى عن هذا أو ان نكتمه ، وهما منا ان التصريح به يهون من شأن الوحدة القومية ، لا بل انا لنرى أن التصريح بهذا ومدراسته واجب قومى ضرورى لتدعيم الوحدة اللغوية القائمة .

ونحن لا نزعم أن نوع الخلاف ودرجته بين الفصيح هنا والفصيح هناك كنوع الخلاف ودرجته بين العامية هنا والعامية هناك ، ولكنا نرى أن مظاهر الخلاف القائمة فعلا ، والمحتملة مستقبلا ، سيتأتى تجنب الكثير منها بعد الدراسة والتوعية والاتفاق .

ونشرع الآن فى بيان اهم عوامل هذا الاختلاف ومظاهره ، وبعضه يتعلق بالنطق ، وبعضه يتعلق بالمفردات والتعبيرات .

١ — وربما كان الاختلاف فى نطق بعض الأصوات والاختلاف فى تحقيق بعض الخصائص الصوتية الأخرى المتعلقة بالكلمة والكلام المتصل من اصعب الأمور حلا ، لأن ذلك راجع فى اغلب الأحوال الى نطقنا للهجاتنا المحلية ، هذا النطق الذى نرضعه مع لبن أمهاتنا ، وكثيرا ما يستدعى تغييره طول دربة ، وشدة عناية .

ومن الأصوات التى يختلف نطقها على السنة العرب : الضاد والجيم . وهذا الخلاف قديم سجله سيبويه فى كتابه . فنطق الضاد فى مصر غير نطقه فى العراق وليبيا ، غير نطقه فى اليمن مثلا . فهو فى مصر دال مطبقة ، وهو فى العراق وليبيا أشبه بنطقنا نحن للظاء ، ومن ثم يشتبه نطق الضاد والظاء فى كلام العراقيين والكويتيين والليبيين وسواهم ، وينطبع أثر هذا فى الكتابة . وقد لاحظت أن كثيرا من الطلبة الليبيين والعراقيين والكويتيين ، وسواهم ، يخطئون فى هجاء الكلمات التى تشتمل على ضاد او ظاء فيحلون الحرف الدال على هذا محل الحرف الدال على ذاك ، وهكذا . يريد الواحد منهم أن يكتب « ضل سواء السبيل » مثلا فيكتبها « ظل سواء السبيل » ، أو « ضرع الى ربه » فيكتبها « ظرع الى ربه » ، أو « أظلمت السماء » فيكتبها « أضلمت السماء » أو ظلام ، فيكتبها « ضلام » وهكذا .

وقد انتبه علماء العربية من قديم الى هذا الوجه من وجوه الخطأ ، ووضعوا تصانيف كثيرة فى الفرق

بين الضاد والظاء جمعوا فيها أكثر الكلمات التى يقع فيها الاشتباه تعليما للناشئة وتنبيهـا . ومن ذلك ما كتبه ابن قتيبة ، وما لخصه السيوطى فى كتابه « المزهر فى علوم اللغة » وهو كتاب كثير التداول .

وربما كان المجال امامنا لتصحيح مثل هـذا الخطأ افسح من مجال تصحيحه أمام الأقدمين . فنحن فى عصر التعليم العام الذى يسهل معـه زيادة العناية بكتابة اكبر عدد من الكاتبين فىمراحل التعليم الأولى . نقول « بكتابتهم » فربما كان علاج اخطاء الأقلام أيسر من علاج ما تجرى به الألسنة . ولا بأس من البدء ، فى أمثـال هذه الأقطار ، فى تعويد التلاميذ استبقاء نطقهم للظاء ، وتعليمهم نطق الضاد نطقا مخالفا متميزا ، وليكن ذلك الذى يجرى على السنة المصريين وغيرهم من العرب .

والجيم هى الأخرى تنطق من قديم على وجوه مختلفة ، وليس هذا مجال احصائها أو وصـفها الوصف الصوتى الدقيق . ويكفى أن نشـير الى نطق السوريين لها ، وهو اشبه بنـطق الفرنسيين للصوت الأول فى كلمة Jardin ، والى النطـق الفصـيح الذى يوصى به علمـاء مصر ، والـذى يشبه شيئا ما نطق dj ، والنطـق « القاهرى » والذى يشبه الصوت الأول فى الكلمة الانجليزية gate هذا النطق الذى أخذ من زمن يتسرب من بعـض النطق العـامى الى نطق اكثـر المتعلمين والمثقفين المصريين ، حتى اننا نستطيع أن نرى فى النطـق الجديد ميلا غالبا ، وذوقا جارفا .

٢ ـ وامثلة الخلاف فى المفردات والتعبـيرات تتضح بأجلى صورة وأيسرها لو طالعنا مجموعة من الصحف اليومية التى تصـدر فى عواصم البـلاد العربية : فى الرباط ، والجزائر ، وتونس ، وطرابلس وبنى غازى ، والقاهرة ، والخرطوم ، ودمشـق ، وبيروت ، وعمان ، وبغداد والكويت ، والرياض ، وصنعاء .. الخ . سيرى من يطالع صحف قطـر غير قطره أنه يواجه مجموعة جديدة من المفردات والتعبيرات لأول مرة ، منها ما قد يدرك معناه من السـياق ، ومنها ما يعرفه على وجـه الحدس والتخمين ، ومنها ما يغمض عليه ، ومنها ما يتردد أمامه على وجه آخر . ومن ذلك المفردات الخاصـة بالتنظيمات القضائية ، والادارية ، والسـياسية والاقتصادية ، وفى لغة الآداب والفنون والعلوم . ونحن نذكر جميعا أنه عندما تمت الوحدة بين مصر وسورية سنة ١٩٥٨ ، واستدعى الامران تكون نظم الجمهورية وتشريعاتها واحدة ، لزم تغيير كثير من المفردات .

ومن ذلك اننا وحدنا أسماء الرتب العسكرية ورتب « الشرطة » ، واخذنا فى ذلك بما كان سائدا فى سوريا .

وفى مجال التعليم أحللنا كلمة « الصـف » وهى سائدة فى سورية والعراق ، محل « السنة » الدراسية .

ولكن لا تزال مئات ومئات من المفردات تستعمل هنا ويستعمل غيرها هناك ، أو تستعمل هنا بما لا تستعمل هناك . ومن اشهر هذا استعمال «الهاتف» و « البرق » فى كثير من البلدان العربية كسورية مقابل « التليفـون » و « التلغـراف » فى مصر ، واستعمال « الحـافلة » مقـابل « الأوتوبيس » و « التلفاز » فى الكويت (أو على الأقل فى مجلة « العـربى » التى تصـدر فى الكـويت) محـل « التليفزيون » فى الجمهورية العربية المتحدة ـ و « معاون الكلية » فى جامعة بغداد تعنى « مساعد العميد » ، و « الرقى » و « الجابى » و « النداف » و « القصاب » فى عربية العراق الفصحى تعنى على التوالى « البطيخ » و « الكمسارى » و « المنجـد » و « الجزار » وفى تونس تستعمل « الجامعـة » بمعنى « نقـابة العمال » ، و « وزارة الفلاحة » مقابل « وزارة الزراعة » . و « التراب » فى شمال افريقية عندما يقال « التراب المغربى » ، أو «التراب الجزائرى » ، أو « التـراب التونسى » بمـعنى « الوطن » أو « أرض الوطن » . و « المختـار » فى سوريا تقابل « العمدة » عندنا ، وفى ليبيـا يستعلمـون فى التقسيم الادارى للدولـة كلمة « متصرفية » و « متصرف » ، وكنا من قبل نقول فى مصر « مديرية » و « مدير » وصرنا الآن نستعمل « محافظة » و « محافظ » .

وكلمة « صلاحية » تستعمل فى كثير من الاقطار العربية كالشـام والعـراق بمعنى « السلطة » أو « التفويض » ، يقولون « لا صلاحية لى فى كذا » اى « لا سلطة او تفويض » .

وقد لا يكون ثمة ضرر فى اسـتمرار استعمال شىء من مثل ما قدمنا فكثير منه لا يعوق الفهـم ، ولكن عندما يتعلق الأمر بألفاظ القضاء ، والادارة ،

والتشريع ، والعلوم ، وو .. الخ فان الأمر يختلف . فهذه المفردات والتعبيرات خاصة بالأنظمة الاجتماعية والانتاج الفكرى ، وكل منها يعمل على توجيه عقلية المتعاملين معه توجيها مخالفا ، ويخلق فجوة دون تلاقى عقول ونفوس ينبغى أن يكون تلاقيها على أوثق صورة . ولا شك ان الوحدة السياسية عندما تتم بين اقطار الوطن العربى ستكون اهم عامل فى توحيد الفاظ الخلاف وعباراته ، ولكن العمل فى هذا السبيل منذ الآن يقرب تحقيق هذه الوحدة .

— ٣ —

ونأخذ الآن فى بيان اسباب الخلاف الكلامى فى العربية الفصحى فى الأقطار المختلفة ، وهى كثيرة متنوعة لا ترجع الى زمن واحد بل ترتد الى ازمان متفاوتة .

١ — وقد يكون أولى هذه الأسباب بالتقديم ، هو اختلاف الفصحى على ألسنة العرب الذين استقروا فى أقطار الوطن العربى . فالعربية منذ توحدها فى الجاهلية كثيرة ما يسمى «المترادفات» وزادت هذه « المترادفات » زيادة ملحوظة بعد عناية لغويى العربية بجمع اللغة ، وكثرة المؤلفات التى وضعت لتعليم « الاعاجم » لغة العرب .

ولكن كانت تغلب على بعض المتكلمين هنا الفاظ تسمية لموضوعات ، أو افكار ، او اشياء معينة بينما تغلب على غيرهم من المتكلمين فى قطر آخر ، او مدينة أخرى ، الفاظ سواها تسمية لنفس الموضوعات او الأفكار او الأشياء .

وكان اللغويون القدماء يقولون ان للسيف كذا اسما ، وللفرس كذا اسما ، وللجمل كذا وكذا ·· الخ مما هو معروف متداول · وربما كانت كثرة من هذه التسميات المتعددة للشىء الواحد صفات مختلفة له ، ثم انتقلت من باب الوصف الى باب التسمية بعد شيوع استعمالها ، وربما كان بعضها اسما له دخلت اللغة العامة من اللهجات العربية المتعددة ·

ثم ان كل جماعة عربية استقرت فى اقليم من الأقاليم كانت لها الفاظها وعباراتها حسب درجتها من البداوة أو الحضارة ، حسب غلبة التجارة عليها أو « الرعى » . الخ فلكل مجال من مجالات القول مفرداته واصطلاحاته .

وبذلك تكون كل جماعة قد عملت على نشر كلام معين منذ المراحل الأولى لتعريب البلدان التى فتحها الله على المسلمين .

٢ — وقد يستدعى الترتيب الزمنى ان نثنى ، بالأساس اللغوى والثقافى السائد فى كل قطر مفتوح ، والسابق على تعريبه . كانت الفارسية غالبة على العراق ومعها آثار قوية من السريانية واليونانية ، وهاتان الأخيرتان كانت لهما آثارهما فى الشام كذلك ، وفى مصر كانت اللغة القبطية وآثار الثقافة المصرية القديمة ، اما شمال افريقية فكانت تسود أكثر أقطاره اللغة البربرية .. الخ . ومعنى هذا ان « تعريب » كل قطر كانت تحوطه ظروف لغوية وحضارية مغايرة .

كيف كان الاحتكاك بين « العربية » لغة وحضارة وبين اللغات والحضارات الاقليمية ؟ ان النتيجة معروفة وهى تغلب العربية وسيادتها ، ولكن كيف تم هذا ؟ وما ظروفه التى احاطت به ، ومراحله التى استغرقتها فى كل موطن ؟

ان دراساتنا لتاريخ العربية لا تزال قاصرة عن الاجابة على هذه الأسئلة اجابة علمية ، وعندما تتم دراسة « تعريب » الأقطار « العربية » المختلفة ستتكشف على وجه من التفصيل حقائق كثيرة منها ما هو مجهول ، ومنها ما يكتنفه الغموض .

ولكنا نستطيع أن نتلمس ونتحسس مقدما شيئا من نتائج هذا الاحتكاك . لا شك ان « ذوق » المثقفين والسياسيين والاداريين فى كل اقليم كان له اثره فى ايثار مفردات ومصطلحات عربية دون سواها . كما كان له أثره ، دون شك ، فى دخول الفاظ من اللغة الأصلية الى العربية ، لاسيما ألفاظ التنظيمات الادارية ، والحضارية بوجه عام ، وبهذا دخل العربية منذ المرحلة الأولى ، فى هذا القطر ما دخلها غيره فى ذلك القطر .

ولا شك ان « النظم الصوتية » للغة التى صادفتها العربية فى هذه البيئة أو تلك ، كان لها تأثيرها فى ما آل اليه نطق الأصوات والكلمات والجمل العربية فى هذه البيئة أو تلك ، وخاصة فيما يتعلق بمواضع ما يسمى فى الاصطلاح الصوتى « الارتكاز » stress ودرجاته فى الكلمة ، وبمواضع « النبر » accent ودرجاته بصفة عامة ، وبنماذج « تنغيم » intonation الكلمة والكلام · فمن البديهى أن كلامنا يميل الى أن يفرض عاداته اللغوية التى رسخت فى نفسه ، وثبتت على لسانه ، من طول ممارسته للغته الأصلية ، على اللغة أو اللغات الجديدة التى يتعلمها · ومن اليسير ان ندرك هذه الحقيقة عندما نلحظ نطق الأجانب الذين يأخذون فى تعلم العربية ، وكيف

يبدو كلامهم فى آذاننا « غير عربى » على الاطلاق أو « أعجميا » ، وكيف يحوج الأمر الى دراسة دائبة واعية ليصلوا الى نطق ترضاه الأذن العربية . وهذا نفسه متحقق ملحوظ فى كلامنا نحن أصحاب العربية بالانجليزية أو الفرنسية ، فأكثرنا ، دون أن يدرى ، « يعرب » النطق الانجليزى أوالفرنسى .الخ وقد تكون هذه الحقيقة مسئولة الى حد ما – وربما صحبها فى ذلك عوامل وظروف اخر كطبيعة الاختلاف بين كلام العرب الفاتحين – عما نلحظه فى الكلام العربى الفصيح من اختلاف فى مواضع « الارتكاز » و « النبر » ، وفى « التنغيم » اذا انتقلنا من قطر الى آخر .

٣ – اما السبب الثالث من أسباب الخلاف اللغوى ، فهو ، فى رأينا ، ما كان يطرأ على علاقات الأقطار العربية المختلفة من ظروف الانفصال والتباعد النسبى فى بعض العصور ، ومرجع أكثر ذلك الى عوامل سياسية ومذهبية .

فلا شك أن انبساط سلطان الدولة على أرجائها جميعا عامل أساسى يدعو الى التقارب اللغوى أو التوحد اللغوى ، فوحدة المذهب السياسى والدينى ، ووحدة النظام الادارى والاقتصادى .. الخ تفرض « التعامل » مع كلام معين . والاختلاف فى هذا كله وما يجرى مجراه تفرض تعدد الأفكار وتباينها مما ينجم عنه تعدد الكلام المعبر عنه وتباينه . ومن مظاهر التباعد السياسى قديما وجود العباسيين فى المشرق ووجود الأمويين فى المغرب والأندلس ، ثم ظهور الفاطميين فى شمال افريقية وامتداد سلطانهم غربا .

ومن ذلك الدويلات التى كانت تقوم من وقت لآخر كدولة بنى بويه ، والسلاجقة الخ . وكل دويلة لها أنصارها ومذاهبها التى تروج لها . وكان المذهب الشيعى سائدا فى اقاليم عربية ، أو فى بلدان من اقاليم عربية ، ولهذا المذهب ، شأن كل مذهب ، لغته الخاصة التى تروج معه ، بينما تروج مع « السنة » لغة أخرى .

٤ – ولا شك ان الحروب التى كانت تتعرض لها بعض اقطار الوطن العربى مع عدو أجنبى ، كحروب العرب والروم ، كان ينشأ عنها جريان بعض الألفاظ « الأعجمية » على السنة عرب تلك المناطق ، واستعمالها فى كلامهم الفصيح ، ومن ذلك الالقاب العسكرية والادارية مثل « الدمستق » التى نجدها فى شعر المتنبى . وقد ترك غزو « التتار » لمساحات شاسعة من العالم الاسلامى صداه فى عربيتها .

٥ – ويتصل بهذا السبب ، وهو الحروب والغزو الاجنبى ، الاستعمار الغربى الحديث للوطن العربى . كان الانجليز فى مصر والسودان وفلسطين ؟ والفرنسيون فى سورية ولبنان وتونس والجزائر ، والايطاليون فى ليبيا ، والأسبان فى جزء من « مراكش » .. الخ ، وكان كل مستعمر ينشر لغته وثقافته وحضارته – بما فيها من تنظيمات مخالفة سياسية وادارية وعسكرية .. فيما يحتله من ارض ، وعن هذا الطريق دخلت العربية الحديثة مئات المفردات والتعبيرات هنا عن الانجليزية ، وهناك عن الفرنسية أو الايطالية أو الاسبانية ، وكان ذلك اما عن طريق الأخذ المباشر ، أو الترجمة عن نماذج مختلفة ، أو حتى عن نماذج واحدة ولكن يختلف اللفظ العربى على أيدى المترجمين .

٦ – ومن الأسباب الهامة فى حدوث الخلاف اللغوى فى الفصيح ، اختلاف صلات الأقطار العربية المختلفة بالعالم الخارجى .

كانت مصر قبل الاحتلال الانجليزى على صلة ثقافية وثيقة بفرنسا ، وقد أوفدت كثيرا من مبعوثيها اليها ، عادوا فكان منهم رواد نهضتنا الفكرية والعلمية .

وقد قام أكثر هؤلاء بترجمة كثير من ثمار الفكر الفرنسى والعلم الفرنسى الى العربية . ومصر فى أوائل عهدها بالتشريع الحديث ، اخذت عن التشريع الفرنسى . وقد نتج عن هذه الحركة ، حركة الترجمة عن الفرنسية ، دخول كثير من الكلم الجديد الى عربية مصر الفصحى .

ثم كانت صلات مصر بانجلترا والمانيا وبأمريكا ، ثم قويت صلة مصر ، بعد قضائها على الاستعمار ، بروسيا ويوغوسلافيا .. الخ . وكل هذه وما اليها مسارب لدخول كلم جديد فى عربية مصر .

يحدث هذا فى مصر بينما تحدث فى قطر غيرها مثل ليبيا صلات أقوى بايطاليا وبالثقافة الايطالية ، وبينما تكون صلات المغرب بفرنسا واسبانيا محدثة لآثار مخالفة ، وهكذا .

٧ – ويتصل بهذا بأقوى سبب ، اختلاف المترجمين فى البلدان العربية المختلفة فى ترجمة نفس المفردات والمصطلحات عن اللغة الأجنبية الواحدة . فاللفظ الواحد ، أو العبارة الواحدة ، تترجم عن الانجليزية فى مصر بصورة ، وتترجم عنها فى العراق بصورة اخرى ، وفى الخرطوم بصورة ثالثة وهكذا .

ومثل هذا يحدث عند الترجمة عن الفرنسية فى المغرب وتونس والجزائر ومصر وسورية ولبنان .. الخ ولا شك ان مسئولية الصحافة والاذاعة والتليفزيون خاصة عن الخلاف فى ترجمة نفس المصطلحات الأوروبية بألفاظ عربية مختلفة مسئولية كبرى .

ويساعد على زيادة شقة الخلاف فى هذه الترجمة ان وسائل الاعلام تضطر الى ترجمة ما يرد اليها من انباء فى ساعات أو لحظات ، وهذه السرعة اللازمة لا تأذن بطبيعتها بالنظر فى تراجم الآخرين أو تذكرها . ثم ان من الأنباء الواردة باللغة الأجنبية ما يحمل معه كلمات جديدة فى هذه اللغة الأجنبية نفسها ، لم يسبق ترجمتها ، فيترجمها هذا المترجم بصورة ويترجمها سواه بصورة أخرى .

٨ — ونختم ما قدمنا من أسباب الخلاف بهذا السبب الا وهو اختلاف تأثير العاميات المختلفة فى اللغة الفصحى .

ويظهر هذا اكثر ما يظهر ، واوضح ما يظهر ، عندما تدعو الحاجة هنا أو هناك الى استحداث لفظ أو اصطلاح . فأهل العراق يانسون الى أخذه من عاميتهم . ويرونه لهذا أوفى الألفاظ بالغرض لانه جار فعلا على الالسنة ، فى حين يجنح أهل مصر على نفس الأساس ، الى اخذ اللفظ من عاميتهم ، ولكن اللفظ هنا يكون غير اللفظ هناك والمعنى واحد .

— ٤ —

الآن ، وقد عرضنا المشكلة ، وجلونا ظروفها الملابسة لها ، يحق لنا ان نتساءل : وكيف يتأتى توحيد ألفاظ الخلاف فى الفصحى وعباراته ؟

ان أول خطوة فى سبيل تحقيق هذا الهدف هى : حصر مواضع الخلاف من الكلام العربى فى قوائم ، مع تصنيفها تصنيفا موضوعيا ، وتصنيف كلمات كل موضوع تصنيفا أبجديا .

وهذا العمل الشاق يحتاج ، فى رأينا ، الى عقد مؤتمر عام لتحديد الهيئات العلمية التى تضطلع به ، ومن يشاركهم من أفراد كالمجامع اللغوية والعلمية فى البلاد العربية ، والادارة الثقافية لجامعة الدول العربية ، واساتذة الجامعات المختصين ، وطلبة الدراسات العليا ، وغير هؤلاء من الاكفاء ولبحث طرق تمويل هذا العمل .

والتخطيط الدقيق لتقسيم العمل أمر واجب ، فيه يختص كل بموضوع تفاديا من الوقوع فى التكرار .

وبعد عملية الجمع والحصر . تعرض الموضوعات على لجان مختصة ممثلة للبلاد العربية لمناقشة الفاظ الخلاف ، والالفاظ المقترحة لتوحيدها .

ومما يساعد فى هذا الشأن أن تهتم المؤتمرات العلمية العربية التى تعقد من وقت لآخر — كمؤتمرات الطب والهندسة والكيمياء .. الخ . بهذا الأمر ، فيشرع كل فى مجال اختصاصه بالاتفاق على ما يرون الاتفاق عليه واجبا ، وهذه خطوة لازمة فى الوقت نفسه لتقدم العلوم العربية نفسها .

وعمل اللجان المختصة بالجمع والمراجعة عمل دائم بطبيعته ، فليس الأمر قاصرا على حصر الفاظ الخلاف القائم فعلا ، فان مصادر تجدد الفاظ الخلاف ، كما كانت مصادر « اجتماعية » فستظل تعمل عملها من وقت الى آخر .

ويحسن عرض ما تصل اليه الهيئات والأفراد فى هذا الشأن على مؤتمرات لغوية دورية تمثل البلاد العربية جميعا ، للتوصية بما يستقر عليه الأمر .

كما يحسن بالهيئات والأفراد التى سيوكل اليها تنفيذ العمل ، أن تدخل فى اعتبارها الاعتماد على التوصية بالألفاظ والعبارات السائدة فعلا بين اكبر عدد من المتكلمين والكاتبين بالعربية ، فالفصحى فى مصر مثلا اكثر الفصحيات متكلمين وكاتبين ، والنشاط العلمى والفنى ، والثقافى عامة ، فيها اكبر نشاط ، ووسائل الاعلام بها من صحافة واذاعة وتليفزيون أقوى وسائل .

ويلزم بالضرورة طبع ثمار هذا العمل ونشره على أوسع نطاق ، وادخال ما يستقر عليه الأمر من الألفاظ الموحدة فى كتب التعليم العام فى البلاد العربية ، وبهذا تخطو الاتفاقات الثقافية العربية خطوات جدية فى سبيل خير العربية والعروبة .

ولا شك أن خلاصة هذه الدراسات جميعا ستكون مواد أساسية لاستكمال « المعجم العربى الكبير » الذى لا يزال جمهور العربية يتطلع الى صدوره .

ان تجربة الوحدة بين مصر وسورية سنة ١٩٥٨ قد الجأت الى توحيد الفاظ وعبارات كثيرة ، لاسيما تلك التى ترد فى القوانين الرسمية التى تصدرها الدولة ، فالتعجيل من الآن بتوحيد الكلام الخلافى دعامة من الدعامات الأساسية اللازمة للتمهيد لقيام الوحدة السياسية العربية الكبرى على أسس سليمة .



فن رمضانى

بقلم : الدكتور حسين نصار

يقال ان المسلمين ـ حينما فرضت الصلاة عليهم ـ اخذوا يفكرون : كيف يعلنون عنها ويدعون اليها ، ووردت على خواطرهم الطرق التى يسلكها غيرهم من الأمم فى ذلك ، من قرع لجرس ، أو ايقاد لنار ، أو ماشابه ذلك ، ثم كان أن اتخـــذوا من « الصوت البشرى » مؤذنا بالصلاة .

والانسان مولع بالجمال فى نفسه ، وفيما يرى ، وفيما يستخدم من أداة . فلا بدع أن شغف المسلم بتجميل « الصوت البشرى » الذى اتخذ منه أداة للايذان بحلول الصلاة ، وأداة لأداء الصلاة ، وأداة للتسرية عن النفس ، ولاغرائها على الجهاد المتصل ، ولهدايتها . فكان يطلب جمال الصوت ، وجمال الأداء ، فى ترتيل القرآن ، وفى أداء الأذان . حث على ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكشف عنه قولا وعملا ، واتبعه المسلمون . فكان منهم القراء والمؤذنون ، الذين كسبوا الشهرة ، وفرضـــوا وجودهم على التاريخ .

وان انطبق ذلك على كل أوان ، فلا شك أنه أعظم انطباقا على شهر رمضان ، الذى يحتاج فيه المسلم الى من يؤذنه باقتراب الفجر ليقبل عـــلى سحوره ، والى من يؤذنه بخلوص ضوء النهـار من عتمة الليل ليمتنع عن غـذائه وشرابه ، ومن يؤذنه بمغيب الشمس ليقبل على ما الف من حياة ، غير من يؤذنه بأوقات صلاته اليومية . فلا جـــرم أن يكون رمضان شهر « الأذان » فيكون شهر «الصوت الجميل» . ولا جرم أن يكون رمضان ـ اذ كان شهر الصوم ـ شهر « القرآن » فيكون شهر « الصوت الجميل » .

وافتن « الصوت الجميل » فى الاعـــلان عن نفسه : فى ترتيل القرآن ، وأداء الأذان ، والدعوة الى طعام الليل أو السحور . وعن هذه الدعوة أتحدث .

فقد أقبل المسلمون على « التسحير » ، أعنى دعوة النائمين الى السحور ، وتطوعوا للقيـام به . لم يأنف من ذلك كبيرهم ولا صغيرهم حتى مارسه بعض امرائهم ، مثل عنبسة بن اسحاق الضبى ، والى مصر (٢٣٨ ـ ٢٤٤ هـ) . وكان عنبسة يذهب الى الصلاة فى غير موكب ، متهما بالميـــل الى راى الخوارج ، فلم يرض عنه الشاعر يحيى بن الفضل وعاب عليه كل ذلك ، حين قال :

من فتى يبلغ الامـــام كتابا
عربيا ، ويقتضيـــه الجوابا
بئس ـ والله ـ ماصنعت الينا
حين وليتنا أميـرا مصــابا
خارجيا يدين بالسيف فينا
ويرى قتلنا جميعا صـــوابا
مر يمشى الى الصلاة نهـــارا
وينادى : السحور ،ضل وخابا

وأقبـــل الشـــعراء من هؤلاء المسحرين عـلى الابداع فيما ينظمـــــون من شعر ينشـــدونه فى « تسحيرهم » ، واصحاب الصوت الجميل عـلى الابداع فى انشادهم . فكان المسحرون ، واناشيدهم طرفة رمضان ، التى يحرص المسلمون على مشاهدتها والاستماع اليها ، والتمتع بها . ولذلك أعتقـد أن هذه الأناشيد جديرة بالدراسة ، من أصحاب الأدب الخاص والشعبى ، وان كان حديثى عن لون واحد من اناشيدها .

فقد ابتدع المسحرون فنا خاصا من الشعر ، له قواعده وأجناسه ، وله اسمه الخاص ، وهـو ما أحاول التعريف به فى هذا المقال .

عرف هذا الفن باسم « القوما » . وقال صفى الدين الحلى ان هذا الاسم مشتق من قول المسحرين فى آخر كل بيت منه بعد غناء الرمل أو الزجـــل :

« قوما للسحور » ، ينبهون بذلك رب المنزل . وقال دوزى Dozy فى تكملة المعاجم انه مشتق من قول المسحرين لأنفسهم : « قوما لنسحر قوما » . ولكن جيز Gies جعل الفعلين للأمر ، فقال انه مشتق من قولهم لأنفسهم : « قوما لنسحر قوما » .

وقيل ان الذى ابتكره مسحر يدعى ابن نقطة، كان يسحر الخليفة العباسى الناصر (٥٧٥ـ ٦٢٢هـ) ولكن الحلى انكر ذلك ، واكد أن مبتكريه أهل بغداد فى عهد العباسيين ، وانه كان ذائعا قبل ابن نقطة .

ومن بغداد انتقل الى بقية أرجاء العالم العربى ولم تتغير فى رحلته هذه ـ فيما يبدو ـ قواعده ، ولكن تغير اسمه . فقد قيل ان أهل الشام ومصر والمغرب كانوا يسمونه « الحماق » . ولم اصل الى سبب لتغير الاسم ، ولا لتعليل الاسم الأخير وابانة اشتقاقه .

وكان المسحرون ـ أول ماتوصلوا الى هذا الفن ـ ينبهون به رب المنزل ، ويمدحونه ، ويدعون له ، ويطلبون انعامه . وعندما شاع وكثر ، وانتقل الى ايدى الشعراء ، نظموا فيه الفزل والعتاب ووصف الزهر والبساتين وسائر الموضوعات الشعرية .

وذكر الحلى ان الخليفة الناصر ـ وكان معنيا برمضان انشأ فيه دور الضيافة ليفطر الفقراء فيها ـ كان يطرب للقوما ، ويعجب بابن نقطة الذى برع فيه ، فأجرى عليه رزقا فى كل سنة . فلما مات ، كان له ولد صغير ماهر فى نظم القوما والتغنى به ، فأراد ان يعرف الخليفة بموت والده ، ويرجوه أن يخرج له الرزق ، فانتهز فرصة مجىء رمضان ، واخذ اتباع والده من المسحرين . ووقف فى أول ليلة عند شرفة الخليفة ، وغنى بصوت رقيق :

يا سيد السادات — لك بالكرم عادات
انا بنى ابن نقطة — وأبى تعيش أنت مات

فأعجب الخليفة به ، واستدعاه ، وفرض له ضعف ماكان لأبيه .

واتفق النقاد على أن القوما والزجل والكان وكان فنون ملحونة دائما ، فينبغى الا ينظم القوما الا بلفظ عامى رقيق ، بل يجب أن تكون الفاظه أرق من الفاظ الكان وكان .

وتتألف القصيدة من القوما من عدة مقطوعات تسمى كل مقطوعة منها بيتا ، ويتركب البيت من أجزاء يسمى كل منها قفلا . وكل بيت من القوما قائم بنفسه ، منفصل ، فهو وحدة مستقلة ، ولذلك يجوز تكرار القوافى فيها .

وذكر صفى الدين الحلى أن القوما ينقسم الى نوعين . يتألف البيت فى النوع الأول منهـا من ٤ اقفال ، يتفق القفل الأول والثانى والرابع فى الوزن والقافية . ويتركب وزن ماوصل الينا منها من : مستفعلن (أو مفاعلن أو متفاعلن) فاعلان أو فعلان أو فعلن) . وتهمل تقفية القفل الثالث ، ويطول وزنه عن اخوته الثلاثة الباقية ، فهو مستفعلن فاعلاتن (أو فعلاتن) .

ومثال هذا النوع قول الصفى الحلى :

لا زال سعدك جديد
دايم وجدك سعيد
ولا برحت مهنى
بكل صوم وعيد

*

فى الدهر أنت الفريد
وفى صفاتك وحيد
فالخلق شعر منقح
وأنت بيت القصيد

*

يا من جنانو شديد
ولطف رايو سديد
ومن يلاقى الشدايد
بقلب مثل الحديد

*

لا زلت فى تاييد
فى الصوم والتعييد
ولا برحت تهنى
فى كل عام جديد

*

نحنى (١) لذكرك نشيد
بقولنا والنشيد
ونبعث أوصاف مدحك
على خيول البريد

*

لا زال قدرك مجيد
وظل جودك مديد

(١) اى نحن .

ولا برحت موقى
كما يوقى الوليد
ظلك علينا مديد
ما فوق جودك مزيد
وقد غمرت بفضلك
قريبنا والبعيد
لا زلت فى كل عيد
تحظى بجد سعيد
عمرك طويل وقدرك
وافر ، وظلك مديد

*

ما زال برك يزيد
على أقل العبيد
وما برح جود كفك
منا كحبل الوريد

*

لا زال ظلك مديد
دايم وباسك شديد
ولا عدمنا سحورك
فى صوم وفطر وعيد

*

ويتألف البيت فى النوع الثانى من ثلاثة أقفال تتفق فى القافية ، وتختلف فى الوزن ، وتتدرج فى الطول . فالقفل الأول اقصر من الثانى ، وتفعيلته مستفعلاتن (أو مفاعلاتن) ، وهذا اقصر من الثالث، ويتركب من فاعلاتن فاعلاتن . بينما يتركب الثالث من مستفعلن (أو مفاعلن) مستفعلن (أو مفاعلن) مستفعلن . ومثاله من قول الحلى :

اى قلب دعهم
اش ترى أوقعك معهم
انكف عنهم قبل ما تظهر بدعهم

*

لولا طمعهم
بأن قلبى ما يدعهم
ما خالفونى وأظهروا فى بدعهم

*

ما عدت معهم
تا (١) يزول منى طمعهم
مالى فؤادا يحتمل كثرة ولعهم

(١) اى حتى

كثرة طمعهم
من بقى القلبى تبعهم
ومادروا أنو متى خانوا ندعهم

*

من ملت معهم
أظهروا فى بدعهم
وألبسوا جسمى الضنا ، هذى خلعهم

*

كثرة ولعهم
هو الذى عندى وضعهم
من بعد ما كان الوفا عندى رفعهم

*

دعنى أدعهم
ما بقى قلبى يسعهم
فكثرة التقبيح من قلبى قلعهم

*

لما قلعهم
من بقلبو قد زرعهم
مالوا معى ، لكن أنا ما ملت معهم

*

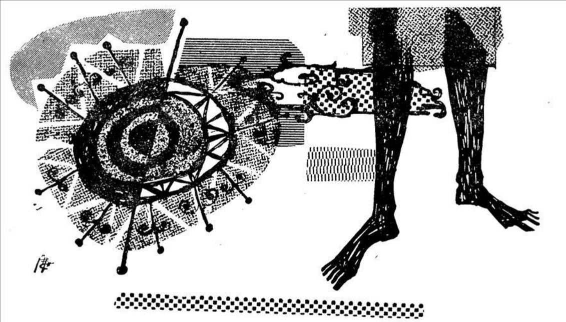
ضدى خدعهم
وقت ما عنى ردعهم
وظننى عمرى من أيدى ما أدعهم

*

اش قد نفعهم
نصح من عنى دفعهم
تركتهم ، مافادهم منى فزعهم

*

ولكن الاستاذ فلهلم هنرباخ Wilhelm Hoenerbach عثر فى كتاب « الدر المكنون » المخطوط بمكتبة ميونيخ ، رقم ٥٢٩ ، اللوحة ٦و – ٦ ظ على نوع ثالث لم يتنبه اليه احد . وذكر ان البيت فيه يتألف من خمسة اقفال ، تتفق الثلاثة الأولى منها فى القافية ، ثم يقفى القفل الخامس مع بقية الأقفال الخامسة من أبيات القصيدة كلها . فقافية القفل الخامس هى التى تربط الابيات جميعا .. والامر الذى يؤسف له أنه لم يتحدث عن وزن أقفال هذا النوع ، ولم يورد أمثلة منه .



طفل فى طريق الحب

للشاعر أنس داود

بكرت مع الندى ، والطير فى أعشاشها تغفو
وبين جوانحى قلب الى عينيك كم يهفو
يخف اليك عصفورا يشوق جناحه الرف
ويرسمك الخيال فلا يحيط بسحرك الوصف
فياكم هدهد الآلام من تحنانه عطف
وياكم نمق الأحلام من ألوانه طيف
فأنت خميلتى ومرافىء أهدابك الوطف
وثغر برعم يقتات مما يحرق الصيف
« ضحى القاك » ..
مازال المدى عن غايتى ينأى
الى ان نلتقى سأظل احمل غربتى عبئا
أرود شوارد الغيمات أو أستشرف الضوءا
وأعدو فى سخاء الشمس أو أستعذب الفيئا
وامضى حائر الخطوات لا أبغى هنا شيئا
الى أن تطلعى ريا لكل مشاعرى الظمأى
وفى آماد عينيك يعانق قلبى الدفئا
اذا شب الغرام الطفل
كان المنتهى بدءا

ورحت لمرفأ الذكرى تقدس حوله الظل
تناغمنى حكايانا التى - ياطفلتى - تحلو
ونهر من بحار الشوق فى عينى ينهل
أحدق فى الطريق وفى وجوه الناس لاأسلو
ومر على حمال ضرير الخطو معتل
وشيخ أعجف يجثو على أهدابه الذل
وناهدة يروع شبابها مايضمر الليل
فأحتضن الطريق ، فكل من ألقاه لى أهل

***

وطوف حول متكئى صغير ضارع النجوى
بعينيه مآسيه وتاريخ من الشكوى
وفوق جبينه رسمت ملامحها يد البلوى
ينقر فوق صندوق صغير يبعث الشجوا
ويلهث خلف أقدام الألى مروا بلا جدوى
تردد حين ابصرنى .. ايرجع خائب النجوى
وأومأ لى : « أتسمح أن ألمعه كما تهوى ؟ »
فأسلمت الحذاء له ليشبع لونه زهوا

وعبر وميض نظرته ولون شحوبه الأزرق
تجول خاطرى وانساب فوق جبينه المرهق
أليس له أب يرعاه او أم به ترفق
ألا تهفو طفولته الى اللوح الذى أورق
ومدرج صبية هاموا بموعده اذا اشرق
وأشياء بريئات يحب جمالها المطلق
فكيف تضيع دنياه وكيف بليلنا يغرق
ويمضى حافى القدمين من أقدامنا يلعق

***

سألت خريفه السأمان عن أيامه : أطرق
« صغيرى أننا صنوان فى ليل الأسى نعرق
وتجبل لقمتى بالدمع كالدمع الذى تهرق »
فتمتم فى أسى : انى أفتح قلبى المغلق
فقد مات الأب الحانى وقالت أمنا : « ترزق »
وألقت نظرة بلهاء فى وجهى فلم أنطق
ولكنى حملت تراثه صندوقه المرهق
درت به على أقدام كل الناس كى أرزق

صباحا حينما أغدو ينوح بخطوى الوجل
أراقب صبية يغدون حيث العلم ينتهل
بأيديهم كراريس ، وفوق جسومهم حلل
أراهم فى ضياء الصبح نور وجههم أمل
وعند رواحى الخاوى يعفر وجهى الملل
اراهم مثل أسراب من الاطيار تنفعل
فأمرق فى الدجى وحدى أكاد أصيح أقتتل
ولكنى ارى عينا وراء الدرب تبتهل

***

صغيرى عمرك الباكى وراء سنينك المره
سيبصره فى غد فجرا يعانق أرضنا الحره
يفتح فى الجديب النهر والزيتون والخضره
فلم تراث والده ولوح .. شارد النظره
واخلفنى أتابع ظله بالهموم فى حيره
الى ان جئت ياليلاى فى اشراقة الزهره
أليس لنا وراء الليل شعب يصنع الثوره
ألم نبصر هنالك خلف أطلال الدجى فجره



صدق التفسير فى عملية التحليل النفسى

بقلم
الدكتورة منيرة حلمى

العلوم كلها تسعى سعيا حثيثا نحو اكتساب اليقين الموضوعى ، تحدوها فى ذلك فلسفة العلوم ، فتبرز لها معاييرها ، وتناقش هذه المعايير مبينة مدى صلاحيتها ومدى تحقيقها لهذا اليقين ٠ وعلم النفس ، شأنه شأن العلوم جميعا ، يسعى الى تحقيق هذا اليقين الموضوعى ، وما حركة القياس النفسى التى ظهرت بوادرها منذ نهاية القرن الماضى الا تنبها شديدا ، ولفتة جادة نحو تحقيق هذا اليقين . لكن بقى جانب تطبيقى من هذا العلم محتفظا بطرقه ووسائله ، لا يريد لها تطورا أو تغييرا الا فى أضيق الحدود وفيما لا يمس أصوله الفنية فى شىء . بقى التحليل النفسى على ما هو عليه ، يسمع هذه الدعوات المتواصلة نحو اليقين الموضوعى ، ويسمع أكثر منها الاعتراضات المختلفة الموجهة الى طرائقه وما يعوزها من مثل هذا اليقين ، يسمع ذلك كله فلا يتزعزع ايمانه بنفسه قيد أنملة . انه مؤمن من أعمق الايمان بفرديته المستمدة من فردية من يعالجهم ، مؤمن بأن كل عبارة تقال أثناء جلساته ليست فى حاجة الى التحقق من صدقها أو كذبها ، ليست فى حاجة الى سند موضوعى ، فما هى الا أداة تساهم مع غيرها من الادوات فى انجاح علاج الحالة ، هى أداة تنشط وتثير استجابات مطلوبة عند المريض ، أو أداة تغير فى اتجاهات المريض ، لا يعنينا أن تكون صادقة أو كاذبة ، وهل يقال عن الاداة انها صادقة أو كاذبة ؟ لا ، ليست أحكامنا على المريض ، تلك الأحكام التى ندلى بها لتفسير انفعالاته واتجاهاته، ليست هذه الاحكام أحكاما ذاتية من عندنا ، وانما نحن نستند الى أشياء كثيرة من الحالة الراهنة التى بين أيدينا ، ومن الحالات السابقة التى عالجناها ، نستند الى هذه الاشياء جميعا حين نصدر هذا الحكم ٠ سيقولون انها أحكام تستند الى معايير اكلينيكية من شأنها التغيير ٠ وسيقولون انها أحكام اسقاطية من عندنا ، وبالتالى هى أحكام كاذبة ، لا تصدق على الحالة ونقول نحن ، ان حكمنا أو تفسيرنا حين يكون كاذبا سرعان مايستبعد نفسه بنفسه فى سياق عملية التحليل ، ويحل محله ما هو أصوب منه ، وان معاييرنا مهما كانت غير ثابتة ـ كما يقولون ـ الا انها توصلنا الى النتائج التى تهدف اليها ، توصلنا الى حل الصراعات عند

مرضانا وعلاج حالاتهم نهائيا . واننا لا نقنع بالنتائج الاولى العاجلة التى قد يغرينا بها تفسير عاجل كاذب .

هكذا دافع « فرويد » منذ البداية عن نتائج وأحكام التحليل النفسى أمام المعترضين بل تنبأ باعتراضاتهم هذه وسبقهم الى الرد عليها ، وهكذا انتهت كل البحوث الخاصة باختبار اليقين الموضوعى لما يقوله المحلل من تفسيرات فى عملية التحليل النفسى . لكن بالرغم من هذا ، بالرغم من ان هذه البحوث كانت تنتهى الى نفس النتيجة التى انتهى اليها « فرويد » فى هذا الموضوع ، ما زالت هذه البحوث قائمة ، تبحث عن معايير لليقين الموضوعى فى عملية التحليل النفسى . ونعرض فيما يلى نبذة مما رد به « فرويد » على اعتراضات المعترضين فى هذا الموضوع ، ثم نعرض بحثا فى صلب هذا الموضوع ، هو آخر ما وصل الينا من أبحاث فيه .

فطن « فرويد » منذ « محاضراته التمهيدية فى التحليل النفسى » الى ما عساه ان يثار من اعتراضات خاصة باليقين الموضوعى لاكتشافات التحليل النفسى بوجه عام ، ولتفسيرات المحلل النفسى لاتجاهات المريض ودوافعه بوجه خاص ، تلك التفسيرات التى يواجه بها المريض والتى تمثل جانبا هاما من عملية التحليل النفسى . فقد ورد فى محاضرته الثامنة والعشرين النص التالى ، موجها الكلام فيه الى طلابه : « **ستقولون الآن انه سواء كانت القوة الموجهة للتحليل النفسى تسمى التحويل ، أو تسمى الايحاء ، فان الخطر ما يزال قائما ، ذلك الخطر المتمثل فى ان يكون تأثيرنا على المريض من شانه أن يضع اليقين الموضوعى لاكتشافاتنا موضع الشك . وان يكون ما هو كسب لمصلحة العلاج ، خسارة على حساب البحث العلمى وهذا هو الاعتراض الذى يثار كثيرا ضد التحليل النفسى . ولا بد لى أن اسلم بانه على الرغم من أن هذا الاعتراض لا مسوغ له ، الا انه لا يمكن أن ننحيه جانبا ونتجاهله على اساس انه اعتراض غير معقول . فاننا اذا افترضنا ان هذا الاعتراض له ما يسوغه ، لكان التحليل النفسى مجرد ضرب معين فعال من ضروب الايحاء العلاجى أحسن اخفاؤه . ولكانت كل النتائج التى يصل اليها عن حياة العميل الماضية ، وعن العوامل الفعالة فى تكوينه النفسى ، وعن لا شعوره ، وغير ذلك مما يصل اليه التحليل النفسى ، أقول لكانت كل هذه النتائج مما يجب أن يؤخذ مأخذا غير جاد . ولذلك يظن المعارضون لنا ان دلالة الخبرات الجنسية بوجه خاص ، ان لم تكن هذه الخبرات نفسها ، من المفروض أن نكون نحن (المحللين النفسيين) الذين وضعناها فى ذهن المريض بعد أن نكون قد لفقنا هذه الاخلاط فى عقولنا الفاسدة . هذه الاتهامات تدحضها التجربة العملية دحضا كافيا أكثر مما يدحضها التفسير النظرى . فكل من مارس بنفسه التحليل النفسى ، قد أمكنه أن يقنع نفسه مرات لا حصر لعددها ، بأنه من المستحيل أن توحى للمريض بهذه الطريقة . صحيح انه ليست هناك صعوبة فى جعله تلميذا آخذا بنظرية معينة ، وبذلك تجعل من الممكن له أن يشارك فى اعتقاد خاطىء يعتنقه طبيبه ، وهو فى هذا يسلك كأى شخص آخر ، يسلك كتلميذ ، لكننا نكون قد أثرنا على عقله فحسب ، وليس على مرضه . ان حل صراعاته والتغلب على مقاومته لا ينجح الا حين يجد صلة بين ما يطلب منه أن يبحث عنه فى نفسه ، وبين ما هو موجود بالفعل فى هذه النفس . وأى شىء يستنتجه الطبيب خطأ يتلاشى فى مجرى عملية التحليل ، ويجب أن يستبعد وان يوضع مكانه شىء أصوب منه . ان احد أهداف عملية التحليل النفسى هى ان تعوق ، بطريقة فنية للغاية ، النجاح المؤقت الذى ينشأ عن طريق الايحاء . لكن اذا حدث وتحقق مثل هذا النجاح ، فلن يتسبب عنه أى ضرر ، لاننا لا نقنع بالنتيجة الاولى للتحليل . اننا لا نعد التحليل كاملا الا اذا فسرت كل الامور الغامضة (فى الحالة التى نعالجها) ، فملئت الثغرات فى الذاكرة ، واكتشفت الظروف الاولى التى أحاطت بعملية الكبت . فالنتائج حين تظهر قبل أوانها ، يعدها الواحد منا معوقات أكثر مما يعدها معينات تساعد على السير بعملية التحليل قدما (1) .**

لكن هذه الاعتراضات التى ساقها « فرويد » ، ظلت باقية رغم دفاعه هذا . وظلت موضوعية تفسير المحلل النفسى لحالة مريضه موضعا لبحوث متواصلة . وكان آخر ما وصل الينا من هذه

(1) فرويد ، سيجمند: محاضرات تمهيدية فى التحليل النفسى عن الترجمة الانجليزية لجون ريفير ، لندن : جورج الن سنة ١٩٤٣ ، ص ٣٧٩ .

البحوث ، بحث مستفيض قامت به جماعة من المشتغلين بالعلوم النفسية والفلسفية من أعضاء الجمعية الارستطالية بانجلترا فى العام المنصرم . وكان موضوع هذا البحث هو « معايير صدق التفسير فى عملية التحليل النفسى »(١) وقدموه فى ندوة عقدت فى جامعة (ليستر) فى الرابع عشر من يوليو سنة ١٩٦٢ . وكان على رأس هذه الجماعة الباحث : ب.أ. فارل . وقد انصبت دراسته فى هذه الندوة على مناقشة معايير مختلفة مما يمكن أن يقاس به صدق تفسير المحلل النفسى لدوافع مريضه .

ونعرض فيما يلى ما جاء فى بحث « فارل » ، وما ناقشه من معايير ، وما انتهى اليه من رأى فى هذه المعايير وفى وظيفة التفسير فى عملية التحليل النفسى .

ولنعرض ، أول كل شىء ، لتفسير ساقه « فارل » وكان قد أخذ هذا التفسير من تحليل حالة سجلت جلساتها على آلة تسجيل ، واذيعت فى الندوة التى تم فيها عرض هذا البحث . وهى حالة طالب مراهق فى السابعة عشرة من عمره ، مازال يتعثر فى المدرسة الثانوية ، وان كان قياس قدرته العقلية قد أثبت أنه يستمتع بقدرة عقلية تؤهله للنجاح فى الجامعة بدرجة الامتياز . وفى جلسات تحليله أبدى فيما أبداه من مشاعره خوفا من قيادة السيارة ، وعزوفا عن تعلم قيادتها من أبيه . وكان تفسير المعالج النفسى لهذه المخاوف هو : « **أحسب أن علة ذلك انك دائما تشعر بالفزع من أن تؤدى اداء مباشرا اى شىء مما يؤديه والدك . لأن ذلك يقترب بك من رغبتك فى أن تكون مثل أبيك ، وفى الوقت نفسه أنت تتهيب من أن تكون كذلك . وأحسب انك تشعر بخوف شديد من أن تكون الاب » وهنا أجاب الطالب : « نعم »** .

يتخذ فارل هذا التفسير ، وموافقة الطالب مثالا يجرى بحثه عليه . فيتساءل : ما هى المعايير التى تجعل المحلل النفسى هنا ، وتجعلنا معه ، نتأكد من ان هذا التفسير تفسير صادق ؟ ويجيب على هذا السؤال ، بوضع المعايير التالية ومناقشتها :

المعيار الاول : موافقة المريض على التفسير

فبتطبيقنا لهذا المعيار على المثل الذى سقناه ، نجد ان الطالب اجاب على تفسير المحلل بقوله : « نعم » . فهل هذا يعنى موافقته على التفسير ، وبالتالى يعنى ان هذا التفسير صادق ؟ كلا ، مازال هناك شىء آخر لا بد أن نتأكد منه قبل اصدار هذا الحكم . هذا الشىء هو : هل كلمة نعم هنا تعنى الموافقة ؟ الحكم اذن يتوقف على تفسيرنا لكلمة « نعم » التى قالها الطالب بعد تفسير المحلل . فهل هذه النعم نعم قاطعة ، نعم تدل على الموافقة ، أم هى نعم تتضمن استفسارا ؟ أو نعم تقول : من الممكن ؟ أو تقول : سأفكر فى هذا ، لكن دعنى اعرف أكثر من ذلك أولا ؟ ان هذه الاسئلة تواجه الشخص منا حينما يقارن بين الطرق المختلفة والنغمات المختلفة التى تقال بها كلمة نعم . ويتحتم علينا حينئذ الا نقول ان المريض قد وافق على هذا التفسير الا اذا كانت نعم التى يقولها هى نعم القاطعة التى تدل على الموافقة ولا شىء غير ذلك . وبناء على هذا فانا عندما أفسر « نعم » هذه على انها تدل على الموافقة ، اصدر حكما على طريقة نطق المريض بنعم التى قالها . وهذا الحكم يشبه الحكم الذى أصدره على شكل غامض أو صورة فى اختبار اسقاطى وبعبارة اخرى انا استجيب هنا لطريقة نطق العميل بكلمة نعم ، وتكون استجابتى من نفس نوع استجابتى لاختبار اسقاطى ، ويكون حكمى على ما تعنيه كلمة نعم حكما اسقاطيا ، مشبعا بالتأثر الذاتى . فاذا اعتمد المحلل على نطق المريض لكلمة نعم الدالة على الموافقة فانه يكون كمن يصدر حكما اسقاطيا عليها . وهنا نقول اننا نستخدم معيار الموافقة فقط فى حالة الاستعانة بحكم اسقاطى ، أو ما يشبه هذا الحكم . وهذا يعنى اننا لا نستعمل المعيار هنا كاختبار موضوعى يقيس أو يحدد لنا هل هذا التفسير صادق أو كاذب ، وانما ندخل فى استعمالنا للمعيار عوامل ذاتية .

المحلل النفسى اذن لا يكتفى بكلمة نعم وحدها لكى يصل الى نتيجة أن العميل قد وافق على تفسيره ورأى انه صادق . فما هى الاشياء الاخرى التى يطلبها فوق كلمة نعم ؟ وهل هذه الاشياء مما يجده متوفرا فى سجل المريض ؟ هذه الاسئلة قد يكون وقد لا يكون من حقنا أن نسألها للمحلل النفسى ، لكنها تدلنا على أننا لم نعد بعد نواجه

(١) منشورات الجمعية الارستطالية ـ ملحق المجلد رقم ٣٦ سنة ١٩٦٢ .

مسألة موافقة أو عدم موافقة فحسب ، وانما نحن نواجه سؤالا اكثر تعقيدا سؤالا لا يستطيع المحلل النفسي أن يجيب عليه الا اذا استعان بحكم اكلينيكي ، أي حكم مستند الى المعلومات التى توصل اليها فى معالجته الاكلينيكية لحالة المريض ، ومثل هذا الحكم لا يضمن لنفسه بنفسه صدقا موضوعيا بل على العكس من ذلك ، نستطيع أن نقول انه حكم اسقاطى فى جانب منه ، وانه بالتالى يشوبه عدم اليقين . فاذا كان الامر كذلك ، فان مسألة تحديد ما اذا كان اى تفسير مقبولا أم غير مقبول ، ليست مسألة قاطعة ولا موضوعية .

من ذلك نرى انه من الصعب ان نجد اى شيء موضوعى يدلنا على ان المريض قد تقبل التفسير ، وان كل ما نستطيع أن نجده هو معلومات توحى بانه قد تقبله ــ وأقول توحى فحسب ــ أو وجهة نظر تدل على ذلك أو تتضمنه .

والخلاصة هى ، ان صعوبات كثيرة تواجهنا اذا استخدمنا موافقة المريض معيارا للحكم على صدق التفسير ، واننا اذا استخدمنا هذا المعيار فانه يكون من الصعب علينا ان نتأكد من اننا قد استخدمناه استخداما سليما .

هذه المناقشة لمعيار موافقة المريض تثير اسئلة وتتركها بغير اجابة . فمثلا ، يمكن ان يقال ان ما يظهر صدق او كذب التفسير ، ليس هو قول نعم أولا ، فان مثل هذه الاجابات قد لا تعنى شيئا نظرا لمقاومة المريض وما عسى ان يلجأ اليه من حيل دفاعية . أما ما يعنى حقا ويهم فهو : هل التفسير يثير عند المريض استجابات ذات صلة بالتفسير ، وبالتالى استجابات تكون نتيجة لهذا التفسير ؟ فاذا كان للتفسير هذا التأثير على المريض ، أى اذا كان التفسير « منشطا » فان ذلك يعطينا أساسا نستطيع ان نعتمد عليه لنفرض ان التفسير صادق أو قريب من الصدق .

لكن ، من جهة أخرى ، كون التفسير منشطا أو غير منشط ليس سببا كافيا لتخلى المحلل النفسى عنه . وعلى ذلك فعامل التنشيط ليس شرطا ضروريا للصدق . ثم اننا قد نحكم بأن التفسير منشط مستندين فى هذا الحكم الى بعض العبارات المؤيدة لذلك الواردة فى سجل الحالة . وهنا يكون المعيار غامضا لاننا اذا حكمنا بأن التفسير منشط بناء على دلالة العبارات التى بين أيدينا فان هذا الحكم منا يكون ذا طابع اكلينيكى . وفوق ذلك فان هذا المعيار يكون عرضة للتغيير ؟ واذا حاولنا ان نحكمه بطريقة تكفى لان تعطينا جوابا مقنعا عليه فى كل حالة ، فاننا بذلك نجعله عديم الفائدة من الناحية الاكلينيكية . لانه اذا كان ليكتسب قيمة اكلينيكية فيجب أن يبقى مرنا الى حد معقول .

هذا كله من شأنه أن ينتهى بنا الى هذه الحقيقة وهى ان المحال النفسى حين يقيس تفسيرا ما بالرجوع الى مدى تنشيطه لما يتصل به من استجابات عند المريض ، انما يفعل بذلك شيئا مختلفا كل الاختلاف عما يفعله العالم عادة حين يقوم باختبار الفرض العلمى الذى افترضه .

المعيار الثانى : معيار المماثلة analogy

وتطبيق معيار المماثلة معناه ان نقول مثلا : بناء على نوع شخصية هذا المريض ، وبناء على مادة حديثة معنا فى المقابلة الراهنة وما سبقها من مقابلات ، فاننا نستطيع أن نقول ان هذه الحادثة المعينة او ان هذا الانفعال ، أو ان هذا الاتجاه ، تفسيره كذا كذا وذلك لان الخبرة التحليلية بحالات مشابهة قد أثبتت ان هذا التفسير صادق .

هذا الحكم فيه بعد عن الحقيقة . لان المحللين النفسيين لا يستعملون هذا المعيار استعمالا جديا واضحا . فهم لا يجدون انه من الطبيعى أو من السهل ان يكشفوا لنا عن الخبرة الماضية التى اعتمدوا عليها بأن يعرضوا أمامنا مجموعة من الحالات التى مرت عليهم والتى تشبه الحالة المعروضة أمامنا فى الناحية التى نناقشها . بل هم ــ الى حد ما ــ يمنعون انفسهم من الالتجاء الى هذه الحالات الماضية لانهم ينظرون الى كل حالة على انها حالة فردية تختلف اختلافا اساسيا عن الحالات الاخرى .

فاذا سلمنا بمعيار المماثلة ، ووافقنا المحلل النفسى على ان تفسيره لانفعال ما تفسير صادق لانه كان هو نفس التفسير الذى فسر به مثل هذا الانفعال فى حالات متشابهة ، اذا سلمنا للمحلل النفسى بذلك ، فاننا نعود فنسأل : وما الذى يدعونا لان نعتقد انه فى الحالات المشابهة التى ظهر فيها انفعال مشابه لهذه الحالة ، كان هذا الانفعال يفسر بما فسره المحلل النفسى به ؟ اذا لجأنا فى اجابتنا على هذا السؤال الى الاستناد لامثلة من طرق المعالجة التحليلية من نفس نوع

تلك التى استعملناها فى هذه الحالة التى امامنا ، لم نكن قد فعلنا بذلك شيئا ، لان هذا يفترض ان طريقة التحليل النفسى طريقة صحيحة ، واننا بواسطتها نستطيع أن نصل الى اكتشاف طباع الناس وانفعالاتهم وما تدل عليه . ولما كان اعطاء التفسيرات والاستفادة منها جانبا ضروريا من جوانب طريقة التحليل النفسى ، فان بحثنا عن معايير صدق التفسير فى عملية التحليل النفسى معناه البحث فى صحة طريقة التحليل النفسى . معناه ان نسأل كيف نعلم اننا باستخدامنا هذه الطريقة نصل الحقيقة عن المريض . ان التجاءنا لمعيار المماثلة اذن معناه التسليم بصحة او صدق عين الطريقة التى نبحث فى صدقها .

والخلاصة ، انه قد يكون من الضرورى ان نلجأ الى تطبيق معيار المماثلة على التفسير حتى نتأكد أن هذا التفسير تفسير صادق . لكننا مع ذلك نقرر أن هذا المعيار أضعف من ان يمدنا باليقين المنطقى المطلوب .

المعيار الثالث : معيار الفهم intelligibility

اى ان التفسير يكون صادقا اذا جعل اتجاها من اتجاهات المريض مفهوما ، اذا اعطى هذا الاتجاه معنى ، اذا انبأنا ماذا تعنى حادثة من الحوادث بالنسبة للمريض . اذا دلنا على ما يجرى فى نفس المريض وفسر لنا لماذا هو عبر عن شىء ما فى هذا الوقت بالذات لكننى لا استطيع ان اطبق هذا المعيار على حادثة منعزلة قائمة بذاتها . وانما على أن انظر الى هذه الحادثة حينئذ فى علاقاتها بما لدى من معلومات ككل ، وعلى ان اكون فكرة معقولة متكاملة عن كل الشخصية . وهنا لا يكون الفرض الذى افترضته مستقلا قائما بذاته ، وانما يكون جزءا من تفسير شامل ، او ثوبا روائيا يمكن أن أضفيه على الشخصية ككل بما فيها الاتجاه الذى فسرته .

لكن هذا المعيار ينطوى على الكثير من الغموض والابهام وتعترضنا فى تطبيقه صعوبات كثيرة ، نذكر منها الصعوبتين التاليتين :

الصعوبة الاولى : اذا سلمنا بأن تفسيرا معينا يتفق مع هذا المعيار (معيار الفهم) وانه يجعل اتجاها من اتجاهات المريض ذا معنى ويجعله مفهوما ، فان هذه الحقيقة لا تثبت ، الا أن هذا التفسير صادق فى حالة ما اذا كان هو التفسير الوحيد الذى يمكن ان نعطيه فيتفق مع هذا المعيار . فنحن لا نستطيع اذن ان نتأكد من ان هذا التفسير صادق الا اذا تأكدنا من انه ليس هناك تفسير آخر مساو له أو قريب منه فى جعل اتجاهات العميل مفهومة .

هذه الصعوبة صعوبة باقية ما بقيت نظرية علم النفس المرضى ونظرية الشخصية على ما هى عليه . ولذلك نشك كثيرا فى اننا نستطيع ان نستخدم معيار الفهم ونحن على درجة كبيرة من الثقة فيه .

الصعوبة الثانية : اذا افترضنا ان المحلل النفسى يعمل بطريقة فرويد ـ كلين (طريقة اقرها فى التحليل النفسى كل من فرويد و « ميلانى كلين » ويلجأ فيها المحلل الى وضع المعلومات التى يدلى بها المريض عن نفسه فى قالب روائى من مجموعة قوالب روائية أساسية اتفق عليها هذان المحللان ، وذلك لكى تصبح هذه المعلومات رواية متكاملة ذات معنى يسهل فهمه) فهو ـ اى المحلل النفسى ـ حينئذ يحاول أن يجعل المعلومات التى عنده عن المريض مفهومة بأن يضعها فى احد هذه القوالب الروائية الخاصة بطريقة فرويد ـ كلين وهو يقيم بذلك عادة لان هذا النوع من الرواية هو النوع الذى يمكنه من ان يضفى على المعلومات التى تظهر فى التحليل معنى مفهوما . فهو حينما يعطى تفسيرا فى هذه الحالة لا يفعل ذلك بطريقة تجريبية محضة ، بل على العكس ، هو يعطى هذا التفسير وهو يحاول ان يوفق بين نوع الرواية التى يستخدمها وبين المعلومات التى عنده وهكذا يمثل هذا التفسير محاولة توفيق يحاولها . ومجرد حقيقة ان المحلل النفسى يوفق بين تفسير ما وبين رواية مفهومة ، سواء من النوع الذى اقره فرويد وكلين ، او من اى نوع آخر ، مجرد هذه الحقيقة لا تعطينا تأكيدا كافيا بأن التفسير صادق . وهكذا فى مثل هذا النوع من التحليل النفسى يفشل معيار الفهم فى أن يعطينا الضمان الكافى الذى نحتاجه .

ويختتم « فارل » بحثه باثارة هاتين المسألتين الجديرتين بالتفكير من كل من يتناول موضوع صدق التفسير فى عملية التحليل النفسى ، وهما :

المسألة الاولى : ان العلاقة الخاصة بين المحلل النفسى والمريض تترك الباب مفتوحا للايحاء من جانب المحلل ولنقبل هذا الايحاء من جانب المريض . فنحن اذا فرضنا ان الانتقادات التى سقناها ضد المعيار المقترح ليست قائمة ، او انها يمكن أن تدحض بسهولة . واذا فرضنا ان

المعايير التي ناقشناها كلها معايير صالحة وضرورية. واذا فرضنا فوق ذلك ، ان هـذه المعايير تنطبق على بعض التفسيرات وانها تنطبق بطريقة مقنعة الى اقصى حد . اذا فرضنا هذا كله وسلمنا به ، فهل من شأن هذا التسليم ان يؤكد لنا تأكيدا قاطعا ان التفسير صادق ؟ هناك شك فى ذلك ، وجـذور هذا الشك تكمن فى العلاقة بين المحـلل والمريض فان هذه العلاقة علاقة فريدة خاصة الى اقصى حد ، علاقة تختلف اختلافا بينا عن العلاقة العادية بين شخصين يتجاذبان الحديث فى الحياة العـادية . فقد اتضح ان هذه العلاقة الخاصة من شأنها ان تجعل المريض معرضا للايحاء من المحلل النفسى ، وأكثر من ذلك تجعله الى حد كبير مستعدا لتقبل هذا الايحاء . وبناء على ذلك ، فان المحلل النفسى حين يطبق نوعا من القوالب الروائية على المريض ، فان هذا الاخير يكون معرضا لان يقبل التفسيرات التى يدلى بها المحلل النفسى نتيجة لهذا التطبيق ، يتقبلها على انها صادقة على نفسه . ومن هنا يكون اتفـاق تفسير ما من هذا النوع مع المعـايير التى ناقشناها ليس كافيا ليثبت لنا ان هذا التفسير صادق على المريض فى الواقع . وغاية ما تستطيع هذه الحقيقة ان تدلنا عليه ، هو ان المحلل النفسى كان ناجحا كل النجاح فى تحويل المريض الى شخص ينطبق عليه هذا النوع من الرواية ، وبالتالى تحويل المريض الى شخص تبدو هذه التفسيرات صادقة عليه ، تبدو صـــادقة سواء للمريض نفسه ، أو للمحلل .

المسألة الثانية : ان التفسـير ليس حـكما اخباريا ، ولا يفيد فى فـرض فرض عن المريض وبالتالى هو غير قابل للصدق أو للـكذب ، وهذه صعوبة من أقوى الصعوبات التى تجعـل البحث فى معايير لصدق التفسير فى التحليل النفسى بحثـا وعرا لا ينتهى بنهاية مرضية . فنحن عندما بدأنا البحث عن معايير الصدق للتفسير اخذنا بالفكرة العامة التى تقـول ان المحـــلل النفسى عنـــدما يعطى تفسيرا ما ، فانه بذلك يصدر حكما ذا طابع اخبارى فى اساسه ، وان هذا الحكم بالتالى يفيد أساسا فى فرض فرض عن المريض . واذا كانت هـــذه هى الفكرة عن التفسير ، فانه يكون من المتمشى معهـا ومن الطبيعى أن نبحث عن معايير للصـدق ، وان نتوقع فى هذه الحالة ان يكون اكتشاف هـــذه المعايير أمرا يسيرا الى حد ما . لكن مما يشـك فيه ان تكون هـذه الفـكرة صحيحة . وفى هذه الحالة تكون الوظيفـــة الاساسية للتفسير الذى يعطيه المحـلل النفسى للمريض ليست وظيفـــة اخبارية او وظيفة فرض فرض بالمرة وانمـا يكون التفسير فى هذه الحالة اداة ، لان المحـلل يكون فى الاصل هادفا من وراء ادلائه بهـــذا التفسير الى أمرين : **أولهما** أن يقطع حديث المريض ويدفعه لاستبصار اتجاهاته وتبينها والتحدث عنهـا فى ذلك الوقت بالذات . **وثانيهما** : ان يحول المريض من شخص منسحب مغلق الى شـخص مسترخ منبسط . ويمكن القول حينئذ ان العبـارة المفسرة التى يقولها المحلل النفسى فى هذه الحالة عبـارة مغيرة أو محولة ، وانها من هذه الناحية ذات طابع خاص مميز يميزها عن العبـارات المفسرة الاخرى التى يستعملها الناس من غير المحللين النفسيين .

نستخلص من هذا انه مما لا يحق لنا ، ومن غير المعقول ، ان نفترض ان عبارة تفسيرية يمكن ان تكون صادقة او كاذبة . وبالتالى ان التفسير فى عملية التحليل النفسى ليس له معايير صدق ، ومن هنا كانت صعوبة البحث عن مثل هذه المعايير التى لا وجود لها .

وهكذا ينتهى « فارل » الى نفس النتيجة التى انتهى اليها كل من حاول ان يبحث عن معايير تضمن اليقين الموضوعى للتحليـــل النفسى ، وينتهى فى النهاية الى ما انتهى اليه « فـرويد » فى رده على الاعتراضات التى وجهت اليه فى هذا الصـــدد . ذلك الرد الذى سقناه فى اول هـــذا المقال والذى يؤكد ان هذه الاعتراضات تدحضها التجربة العملية أكثر مما يدحضها التفكير النظرى والتجربة تثبت ان للتفسير فى عملية التحليل النفسى وظيفـــة منشطة ووظيفة محولة ووظائف اخرى كســائر وظائف ادوات التحليل النفسى . وانها جميعا تعمل على انجاح عملية التحليل النفسى . ولذلك لا معيار لنجاح هذا التفسير فى انجاح عمليـة التحليـل النفسى ، ثم نجاح هذه العملية فى النهـاية . وان ذلك لهو المعيار عند البرجماتيين .

فهل سيبقى هذا الموضوع مفتـوحا للبحث والتعليق ؟ أرى انه سيبقى كذلك ما بقى بيننـــا فلاسفة علوم يهتمون بسلامة الفكرة من الوجهـــة النظرية ، وما لم يتحول هؤلاء الفلاسفة الى محللين نفسيين تقنعهم مثل هذه المعايير البرجماتية دون سواها من المعايير .



مدخل الى فلسفة الدين

بقلم : فؤاد كامل

الدين أسبق من الفلسفة .. هذه حقيقة لايمارى فيها أحد ، اذ تثبتها دراسة الحضارات القديمة ، ودراسة الشعوب البدائية . أما اذا قلنا ان فلسفة الدين أسبق من الفلسفة ، فهذا مالا يتفق عليه الكثيرون .

واذا كان البحث عن المنابع والأصول ينطوى على شيء غير قليل من التعسف ، فاننا نستطيع أن نقول مع ذلك ان الفلسفة قد بدأت ـ على وجه التقريب ـ فى القرن السادس قبل الميلاد ، على أيدى الايونيين فى آسيا الصغرى . وليس معنى ذلك أن انشغال الانسان بمصيره لم يبدأ الا حين أخذ يتساءل مم خرج الكون : من الماء أو من الهواء ، أو من التراب أو من النار ؟ فان قلق الانسان على مصيره أقدم من ذلك كثيرا ، وأسبق على صياغة ذلك القلق والتعبير عنه . واذا كان تاريخ الفلسفة يبدأ بالأيونيين الذين عاشوا فى القرن السادس قبل الميلاد فما ذلك الا لأن اليونانيين الذين عاشوا فى القرن الخامس قبل مولد المسيح قد أنقذوا أفكار هؤلاء الأيونيين أوجزءا ضئيلا منها على أقل تقدير ـ من الضياع . وفى هذا المقام يعد أفلاطون وأرسطو من المصادر الوثيقة . ونحن نطلق تسمية الفلاسفة السابقين على سقراط presocratiques على فلاسفة مدرسة ميليزياوافسوس وايليه ، لكى نبين أن سقراط كان الحد الفاصل بين عهدين ، وانه يلم بأطراف الماضى فى قبضة، ويشير الى المستقبل بقبضة أخرى . غير أن هذا التحديد لايخرج عن كونه اختيارا ذاتيا لايصور الواقع التاريخى تصويرا دقيقا ملزما .

والواقع أن تاريخ الفلسفة لايسير على هذا النحو من البساطة والتبسيط . فتاريخ الفلسفة الاغريقية ليس هو تاريخ الفلسفة بوجه عام ، والحقبة التى انقضت من طاليس الى جان بول سارتر تقل عن ثلاثة آلاف عام ، أى انها قصيرة اذا قيست بتاريخ الانسانية الذى يمتد مئات الآلاف من السنين . ومن الحق أنه لا شأن لطول الزمن أو قصره بهذه المسألة، ولم يكن الكيف تابعا للكم بأى حال من الأحوال ،بيد أنه من الحق أيضا أن الشعب الاغريقى ، ليس هو « الشعب الفلسفى المختار » . ويتحيز مؤرخو الفلسفة الغربيون أشد التحيز للفلسفة الغربية حين

يزعمون أن الغرب هو وحده الذي خلق ، وأنشأ وطور التفكير الفلسفي ، اذ يحق لدارسي الحضارات الصينية والهندية المتعمقين أن يحتجوا على هذه الطائفية في تاريخ الفكر الفلسفي . والواقع أن الشرق لم ينشيء أنظارا « حكيمة » وتأملات فلسفية فحسب ، ولكنه سبق الغرب أيضا في مجال التفكير الفلسفي ، كما أنه لم ينجح في العمل على ازدهار تلك الانظار والتأملات بين صفوة مختارة فحسب كما هي الحال عند الاغريق ، بل نجح في العمل على ازدهارها بين جماعات بأكملها . وقد وصل الشرق الى ذلك ، لاعن طريق المدارس الفلسفية والوسائل الشكلية ـ ولكنه وصل الى ذلك بوسائل أكثر من ذلك مباشرة ، وأشد عينية . وفضلا عن ذلك فان التعارض المتطرف الذي يقيمه كثير من المؤرخين بين الفكر الشرقي والفكر الغربي متعسف غير علمي ، اذأثبتت الدراسات التاريخية الحديثة أن الحضارتين الشرقية والغربية قد تفاعلتا منذ أقدم العصور . ونحن ، وان كنا نستطيع أن نميز الواحدة عن الأخرى ـ الا أن احداهما لايمكن أن تستبعد الأخرى ، نتيجة لاتصالهما الوثيق في أكثر من مرحلة من مراحل التاريخ . وهكذا يمكن ان يعد ارجاع تكوين الأفكار الفلسفية الى الاغريق وحدهم تحيزا أو جهلا . والواقع أن مايمكن أن نعزوه الى اليونانيين هو أنهم أول من ابتكر نزعة صورية معينة ، أعني منهجا في التفكير يمكن أن تنتظم بمقتضاه المعارف المشتتة وتتصل الأفعال المتباينة . وهذا المنهج ، أو المنطق ـ ان شئنا الدقة ـ لايشمل كل ضروب المنطق ، ولكنه يتسم بقوة وفاعلية لا سبيل الى انكارهما . أضف الى ذلك أننا مدينون الى سقراط بالتفاته الى الذات ، أو الى ماهو كلي universel في الذات ، وتفضيله لمعرفة الذات على معرفة العالم ، وبهذا المعنى كان مؤسسا ـ بحق ـ للفلسفة كما يفهمها أصحاب النزعة الانسانية الغربية . ومع ذلك فاننا نخطيء أبشع الخطأ حين نعتبر هذا الكشف السقراطي بداية مطلقة ، وأنه لم يستند على شيء سابق ، والحقيقة أنه نقطة بلوغ لا نقطة بداية . فاذا كنا لانستطيع أن نتوغل الى أبعد من مدرسة ميليزيا في تاريخ الفلسفة ، فاننا نعلم أن مفكري هذه المدرسة قد أمعنوا النظر في الأساطير الكونية « التي تتناول نشأة الكون cosmogoniques » والتي تتضمنها التقاليد الدينية . ومن نكد الطالع ان ارسطو وتلاميذه لم يلتفتوا الا الى طاليس وأنكسماندر وأنكسيميس . والواقع أن هؤلاء الفلاسفة الثلاثة يمثلون مرحلة الطفولة في العلم كما يمثلون هذه المرحلة نفسها في الفلسفة ، غير أنهم يمثلون هاتين المرحلتين من الطفولة ابتداء من نظريات نشأة الكون الدينية التي وصلت اليهم من مصر ومن بلاد ما بين النهرين . ومن هنا يمكن أن نعد الدين أصل كل تفكير فلسفي ، بما في ذلك الفكر الاغريقي ، فهو يزود العلم بمجموعة من الصور يختار من بينها تمثلا أوليا للكون ، وهو يزود الفلسفة بمعنى اللامتناهي والعدل والظلم والفاني والخالد ، وهذه كلها معان تتجاوز مستوى الملاحظة الوضعية البسيطة .

ويمكن أن تنطبق هذه الملاحظات نفسها على المفكرين الذين تلوا ذلك ، ففيثاغوراس ومدرسته يمزجون باستمرار بين الدين والفلسفة ، ومدرسة أقريطونة « أو ايطاليا القديمة ، حوالى عام ٥٣٠ ق.م » عبارة عن رابطة دينية ، أنشأت على غرار الحلقات الأورفية . الا أنها تختلف عنها في أنها تضيف الى مناهج تطهير النفس ، نوعا من الرياضيات الرمزية التي تنحو منحى يختلف عن الأسطورة والشعائر الدينية . فهي تنطوي على لون من الوان الانسجام الكلي . أما المدرسة الفيثاغورية فانها تعد السابقة التي منعت الفلسفة الاغريقية من أن تتخلص كلية من الطابع الديني . وليس خافيا على مؤرخي الفلسفة أن هذه المدرسة تضرب بجذورها في الديانات الشرقية بعامة والديانة المصرية بوجه خاص .

ويأتي بعد ذلك هرقليطس الذي عاش في مدينة افسوس في أواخر القرن السادس قبل الميلاد فيتخذ من المعتقدات الشعبية موقف الاحتقار ، ويرفض الأسرار الاورفية جملة وتفصيلا ، ويستنكر الطقوس الديونيزوسية ، ومع هذا كله فان نظريته في منشأ الكون لاتقل أسطورية عن نظرية فلاسفة ميليزيا . ولكنه يعلن تفضيله لما يراه بعينه على مايقال له ، ويحاول أن يجعل العيان intuition سائدا على التقاليد . وهو يحاول أيضا الكشف عن صبغة كل شيء أو عن « اللوغوس » Logos «الكلمة أو القانون » ومع ذلك فانه يظل حلقة في سلسلة

التفسيرات السابقة للكون · وفكرة الاضـــــداد التى تعد نموذجا للديالكتيك الذى يحركه الصراع الداخلى فكرة قديمة قدم الافكار المانوية التى يرجع أصلها الى عصور سحيقة فى التاريخ (تقدر فى بعض الاحيـــان بثمانية عشر قرنا قبل ميلاد المسيح) أما فكرة وحدة الأشياء الكامنة وراء مايعتريها من تغيرات وتحولات ، فيمكن أن تعد أقل قدما من فكرة الاضداد وان لم يكن ذلك بدرجة عالية من اليقين · وعلى أية حال يمكن أن نعد الثنائية ووحدة الوجود تصورين مكملين أحدهما للآخر ، اذ نجدهما ممتزجين فى أساطير الحضارات الموغلة فى القدم · وهرقليطس يمثل من هذه الناحية تقدما على الأساطير التلقائية فهو يؤكد فكرة القانون والمعيار ، ولكن فـــكره لا يتماسك دون الأسس الاسطورية التى يدعى تجاوزها

أما بارمنيدس (الذى عاش فى ايليه فى القرنين ٦ـ٥ قبل الميلاد) فانه يعد تلميذا للفيثاغوريين ، ومن ثم فانه يتـأثر بالنظريات الأورفية ، كما انه يعارض هرقليطس فيضع الثبات والدوام وهـوية الوجود فى مقابل الحركة والتغير · ولكنه يوفـق بين بحثه عن الحقيقة عن طريق الرياضة ، وبين فهمه لما هو حسى متوسلا بالأسطورة · ويبدو أن هـذا الاتحاد بين الفكرة والأسطورة ، وهذا التعاون الحميم بين التصور والصورة هو الغذاء الطبيعى لحيـــاة الروح ، بل انه الشرط الحقيقى لكل فلسفة ·

ومن العبث أن نستعرض هاهنا السمات المميزة للفلاسفة السابقين على سقراط جميعا مثل زينون وآمبنوقليس ، وانكســاغوراس ، وليوقيبوس ، وديموقريطس ···· الخ ، غير أننـا نستطيع أن نؤكد أمرين بالنسبة اليهما جميعا ، اولا : أنهم قد اســتغلوا جميعا الاسس التى وضعهـا المفكرون الأيونيون ، وثانيا : أن الأساطير الأصلية توجد لديهم جميعا بنسب متفاوته ، والسوفسطائيون هم وحدهم الذين ينظرون الى الماضى نظرة ارتياب وشك ، ولكنها نظرة يشوبها الـكثير من الادعـاء والتظاهر ، ذلك أنهم قد أخذوا على عاتقهم رسـالة انقاذ الفن والثقافة وهذا معناه انهم لايرفضـــــون « قبليـا » a priori أى تراث · واذا كانوا قـد أهملوا الدين بحجة أنه من الغموض بحيث لاتكفى حياة الانسان القصيرة افهمه ، فانهم لم يهملـــوا الأخلاق اهمالا تاما ·

ويستمد سقراط (٤٧٠ ـ ٣٩٩ ق·م) شعاره المعروف « اعرف نفسك » من حكمة منقوشة على معبد دلف · وفضلا عن ذلك فان « الجنى » الذى تحدث عنه يستمد الهامه من منابع دينية ، لامن منابــع دنيـــوية ، ويبدو من الواضــح أنه يختلف عن السوفسطائيين فى احترامه للعادات الدينية السائدة فى عصره وفى احترامه لقوانين المدينة · وفى استخدامه الحجاج والمناقشة ، يفكر ويجادل ويحاول الوصول الى تعريفات للمفاهيم والتصورات من أجل «الفعل» وحين ننتهى من التفكير والجدل والتعريف ، يصبح توافق الذات مع نفسها أمنية مطلوبة على مســتوى الأفعال ، وفى السلوك العملى ·

وقد ســار أفلاطون (٤٢٧ ـ ٣٤٨ ق·م) فى طريق استاذه ، وحاول اثراء فلسفته اثراء ملحوظا . ويهمنا أن نبين الى أى حد ارتبطت فلسفة أفلاطون بالدين · فهى من ناحية الشكل لاترفض التعبير الأسطورى ، ومن ناحية المضمون يستمد أفلاطون وحيه من الدين ، ويعتقد أن العلوم ينبغى أن تنزع الى تأمل الخير المطلق ، وفعل التأمل هذا ينبغى أن نحشد له كل قوى النفس · والواقع ان العلــم والتصوف يتفاعلان عند أفلاطون بحيث يصبح مصير النفس وخلودها شرطا لامكانية العلم· والاسطورة عند أفلاطون ليست برهانا على شىء ، وانما تأتى بعد البرهان ، وهى وان تكن اسقاطا فى الزمــان لشىء لاينتسب الى الزمان ـ كما يقول أفلاطين ـ فانها الصورة الوحيدة للفكر التى يمكن أن تنفـذ الى الوعى فى مستويات معينة يصل اليها · فهى ليست نسخة مشوشة من الفكر أو وسيلة لمساعدة هؤلاء الذين لايفهمون عن طريق الدليل التصورى ، ولكنها حديث فيلسوف الى فلاسفة ، وما يضعف هذه الأساطير ، هو أن أفلاطون يضعها واعيا ، فهـــو يملك مفتاحها قبل أن يشكلها ، أو ان شئنا الدقة ـ قبل أن يعيد تشكيلها ، لأن هذه الأساطير قديمـة قدم الحضارة الاغريقية ، ومن النادر أن يخلقهـــا أفلاطون جملة وتفصيلا· وخلاصة القول : ان أفلاطون يعلمنا أن الفلسفة ينبغى ألا تتهيب الاساطـــير بل انها تستطيع أن تستغلها وان تنتفع بها ·

ونذكر أرسطو (٣٨٤ـ٣٢٢ ق·م) عابرين ، لأن مؤلفاته التى بقيت لنا لاتتصل بموضوعنا اتصـالا وثيقا ، ذلك أن روحه الوضعية لم تترك فى نفسه

مكانا فسيحا للالهام الصوفى • غير أن نظريته فى المحرك اللامتحرك، وفى الفعل المطلق، الذى هو نفسه « فكر الفكر » قد كانت أساسا شيد عليه فلاسفة العصر الوسيط ، وبخاصة القديس توما الأكوينى مذاهبهم اللاهوتية •

ويعد « أفلوطين » (٢٠٥–٢٧٠ م) أبرز فلاسفة العهد القديم من حيث الطابع الدينى الذى تتخذه فلسفته • وقد فطن الفلاسفة المسيحيون الى هذا الطابع الدينى فى فلسفة أفلوطين ابتداء من دنيس الأروباجى حتى متصوفة العصر الحديث من المسيحيين ومن الحق أن أفلوطين يسعى الى الخلاص ، ولكنه يتوسل الى ذلك بالعقل ، ويعترف فى الوقت نفسه بأن العقل تابع ، وأنه وسيلة للانتقال الى الواحد والى المتعالى ، ولهذا فان النشوة الأخيرة تفترض نوعا من الفضل الالهى• وهذه هى التجربة الدينية **التى تتجاوز العقل عند أفلوطين، أو هى اتحاد العقل بالمطلق** • ومن ثم يمكن أن نقول ان فلسفة أفلوطين نزعة عقلية صوفية ان صح هذا التعبير ، ويقوم اسبنوزا فى الباب الخامس من كتابه « الأخلاق » بمثل هذه المحاولة وان لم يميز بوضوح بين الجهد العقلى والدخول فى اللاتعين الأسمى •

وحين نتجاوز العصر الهلينستى نخطو الى عالم مسيحى ، وتضع الحضارة الجديدة مشكلة العلاقة بين الفلسفة والدين فى صورة جديدة هى مشكلة العقل والايمان ، أو مشكلة الفلسفة واللاهوت وهذه النظرة تسود العصر الوسيط كله ، وتمتد الى العصر الحديث •

ولقد كانت مؤلفات القديس اغسطين ،وأوريجين، وبونافنتورا من العوامل التى ساعدت على انفصال اللاهوت عن الفلسفة ، وهى نتيجة لم يكن يهدف اليها هؤلاء المفكرون الثلاثة •• نتيجة واجهها القديس توما الأكوينى فى شجاعة مذهلة ، ففصل فى جسارة بين حقائق العقل وحقائق الايمان ، وجعل الأولى من نصيب الفلسفة ، والثانية من نصيب اللاهوت ، وكان فى تمييزه هذا يود مخلصا أن يعمل على التوفيق بينهما ، ولكنه بتحديده هذا لمجال كل منهما : الحقائق الطبيعية للفلسفة فى مقابل الحقائق الفائقة على الطبيعة للاهوت •• قد حدد مصير الفلسفة الحديثة التى لم تعد تجد ما يدعوها الى مثل ذلك التوفيق الذى أراده القديس توما ، والحق أنه كان يملك كفاءة مزدوجة فى مجال اللاهوت والفلسفة على السواء • فهو من هذه الناحية لايعد مسئولا وكذلك لايعد ديكارت مسئولا ،لأنه لم يكن يقصد أن تنتهى ثنائيته الى القطيعة التامة بين اللاهوت والفلسفة • ومهما يكن من أمر فقد حافظت النزعة التوماوية على استقلال الفيلسوف من ناحية ولكنها أتاحت لبعض المفكرين ان يتخذوا لقب الفيلسوف دون أن تكون لهم أية علاقة من قريب أو بعيد بالمشكلات الدينية ، من ناحية أخرى • وقد تكون هذه النتيجة الثانية أمرا ضارا بالفلسفة ، لأن الحوار مع الدين لم ينقطع عن أن يكون منبها للفيلسوف على مر العصور ، وقد شعر أبعد الفلاسفة عن الالتزام بتعاليم الدين مثل اسبنوزا وكانت وهيجل وكونت ورينوفييه وبرونشفيج وآلان ••• الخ بحاجتهم الى مواصلة هذا الحوار ، ولو كان ذلك بطريقة سلبية ، أعنى نقدية •

والى هذه الطريقة النقدية للدين لجأ اسبنوزا ، اذ كتب نقدا للديانتين اليهودية والمسيحية حاول أن يحدد فيه مفاهيم الوحى والنبوة والتاريخ الدينى والطقوس •• الخ• وانتهى من هذه المحاولة الى الحكم على هذه المفاهيم بأنها غير خليقة باتخاذ وضع فلسفى ، أو أنها باعتبارها تعبيرا تاريخيا وتحديدا عقائديا غير قابلة لان يتمثلها الفكر الفلسفى ، ولم تبق غير خطوة واحدة للقول بأنها لا تتسق الا بالنسبة لرجل الدين •

وهكذا نشأت أزمة الثقة بين اللاهوتى والفيلسوف: اللاهوتى يستخدم عقله فى فهم ايمانه ، ولكنه يبدأ بالايمان ، بينما يبدأ الفيلسوف بالعقل ومن ثم فانه يقف من معطيات الايمان موقف الناقد ، وهو يحلل هذه المعطيات ولكنه لايفهمها لأنه يفتقر الى ايمان رجل الدين • و « كانت » لم يفهم معنى التصوف نتيجة لنزعته الأخلاقية ، كما أنه لم يسلم بالرابطة القائمة بين الايمان والتركيبات التاريخية • وقد قدم شلنج تفسيرا دسما للأسطورة والوحى ، ولكنه أعلن أن ماهو وضعى ، يأتى فى المرحلة الثانوية من الدين ، وأن الصورة الدينية الأولى طبيعية فى جوهرها ، وأسطورية فى تعبيرها •

أما هيجل فانه يعد أول فيسلوف للوضعية المسيحية ، اذ يعتقد أن هذه الوضعية لحظة ضرورية

من لحظات الديالكتيك • وكل تجربة روحيةأو تقدم انسانى يحتاج لكى يكون متسقا وكاملا الى التعبير والى التحقق العينى ، والاتصـال المتبادل • وهذا التخارج ــ ان صح هذا التعبير ــ لايعد نهاية للعملية، بل ينبغى السـير من الخـارج الى الداخـل ، كما انتقلنا من الداخل الى الخارج • فاذا وضع الدين التاريخى داخل هذا السياق ، لم يعد واقعة غير قابلة للتمثل بالنسبة للفيلسوف ، بل يصبح ــ وفقا لقانون التعبير ــ شكلا حقيقيا من أشكال المطلق • ولا يعود الدين شيئا عرضيا ، بل ضرورة لازمة •

وكان على الفلسفة الحديثة أن تنتظر « هسرل » لكى تجد فى الفينومينولوجيا فهما فلسفيا للدين يرمى الى غاية أخرى غير ادانة الدين أو تجاوزه ، والحق أن هسرل لم يطبق هو نفسه منهجه عـلى الدين ، بل قام عنه بهذه المهمة تلاميذه ونذكر منهم ماكس شيلروج ، فان درلييوف G. van der Leeuw وهذا المنهج يتألف من وصف الدين الوضعى كما يظهر أمامنا وفى المعنى الذى يدعيه بغض النظر عن قيم الحياة التى يكتشفها المؤمن بهذا الدين ، فيبدأ بفحص التركيبات الدينية كالعقائد والطقوس

•••• الخ واحدا واحدا ، ثم يحللها دون أية غاية اللهم الا المحافظة على معنى كل جزء فى اطار الكل، مع تأجيل الحكم ، والابتعاد عن كل تقويم • ولهذا فنحن نعتبر هذا المنهج ناقصا ، لأن وظيفة الفيلسوف هى الحكم ، ولابد لكى يصبح « علم الظواهر الدينى » فلسفة للدين أن نضيف الى الوصف الحكم على ما نصفه • ولكن يجب أن نعلم أن فلسفة الدين ليست هى الدين نفسه ، فالنظرية لايمكن أن تكون هى الفعل والمعرفة ليست هى السلوك العملى ، والتجربة الحية لايمكن تحصيلها بالمعرفة وانما بالمعاناة والمكابدة • والحق أن المناخ الطبيعى لازدهار الفلسفة لايوجد فى حجرة المكتب المغلقة ، ولكنه يوجد فى الهواء الطلق وسط الحياة والأحياء • ومهمة الفيلسوف هى ان يدرس النشاط الانسانى فى ظواهره ونظمه المختلفة فى اللغة فى الاساطير الشعبية ، فى الفنـون ، فى العلوم والاديان ، وعليه ألا يفسر المفاهيم فحسب ، بل عليه أن يدرس ويحلل ويحكم على النظم والمؤسسات ايضا • والدين مؤسسة بين غيره من المؤسسات ، ولهذا كانت دراسته واجبة على الفيلسوف الذى ينبغى ألا يمنعه شىء عن دراسة أى شىء •





الأصفار تدور في حلقة مفرغة

بقلم : مالك حداد

ترجمة : إدوار الخراط

مالك حداد من أعلام الكتاب الجزائريين الشبان . ولد فى قسنطينة ، ودرس القانون فى ايكس اين بروفانس فى جنوب فرنسا ، ثم عاد الى الجزائر فاصدر فيها مجلة « التقدم » . وفى ١٩٥٥ رجع الى فرنسا وصدر له فى ١٩٥٦ ديوان شعر هو « الشقاء فى خطر » ثم صدرت له على التوالى روايات « الانطباع الاخير » و « سوف أهبك غزالة » و « التلميذ والدرس » و « صيف الأزهار لم يعد يجيب » . وفى ١٩٦١ أصدر مالك حداد ديوان شعره « استمعى وأنا أناديك » الذى تتصدره هذه المقالة : « الاصفار تدور فى حلقة مفرغة » .

وفى أسلوب مالك حداد نلمس صنعة الشاعر الفنية وقدرته على الجمع بين الصورة الموحية والعبارة الفلسفية . وهو فى اعماله يعالج التناقض بين الجيل القديم والجيل الحديث فى الجزائر ، بين القيم الحضارية العريقة والمدنية الغربية الحديثة ، بين التقاليد الدينية والعربية من ناحية والتربية الفرنسية وماتحمله من آثار لا تنكر فى تكوين الجزائريين المعاصرين ، من ناحية اخرى .

وفى هذه المقالة يتناول مالك حداد مشكلة من أخطر المشاكل التى تواجه الثقافة فى الجزائر ، وفى العالم العربى من ثمة ، هى مشكلة ثنائية لغة الثقافة والحضارة فى الجزائر المعاصرة ، ونفى اللغة العربية فيها من ارضها ، وموقف الكاتب الجزائرى الذى اضطرته مأساة الاستعمار الفرنسى فى وطنه الى الكتابة باللغة الفرنسية وان كان وجدانه كله يتعلق أكبر التعلق بحضارته العربية ولغتها .

عسى أن ننتبه الى وصل الوشائج وتوثيق الروابط بيننا وبين الكتاب الجزائريين ، وقد اسهموا فى فنون الرواية والمسرحية والشعر بنصيب له خطره ووزنه ، والتفت العالم الغربى كله بالتقدير والاعجاب الى ما قاموا به فى هذه الفنون ، خلال فترة وجيزة .

وعسى أن نرد الى هذه الفنون العربية الأصيلة لغتها السليبة كما يقول مالك حداد ، وأن نعيدها من المنفى الى وطنها الحق ، اللغة العربية .

المترجم

ان البحر الأبيض المتوسط لا يفرق بينى ووطنى بقدر ما تفرقنى عنه اللغة الفرنسية . ومع ذلك فلو كنت أكتب بالعربية لقام حاجز بينى وقرائى : هو الأمية .

ان أبناء عمومتى فى الجبال المجدبة المعراة لن يكون بوسعهم أن يقرأوا عملك الجليل « نجمة » أى كاتب ياسين . وشيوخ « دار السبيتار » لن يكون لهم أن يتعرفوا على أنفسهم فى روايتك « البيت الكبير » أى

عزيزى محمد ديب ، أنت الذى تنسج اعمالك من الأحداث اليومية المألوفة الملعونة . من ذا الذى قرأ « الزلزال » بعد ان كتبها كريا ، فى أزقة « بليدة » التى لا تزدهر فيها الورود ؟ ومع ذلك فان الموسيقى قد وجدت الأوركسترا التى تليق بها . أى مارسيل موسى ، مالك أواري ، فرعون ، سيناك ، معمرى ، جول روى ، عمروش ، صديقى روجيه كوريل ، روبليس (*) : بوسعى أن ألتقط كلمة قالها أحد الناطقين بلسان فرنسا الحرة ، وأن أقول لكم ، مع كل احترامى وكل محبتى : ان الجزائر ترفع السلاح تحية لوحدتكم .

انني احييكم ، أنتم « اليتامى المحرومون من القراء الحقيقيين » ، أنتم « الممثلون » النبلاء ، أنتم « المستوحدون » الذين نزلت بهم المأساة . كان لكم ان تحملونى على فهم عبارة «البشارة فى الصحراء». ولكننى ، بعد ان اتجاوز حدود المرارة ، اعرف أن رسالة الصحارى هى أن تنبثق منها التأملات الواسعة الشاملة ، والفزلان .

سوف تضع الحرب أوزارها الآن . سوف تصمت البنادق واننى لأعتقد ان البارود لن ينطلق منذ الآن الا فى صواريخ الاحتفالات . سوف تصمت البنادق، وسوف تستحيل الكلمات المجندة الى اغنيات فى المساء واهازيج تشدو بها بلابل الحب فى الليل . سوف تصمت البنادق ولكن الأقلام لن تصمت . وها هى ذى نبوءة سانت اكسبيرى تتحقق « برج ينبغى تشييده » . ان الحبر سوف يتلقى الراية من الدم .

سوف نغادر المنفى . وسوف يعود النبت المنتزع من ارضه ، الى روضته . وسوف يجد كل منا مكانه، فى تواضع وفهم . وسوف يكون لكل منا جدواه وفائدته فى البيوت التى سوف يتحتم بناؤها او اعادة بنائها . وسوف نعود فنرى الربوع المفقودة، والجحيم والجنات التى حرمنا منها ، تلك المغانى التى تعتز بها الذكريات أو يجيش لها القلب ، وتبرر حنيننا الى الوطن واشواقنا الى العودة .

حب الجزائر طوح بنا فى متاهات التشتت الغريبة . لم نفر من المأساة اذ أننا نحملها معنا فى اخيلتنا ، ونقلها معنا ، وروايتنا وقصائدنا تسهم بدورها فى أن تعرف الناس بالمأساة ، والشهادات الحارة تؤكد لى أن هذه الروايات والقصائد تغذى بالأمل ، أولئك الذين لا يفتقدون الى الأمل ولكنهم يجدون فى البلابل التى تصدح لهم مزيدا من أسباب الايمان بالربيع . واقصد هنا تلك الخطابات التى تأتينا من السجون ، وتلك الرسائل التى ترد من الجزائر ، ومن فرنسا ، ومن أوربا ، هذه الخطابات والرسائل التى نرى فيها ، نحن التلاميذ ، علامات تقدير . فاذا كنا دروسا فانها شهادة نجاح . هذه الرسائل والخطابات التى رأينا فيها نصائح كما رأينا فيها دعوة متطلبة ملحة .

سوف نغادر المنفى ، لا لكى نقوم بحج ، ولا لكى نعود الى منابعنا ومصادرنا ـ ذلك أننا لم نفترق قط عن منابعنا ومصادرنا ـ وانما لأننا كالنحلة والجدجد فى وقت واحد ، لكننا مع ذلك نخضع للشروط والظروف التى تمليها علينا أوضاعنا . ذلك أن الشجرة بحاجة الى جذورها ، والجذور بحاجة الى التربة التى تضرب فيها . ذلك أن الوطن ، فى مرحلته الأولية الدقيقة المجيدة من مراحل حقيقته ، انما هو ظاهرة تكاد أن تكون ظاهرة عضوية . قلت منذ قليل « اليتامى المحرومون من قرائهم » . وارجو ان يفهم عنى ، ويغفر لى ، كل أولئك الذين تتبعوا أعمالى الأدبية عن كرم خلق أو عن فضول .

لنا قراؤنا ، بل لنا الكثيرون من القراء، فى الجزائر وفى فرنسا ، وربما كانلنا قراء فى كل مكان . نحن نعرف أن هذا الاهتمام الذى نثيره عند الناس، وهذا الانتباه الذى يتفق لنا ان نجتذبه ، ليس براء من التعاطف السياسى ، وأنه يتجاوز حدود شخصية الشاعر او الروائى . التحية انما تزجى ، عن طريقنا، الى الجزائر التى تعانى وتناضل . اننا المنتفعون الأشقياء من أوضاع مضطربة مؤلمة .

لنا قراؤنا ، بل لنا الكثيرون من القراء. والناشرون الذين يقومون بنشر اعمالنا ، وهم دائما اصدقاء ، لم يكونوا مخدوعين عن حقيقة الحال . وقد استطاعوا ان يؤلفوا بين ضرورة الاختيار الدقيق الذى تتطلبه مهنتهم ، والنجاح الذى يتاح لما ينشرونه لنا ، وهو نجاح يرجع الى اسباب سياسية . واننى لاستأذن هنا فى ان احيى أولئك الناشرين منهم الذين لم يترددوا فى ان يغامروا بمخاطرات مادية جسيمة تتعلق بحياتهم وحريتهم ، وفاء منهم للقيم الانسانية التقليدية وتلبية لواجب يرونه فرضا عليهم باعتبارهم طلائع الصفوف .

(*) كلهم كتاب جزائريون ، من أصول عربية او فرنسية ، يكتبون باللغة الفرنسية . (المترجم)

نعم ، لنا قراؤنا ، بل لنا الكثيرون من القـراء . ولكن احدا لم يمنعني من ان اكرر اننا ، بقوة الاشياء وضرورتها ، يتامى محرومون من قرائنا الحقيقيين. ذلك أن من نكتب لهم في المكانة الأولى ، لا يقراون لنا.

وهم على الأرجح لن يقراوا لنا شيئا ابدا . لأن ٩٥٪ منهم يجهلون وجودنا نفسه . هؤلاء القـــراء الذين اضافوا الى اسمهم مقطعا واحدا فأصبحوا حفارى القبور المباركين الذين يحفرون قبـور كل أنواع الاستعمار ، وهم الذين استبدلوا بمقبض المحراث كعب البندقية ، وأدهشوا العالم كله ، وارغمـــوا الجنرال ديجول نفسه على احترامهم . هؤلاء القراء الذين يعيشون التاريخ ، ولا يكتبونه ــ فليس من المستطـــاع أن يكون للمرء من قلبين فى جوفه ــ هؤلاء القــراء الذين لا يقــراون لنـــا ، وليس فى مقدورهم أن يقراوا لنا ، هم مع ذلك سبب وجودنا ، والسبب الذى نكتب له ، هم سبب الثورة الجزائرية وهدفها : الفلاحون .

تحضرنى حكايتان، صورتان من منفاى. كنت ذات يوم فى بلدة «كليمون فيران» وكان الجو باردا، فقد كنا فى الشتاء . كانت الأشجار والحيطان ســوداء . وكان تمثال أول الثوار الفرنسيين يشق الســحب الواطئـــة . ودرت خلف مبنى الشرطة ، وتجاوزت ساحة سوق هى اقرب الى أسواق البروفانس منها الى أسواق سيفين ، ودخلت مكتبة لا تبعد كثيرا عن كنيسة ترتفع واجهتها الملساء الصـقيلة فى كبرياء ، لكى أشترى صحيفة لا أذكر اسمها الآن . وفى تلك اللحظة نفسها ، وبحكم صدفة مبـاركة كان ثم رجل فى نحو الأربعين يطلب كتابا من كتبى ، وان كان ينطق باسمى على نحو شائه مسلوخ . فأعطاه صاحب المكتبة الكتاب . لم يكن ما يهـــزنى عندئذ احساس صبيانى ، وان كانمشروعا ، بالزهو . بل كان انفعالى يتجاوز هوس الفرور الذى يصيب أهل مهنتنا ، نحن الكتاب ، كأنما هو من قبيل اصـابات العمل . ومضى الرجل بكتابى ، وكان جليا من مظهره انه مزارع . والقى بالكتاب على المقعـد الخلفى من عربته ذات الحصانين ، وانطلقت العـــربة تتقلقل وتتأرجح على احجار الشـــوارع التى توحى ببعض اجيال العصور الوسطى ، ورحت احلم .. واتفق لى ان مرت بى صدفة مماثلة فى مكتبة ببلدة « ســان تروبيز » . وفى كل مرة كنت افكر فى ذلك القارىء المثالى ، ذلك الفلاح الذى تشغله اليوم مهمة أخرى ، ذلك الفلاح الذى لا يقرا لى ، والذى اكتب له ، ذلك الفلاح الذى يجيش قلبه بالحب ، وتثور نفســـــه بالغضب ، ويندفع فى طريق لا يعرف فيه الاعتدال، ذلك الفلاح الذى انزل به ليل الاستعمار اقسى ضروب العمى ، عمى الأمية .

وصورة اخرى : كان ذلك فى باريس ، فى سوق علنية لبيع الكتب ، فى الساحة الشتوية القديمة لسباق الدراجات البخارية ، وكنت فى تلك السنة الكاتب الجزائرى الوحيد من بين الكتاب الذين يوقعون على كتبهم عنــد بيعهـــا . وكنت احس احساسا حادا بوحدتى ، وبأن مكانتى ، كممثل للكتاب الجزائريين ، مكانة قلقة لا استقرار لها .

وعندئذ جاء الى المنصة التى كنت اقف اليهـــا جزائرى ربعة ، داكن السمرة ، يرتدى ملابسه باناقة ساذجة وسلامة هندام لا تشوبها شائبة ، تهز القلب وتنم عن أن صاحبها عامل قد انتزع من تربته، وعلمته العادات التى غرستها فيه تقاليد التفرقة العنصرية ان المرء انما يقاس بمظهره ، وسألنى بالعربية :

ــ اى كتاب تريد منى أن احمل معى ؟

فما الاجابة التى يمكن ان ارد بها على سؤال كهذا، دون ان احيد عن السلامة والصدق ، يدفعنى الى ذلك الحيود ما أوثر من كتبى ، فى دخيلة نفسى ، أو يدفعنى اليه غرور شخصى خليق بأن يثير السخرية فقلت :

ــ الكتاب الذى تريد .

فمر بسبابته اليمنى على الكتب ، كما يفعل الأعمى اذ يتردد قبل ان يضغط الزر الكهربائى فى المصعد . وقال :

ــ انا لا اعرف القراءة .

فلم يسعنى أن امنع نفسى من سؤاله :

ــ ولماذا تشترى كتابا ؟

ولم يتردد فى الاجابة :

ــ لأنه قيل لى انك من بلادنا ، وقومنا ، وانك تتكلم عنا .

وما لبثنا أن كنا نتشارك الذكريات . لى دائمـــا ذكرياتى المشتركة مع الجزائريين الذين التقى بهم ، ولم أرهم من قبل قط ولعلنى لن أراهم بعد أبدا.

اما قارئى الذى لم يكن يعرف القراءة فقد مضى ، واختفى فى غمار الجموع المحتشدة ، وكتابى تحت ذراعه .

لن انسى أبدا .

وهنا أسمع اعتراضا له وجاهتـــه ، لو لم تــكن الحجة التى يقوم عليها تسطع منها رائحة فجة خبيثة من سوء النية :

هذا الجزائرى الذى اشـــترى كتابك ومضى به يتأبطه تحت ذراعه ، أيكون حظه من القراءة لك أكثر، لو كنت تكتب بالعربية ؟

واجابتى على هذا الاعتــــراض الذى لا يخلو من وجاهة ، وعلى هذه الحجة التى تسطع منها رائحة خبيثة من سوء النية :

ـ بالطبع لا .

وهو ما لا يفسر شـــيئا . لا ينفى ولا يثبت شيئا . ومع ذلك فالتفسير سهل وبسيط بل هو واضح الى حد الابتذال .

ان الاستعمار قد سلب المستعمرين تراثهم الثقافى كما اغتصب منهم اراضيهم . صادر ثرواتهم ســواء كانت عقارية ام ثقافية . واذا لم يستطع الاستعمار ان يقتل روحهم ـ فان الروح لا تموت ـ فلم يدخر وسعا فى أن يخفض نورها حتى تمسى ذبالة ضئيلة لكى يطفئها فى النهاية .

ان تطور عملية الاستعمار يسير على مقتضى منطق صارم ، هى عملية غرس جــديد . واذا كان المنتصر يطوى راية المغلوب لكى يرفع رايته فى محلها ، فانه على نفس النحو يهدم ، ويقاوم ، ويحظر كل ما كان فى الماضى ـ وكل مايمكن أن يكون ـ دليلا على فكره الأصيل وعلى مجموع مقوماته القومية ، أو اداة لهما .

ولكن الاسلام بقى ســـــاهرا فى ليل النظـــام الاستعمارى الحالك .

هناك ظاهرة لم يدرك الكثيرون أهميتها فى تفسير اليقظة القومية وكفاح التحرر السياسى : « الظـاهرة الدينية » . من الوقائع المسلم بها أن الثورة الجزائرية الراهنة ثورة دنيوية ، وليست بالثـــورة الدينية .

ولكن ليس مما يزيغ بهذه الثورة عن مصيرها فى شىء ان نقر للاسلام بدوره الكبير فى الحفاظ على القيم التقليدية وفى الدفاع عما كان من الممكن انقاذه .

كان دين القرآن ، وهو الوصى على اللغة والحارس القائم عليها ، قد وقع تحت تحكم الدولة المحتلة بل تحت حكمها وادارتها فعلا . واضطهد علمــاء الدين وشيوخه . ولولا فسحة من أجل لأوشك الشيخ بن باديس ، هذا الرجل الذى وقف موقفا عظيما من الدفاع عن الاسلام ، أن يموت فى غيابات السجون ، وان كان قد بارح السجن منذ قليل . على أن أحـــد مريديه ، وخلفه فى المعهد الذى يحمل اسمه فى قسنطينة ، احمد رضا حوحو ، قد قتل غيلة فى مذابح مارس ١٩٥٦ فى مدينة قسنطينة بالذات .

ومما له دلالته أن كنوزا معمارية مثل مســـاجد الجزائر ومساجد العاصمة القــديمة فى نميدى قد اغتصبت وامتهنت مقدساتها حرفيا ، واحيل بهــا عن غرضها الأصلى لتصبح كاتدرائيات أو معـابد لليهود .

واذ كان الاستعمار يهاجم الاسلام فلم يكن ذلك عن تعصب للدين بقدر ما كان عن فطنة للعواقب البعيدة، وعن حيلة فى تدبير الاستراتيجية السياسية . هنا تلتقى أحلام الـكاردينال دى لافيجرى والماريشال بيجو : المدفع والمحراث تطلب العــون من السيف والصليب .

فى ذلك مثال أولى على سعى الاستعمار الى محو الصبغة القومية والقضاء على الأصول التاريخية .

ومهما أفضنا فى القول فلن نفى حق الدور العظيم الذى قام به الاسلام والقائمون على خدمتـــه ، فى الجزائر ، طوال مائة وأربعـــة وعشرين عاما من الخسوف الاستعمارى ، فى خلال هذه الحقبة التى تقع وسط تاريخ الجزائر كالبقعة المظلمة ، هـــذه النكسة من الاختناق الثقـافى والسياسى التى تمتد بين ٥ يوليو ١٨٣٠ وفاتح نوفمبر ١٩٥٤ ، لن نفى حق هذا الدور العظيم فى الحفاظ على آخر ما بقى لوطنى السليب من خصائص ، وفى الدفاع عن أصالته النهائية ، وفى صيانة ما تمتاز به حياته اليومية من سمات لا يشاركه فيها غيره ، وفى الذود عن أصوله الثقافية الحقة ، وفى الابقاء أخيرا على ما بقى له من وحدته العضوية ، وانصبابه فى قالب متحد فى التعبير عن نفسه تعبيرا نابعا عن جبلته وبنيته : فى لغته .

ذلك ان المرء لا يرضع لبان اللغة من الأم وحدها ، ولا يتعلمهــا فقط فى داخل تلك الخليــة المعسرة الضيقة النطاق التى تتكون من عائلة هى بدورها غارقة فى غمار سياق عام أصابه الاملاق الذهنى وشاهت طبيعته الأصيلة وناله اضطراب الأصول واختــلاط الأنساب ، المرء يتعلم اللغــة ايضـــا فى المدرسة الابتدائية ، وفى المدرسة الثانوية ، وفى الجامعـــة . وهل بنـــا من حاجة الى ان نذكر عدد الأطفـــال

الجزائريين الذين لم يتلقوا العلم فى المدارس ، أو أن نذكر العدد العديد – وهو أدعى الى الروع والفزع – من أولئك الصبيان الذين وصلوا الى مستوى التعليم العالى . ان هناك ما هو أهم من ذلك واخطر ، وابعد ايغالا فى الغباء ، وانما مضمون التعليم نفسه ومناهجه هى موضع الاهتمام .

كان التعليم يجرى بالفرنسية ، منذ المدرسة الابتدائية ، مع حظر الاستعانة بالعربية ولو كان ذلك من قبيل التيسير على الطلاب من الناحية التربوية البحتة ، وفى السنة الثانية من المرحلة المتوسطة تمس موضوعات جغرافيا الجزائر وتاريخها مسا هينا ، وفى المدرسة الثانوية تدرس اللغة العربية ، ويتلقنها الطلبة ، باعتبارها لغة أجنبية . أما الموضوعات الأخرى كالعلوم والرياضيات .. الخ ، فتدرس بالفرنسية .

كانت لغة امهاتنا منفية فى بلادها نفسها . أما الصحافة ، والاذاعة ، والمحاضرات ، والأفلام ، والمسرح ، والاعلانات على الحيطان ، والأوراق الرسمية ابتداء من الحوالة البريدية الى البطاقة الشخصية ، كل ما هو مكتوب ، ابتداء من « ممنوع لصق الاعلانات » حتى لافتات الشوارع ، كل شيء ، كل شيء على وجه الاطلاق ، كان كل شيء اختصاصا وحكرا للغة الفرنسية وحدها .

ومنذ أمد غير بعيد كان ينبغى للمرء أن يشهد المدرسين الوافدين من بلدة ما فى « بواتو » أو « نورماندى » يصمون بالبلادة والغباء أطفالا جائعين الى العلم والعرفان بقدر جوعهم الى الغذاء من ثمار الأرض . ولست هنا ، بطبيعة الحال ، بصدد أن انحى باللائمة على طائفة المعلمين ، ولست بصدد اطلاق الأحكام اطلاقا عاما على نحو مثير . ولكن طائفة المعلمين هذه ، سواء عن ارادة أو عن غير عمد ، وايا كانت رسالتها التى تختص أصلا بالتزام الحرية واحترام القيم التى يدين بها الآخرون ، هذه الطائفة كانت فى الواقع جزءا من الجهاز الاستعمارى وان كانت تحد من مساوئه ، ومن ثم فقد كانت تسهم ، فى تكافل عضوى مع وكالات الاستعمار الأخرى ، فى تحقيق المساعى المؤتلفة التى تهدف الى محو الصبغة القومية ، والقضاء على الأصول الحضارية – وهو علة هذه الظاهرة الاستعمارية وسبب وجودها .

هذا العبث الميكافيللى كان يستحيل سخفا مطلقا ، ويصبح مناهضا للمناهج التربوية . لم يكن يكفيهم ان يعلمونا أن آباءنا من أبناء الغال ، أو أن السين كان أجمل أنهار بلادنا ، بل كانوا يلقنون الأطفال ذلك بلغة كانوا يكفون عن اتخاذها بمجرد أن يتركوا المدرسة . ولذلك اضطروا ، فى برامج التعليم الابتدائى ، الى ادخال « دروس اللغة » ، بجانب دروس مفردات اللغة ، يلقنونها للاطفال المسلمين الصغار ، وكان فى ذلك الاعتراف الرسمى الضمنى بغربة اللغة الفرنسية فى الجزائر . وما كانت المفارقة لتكون أعظم ، لو أن الأطفال الصغار فى « التورين » تعلموا فى المدارس ، بلغة محمد ، أن الأمير عبد القادر هو بطل استقلال فرنسا ، بينما ظلوا على جهلهم بجان دارك . وكانت نتيجة هذه السخافات المضحكة الغريبة أن تولدت رطانة تعرف باسم « السابير » وهى الرطانة التى يتفكه بها أبناء الأجناس الراقية عندما يتحرقون شوقا الى ما هو شرقى باذخ الطعم حريف النكهة . وآخر الاسطوانات التى ذاعت شهرتها ، أغنية « يا مصطفى » مثال لهذا الاسفاف اللغوى المشين .

ومن ثم فالأصفار تبدأ الدوران فى حلقة مفرغة ، منذ أن تخطو خطواتها فى المدرسة الابتدائية ، منذ أن تقيم أولى صلاتها بمغمغة الحياة الثقافية ، منذ نعومة أظفارها ، فى بكرة نشأتها ، تدور فى حلقة خبيثة هى أخطر أنماط التعمية والاغتصاب التى عرفها التاريخ : الاستعمار .

بعض هؤلاء التلاميذ أصبحوا كتابا . وانما أريد أن اتكلم عنهم ، بوجه أخص ، لا لكى أفرق بينهم وبين غيرهم من ضحايا نزوات الاستعمار ومكائده ، بل لأن المشكلات التى يلاقونها فى عملهم ، فى أدائهم لمهنتهم ، هى المشكلات التى الاقيها ، لأن التاريخ قد وضعنا امام نفس المآسى بعينها ، ونفس المسئوليات . ولكننى أولا ، احب ان اجلو كل لبس : فليس فى نيتى بأى حال ان انصب ميزان المحاكمة للغة الفرنسية ، من بعيد أو من قريب ، على نحو مباشر أو غير مباشر .

ذلك أننى اتكلم بالرغم من كل شيء ، ويجب أن اتكلم . لو كنت أعرف اللغة الصينية لاستخدمت اللغة الصينية . المفارقة تنفجر فى ذروتها : لغة المستعمر اصبحت وسيلة فعالة للتحرر من أيدى المستعمر . وتعالت صيحات عقوق الجميل ونكران يد النعمة . فلندع الصيحات ترتفع . أجمل تكريم يسعنا أن نزجيه الى اللغة الفرنسية هو احترام ضيافتها ، بالقدر الكافى ، حتى لو كانت ضيافة

مفروضة ، وذلك سعيا منا الى اللحاق بمستوى من قاموا بخدمة هذه اللغة ، وهم فى الغالب قد قاموا ويقومون بخدمة المثل الانسانية الكبرى — او على الأقل سعيا منا الى ان نكون جديرين بهم . كان من الممكن ان يصبح « برنانوس » أو « بيجى » من أصدقائى ، لو كانا على قيد الحياة ، فقد كان من شأنهما ان يدورا فى حلقة مفرغة ، لو أن استعمارا — عربيا على سبيل المثال ! — اضطرهما الى التعبير عن نفسهما بلغة أجنبية غير اللغة التى رضعا لبانها.

فى كل يا نصيب عام ارقام تقترب من الربح. ونحن الكتاب الجزائريين ، نحن أصحاب هذه الأرقام . واكرر هنا ان جدى لم يقرأ لى شيئا قط ، ولم يقرأ شيئا لمحمد ديب ، ولا لكاتب ياسين ، ولا لهنرى كريا ولا لغيرهم من أولئك الصداحين بنبرة صافية ، أولئك الصداحين بملء قلوبهم ، أولئك الذين لاجدال فى موهبتهم ، أولئك الذين يحملنى صدق طويتهم وجرأتهم على أن أصطلى بدفء نار كبيرة هى نار الرضاعين النفس .

اننى أحيى فصاحة كل هؤلاء المخرسين .! أحيى أولئك الذين اختلطت انسابهم ، أولئك الأمراء أبناء السفاح .. أحيى ما ينهضون به ، وافهم صمم الصم . اننى عاجز أن أقول بالعربية ما أحسه بالعربية .

هؤلاء هم الشواذ ..! ولما كان الاستعمار من امراض التاريخ ، فليس من الغريب فى شئ أن نتائجه، سواء كانت سلبية أم متفاعلة ، تندرج فى نطاق مرضى . اننى على يقين أن الكتاب الجزائريين سوف ينشدون أغانيهم بلغتهم ، اللغة العربية ، فيزيدون لغة الآخرين ثراء .الوحدة فى السيمفونية الجزائرية لن تتأتى عن كلمات هذه السيمفونية بل عن الموسيقى الاجماعية فيها . وفى مثل هذا الكورس لن يكون أبدا ثم حشو من أصوات تفضل عن الحاجة مهما زاد عددها . اما أولئك الذين يستشعرون القلق فأقول لهم : الجزائر لا تنوى قط أن تستعمر فرنسا ، ومن ثم فلست ارى لماذا ، وكيف ، يمكن أن تهدد اللغة العربية اللغة الفرنسية فى شيء ، أو تهدد الطاقات الثقافية الفرنسية بصفة عامة . ومن ناحية أخرى فان الأعوام المائة والأربعة والعشرين التى تعايشت اللغتان طوالهما قد خلقت روابط لا تنكر ، هذا الى أن وجود اقلية أوربية لها وزنها سيكون من شأنه ضرورة حل مسائل ثنائية اللغة . الا أن ذلك سيتخذ شكل ايجاد الوسائل العملية ولن يكون بحال من الأحوال مشكلة من شأنها أن تثير المخاوف عند الكتلتين العنصريتين .

ذلك أنه من الجلى أن الجزائر الجديدة لن تضم مجتمعين متباينين ، بل مجتمعا واحدا ، هو المجتمع الجزائرى الواحد الذى لا يقبل الانقسام سواء كانت عناصره تتكلم العربية او تتكلم الفرنسية .

وفى هذا الصدد تتصف التجارب المسرحية التى يقوم بها مصطفى كاتب بجراة عظيمة الثراء فى مقدرتها على ان تعلمنا الكثير . هذا الفنان العظيم الذى يقول: « لقد قاومنا بيجو لكننا لم نقاوم موليير » ثم يستطرد : «موليير يلقى — فى الجزائر أعظم التقدير . فى هذا تناقض رائع مع العصر ... ذلك أن الرجل الذى دعم أولى خطوات المسرح الفرنسى وقاده الى النضوج ، قد استعاد شبابه فى مجتمع لا يختلف اطلاقا عن ذلك المجتمع الذى انكر على موليير تكريما تافها فى جوهره بأن انكر عليه تشييع جنازته فى موكب رسمى . ليس موليير بالأجنبى عند الشعب الجزائرى ، ولا صلة بين موليير وبين الدولة المستعمرة ، بل هو ينقل الينا ، على العكس ، خبرته الأليمة بما لقى من اضطهاد ويعلمنا أن العدو الأول هو العدو الداخلى : هم السادة والاقطاعيون الذين عرف موليير كيف يميط اللثام عنهم فى فرنسا ، وهم الذين فتحوا أذرعهم للغزاة فى الجزائر .. »

وثم فكرة أخرى لمصطفى كاتب : « لا يمكن ادماج شعب بأسره فى شعب آخر ، ولكن الشعب الجزائرى قد أدمج موليير فى ذاته »

ثم تند عنه بعد ذلك هذه الصرخة التى تهز القلب : « ان البلاد سوف تعرف يوما مدى الدين الذى يطوق عنقها لحفنة من الذين طوحت بهم العاصفة الى اليم ، فتشبثوا بحطام التعليم التقليدى القديم ، وبمدرسة القرآن ، أولئك الذين لم يقبلوا اليأس فمضوا يواصلون تدريس لغتهم الأم فى جامعتى « القرويين » و « الزيتونه » العتيقتين ، وأولئك الذين مضوا فى جراة أبعد مدى حتى القاهرة » .

ان الشعب الجزائرى اذ يخوض عملية التخلص من الاستعمار ، وهى عملية لا ردة فيها ولا نكوص عنها ، يكافح عن حقه فى الحرية ، والحرية اذ نهبط بها من بين سحبها الميتافيزيقية ، تعنى عند الشعب الجزائرى حقه فى وجوده الذاتى ، واللغة العربية احد المظاهر التى يتبدى فيها هذا الوجود الأصيل .

وسواء أريد ذلك بالجزائر أم لم يرد، وسواء سلم بذلك للجزائر أم لم يسلم به ، فان الجزائر ، في أغلبيتها العظمى ، تتكلم العربية . والاعتراف باللغة العربية لغة قومية لن يهدد اللغة الفرنسية بخطر ما ، ولن يعرضها لصعوبة ما ، فان الفرنسية ، سواء أردنا ذلك أم لم نرد ، وسواء سلمنا بذلك أم لم نسلم به ، قد أصبحت جزءا من ممتلكاتنا القومية .

في ذات يوم روى لي جابرييل أوديسيو احدى عباراته التي تفصح عن رأيه : « ان اللغة الفرنسية هي وطني » . وأذكر انني أجبته .

ــ اللغة الفرنسية هي منفاي ..

انا احترم وأفهم هذا التعريف الذي يضعه جابرييل أوديسيو . وذلك على الأخص لأن كاتبا من جيله ، وقد فاجأه التاريخ وزلزله ، يستطيع ان يلوذ بهذا الوطن الذي يتعدى القوميات ، طلبا لتجنب التمزق والعذاب ، هذا الوطن الذي قد تكون حدوده الجغرافية ومضمونه التاريخي هي حدود شواطيء البحر الأبيض المتوسط . اما أنا شخصيا ، فان شوقا واحدا يهيب بقلبي وقلمي ، هو الشوق الى اللغة التي يتكلمها الناس في ذلك المكان الذي اسميه ، بعناد حزين : « شارع العرب » .

ان وطني هو الجزائر ، جزائر الغد، حينما يقول المرء انه جزائري ، فلا يقع تحت طائلة القانون بحجة الاخلال بالأمن . أمن دولة احترمها ، وأتمنى أن تكن لي الود ، وأصغو اليها من جانبي بالود . ولكنها دولة لا أعترف بأنها دولتي أو أن لها على حقوقا .. ان وطني هو الجزائر . والحب الذي أكنه لوطني ، لايتهدد ريف الموزيل أو سماء اللوار بخطر ما ، وانما اقصد الجزائر في الغد ، واقصد قبل كل شيء الجزائر اليوم ، سامقة في غضبتها وفي تضحياتها ، الجزائر اليوم ، تلك التي أعادت من جديد كتابة كلمة « الانسان » . ولكن الأمر ، في المحل الأول ، يتعلق بالجزائر الأمس ، الجزائر قبل ان يحط الغزاة بأرضها في « سيدي فروج » هذه الجزائر التي لم تكن تعرف بعد أن آباءنا كانوا من بلاد الغال ..

وانني لأشرف بأن أكون محافظا . ولا أحلم ببلد قد تحرر لكي يصبح نسخة طبق الأصل من البلد التي كانت تحبسه في ظلها وتقضي عليه بأن يحيا على هامش الحياة محروما من بنيانه ، ومن تقاليده ومن طريقته في الايمان بالله ، ومما اختط لنفسه من طرائق بازاء القضايا الكبرى الخالدة .

وان الاستعمار ليصبح هو الرابح ، لو حدث لسوء الحظ ــ واكرر لسوء الحظ ــ أن تم الشبه بين المغلوب والمنتصر ، ونبذ المغلوب جوهر شخصيته التاريخية والجغرافية . الطليعة عندي هي العودة الى الماضي . وأطلب من المحامين الفاشلين أن يوفروا على دعواهم الفاسدة ، فلايأتني احد بالحديث عن حجاب المرأة العربية ــ بغض النظر عن انني أرى جمالا رائعا في هذه الزينة ــ أو بالحديث عن سفاسف اخرى خليقة بأن تنتهي الى الخلط بين التحرر من ناحية واتباع طرائق الغرب من ناحية اخرى ، بالتزام معيار واحد لهذه الطرائق هو التمسك بالقيم الغربية المخالفة عن قيمنا التقليدية . وليس مدار الأمر هنا ، كما هو واضح اقامة التعارض بين حضارتين بل هو بكل بساطة ، احترام شخصية كل من الحضارتين .

انني منفي في اللغة الفرنسية ، ولكن بعض المنفى قد لا يخلو من فائدة . وانا اشكر لهذه اللغة، خالص الشكر ، ان اتاحت لي أن أخدم ، أو احاول ان أخدم بلدي الحبيب .

وعندما يستقر السلام والحرية في وطني، سوف أقول يومها ، بمثل مالا اكف عن قوله اليوم ، ان حبي لجبال الأوراس في الجزائر لايتناقض مع العاطفة التي اكنها لجبال فيركور في فرنسا . ليس ثم شقة كبيرة بين جان دارك والكاهنة ، بين الكولونيل فابيان والكولونيل عمروش ، بين جان مولان وبين مهيدي ، بين بول ايلوار وكاتب ياسين .

لكن كل الظروف مهيأة لنا ، نحن الكتاب الجزائريين ، لكي نعبر عن فلسفة انسانية حقة ، باللغة العربية ، وعلى الرغم من هذا العي في اللغة ، أو من جرائه ، هذا العي الذي ندين به للاستعمار ، فاننا نضع هذا السؤال : من هم « الكتاب الجزائريون » ؟

في تحقيق قام به اندريه ماريسيل في صحيفة « نوفيل ليتربر » وهو تحقيق لم ينشر منه الا جزء واحد في هذه الصحيفة التي كانت ، لاشك ، تخشى الحقائق الخشنة القاسية ، أجاب على السؤال كتاب جزائريون ينتمون الى أصول متباينة والى

آفاق سياسية متغايرة . ومما يؤسف له ان الاجابات لم تنشر كاملة ، وان أمرا قد صدر باقتطاع اجزاء واضحة للعيان ، من هذه الاجابات .

كان السؤال الأول ، وهو ادعى الأسئلة الى الاهتمام ، على الأقل فيما يختص بموضوع هذه التأملات ، هو السؤال التالى :

ــ عندما يتعلق الامر بمسألة الكتاب الجزائريين يشار فى العادة الى الكتاب الذين ولدوا فى الجزائر وينتمون الى أصل أوربى ، والى الكتاب المسلمين العرب أو القبائليين . فهل ترى أن هذا التعبير ، «الكتاب الجزائريين» لاينطوى على لبس ؟

واجمع كل الكتاب الذين وجه اليهم السؤال ، تقريبا ، فى اجاباتهم التى نشرت أو فيما ظهر منها ، على الاقرار بأنهم ينتمون الى فئة ادبية متميزة .. كأنما ينتمون الى عائلة لاتجسر على تسمية نفسها باسمها كاملا . ويبدو انهم عمدوا الى اللواذ بالتعميمات . فاذا نقب المرء تحت الكلمات ، وراح يفحص عنها ، استطاع أن يجد مايمت بالشبه الى التحوط والحرج .

« اللبس فى عبارة (الكاتب الجزائرى) انما هو أمر قريب العهد . وقد ظهر بازاء الأخطار والأحقاد التى نمر بها . ولكن عندما كان السلام مستقرا ــ وكان السلام أمرا طيبا لاغبار عليه ــ فلم يكن هناك لبس »

يبدو من ثم أن الثورة الجزائرية ــ وهى التى يطلق عليها ، على استحياء ، اسم «الاحداث» ــ هى التى جاءت فى رأى رينيه كلو ، تعقد كل شىء وتثير مشاكل لم يكن لها وجود قبل ١٩٥٤ . اما انا فلست اذكر شيئا عن سلام « طيب لاغبار عليه » ويبدو أن كاتب « سواد الكرمة » قد نسى أنه عندما كان السلام « مستقرا » كان يوجد بالفعل كتاب جزائريون يدينون البلايا التى حطت بالبلاد .. ويتقاسمون مع شعب بأسره آلامه وأمانيه . هنا ايضا تغدو الحقائق السياسية امرا يخيف البعض ويفزعهم ، فيمرون بها ويدورون حولها ، دون تحليل عميق .

أما جول روى فيفصح عن ذات نفسه : « ان مايطمح اليه كاتب جزائرى ليس هو مطمح كاتب من بيرى أو سيفين ، وانما هو ينزع الى العالمية ، وتباين الاصول دليل على الثراء الروحى للجزائر ، تلك العائلة الكبيرة التى ينتمى اليها اعضاء عديدون ، وتضرب شجرة انسابها طبقات من الارض ، ومن الثقافات ، تتباين أشد التباين ، ولكن اغصانها وفروعها ترتفع نحو نور واحد بعينه ، وحساسية واحدة ، وحب واحد للعدالة والحرية » .

قلنا فى غير هذا المجال ان كتاب «حرب الجزائر» هو اكثر من شهادة كاتب مخلص وموهوب ، انها صرخة انسان ممزق ، كأنما يهتف : انا المذنب الآثم . ويلوح ان جول روى يعتذر عن نفسه ، خلال الصفحات الطوال ، أمام ضميره ، وأمام الجزائريين وأمام قرائه الفرنسيين الذين كتب لهم هذا الكتاب .. يعتذر لأنه قضى تلك الفترة من الزمن كلها فى سبيل أن يفهم ، وأن يرى ، وأن يتكلم . ولكننا نأسف اذ نجد فى تعريفه للكاتب الجزائرى شيئا من التميع ، ونحن نعتقد اننا نمثل ، على الاصح ، روح وطن يعانى ويتألم ويكافح ، لا « عائلة ينتمى اليها أعضاء عديدون » . أعرف ماذا يمكن أن تحتوى عليه الكلمات مما يخيف ويفزع ، وأعرف كم من السهل أن ننزل بمشكلة ما ، بكل تعقيدها ، الى مجرد خطوط عامة لايندرج تحتها الا هذا العنصر او ذاك . ولكن الانضواء الى جماعة ما ، يقاس فى الساعات الفاصلة فى التاريخ ، بالانخراط دون تحفظ ودون اسف ، فى الكفاح السياسى ، والعسكرى الذى تخوضه هذه الجماعة .

أما جان بيلجرى فانه يقف من المسألة على البعد الذى يقفه منها المؤرخ لا الروائى :

ــ « .. مما يسترعى الاهتمام فى الواقع أن نرى كل أولئك الكتاب ــ حتى أوثقهم اتصالا بأوروبا ــ يقولون عن الجزائر « بلادى » دون أن ينتبهوا لذلك فى أغلب الأحيان ، يقولونها كما يقول المرء « وطنى » ــ وطن لاقرين له فى الأوطان ، اذ يتكون من شعوب عدة يقرب بينها التاريخ ويفرق بينها فى الوقت نفسه ولكنه يتلمس الوحدة من خلال محنة طويلة المدى» .

يتضح من هذه الكلمات أن صاحب رواية « زيتونات العدالة » يدهشه ان يقول الكاتب عن بلاده « وطنى » . وفى حالات كثيرة لا يفتقر المرء الى الوطن بقدر مايفتقر الى الاحساس الوطنى .. ولست أرى لماذا تكون الجزائر ، اكثر من غيرها ، وطنا « لا قرين له » ذلك أن كل عمليات التكوين القومى لاتكاد تختلف فى شىء عن بعضها البعض .

ــ « الجزائر عقار أسود وأبيض ، يقتل ويحيى ، انها البلاد الشيطانية والعذرية ، وكل الذين

يعتمدون عليها يحسون بالتواطؤ بينهم فلا يسعهم الا الاحساس بأنهم قد بلغوا هذه الأخوة السودية الحزينة التي تتقاسم الاثم ، هذه الاخوة التي تربط بين عشاق أذكياء يهيمون حبابعشيقة واحدة،خارقة الجمال وبالغة الغباء ، هم جميعا قد تدلهوا بها ، ومهما فعلوا فان هذا الحب يربط لمة خطاب ودها جميعا بعربة واحدة بعينها » .

أرى في ذلك ، يا عزيزي روجيه كوريل ، طاقتك الهائلة في الحاجة الى الحياة ، ولكنك ستأذن لي — وفي هذا من النقد اقل مما فيه من عادة الفتها في التأثر وفي الحياء — ستأذن لي أن يكون لي رأيي في ان الجزائر ، جزائرنا ، جزائري ، جزائرك ، ليست عشيقتنا المشتركة .. فليس في العائلة عشق بالمحارم ، ولكنها امنا جميعا .

اذكر ذلك المساء ، عندما قلت لي ونحن نصعد من جديد ، شارع الشانزليزيه :

— عندما يستتب السلام ، سأطلب أن اكون مواطنا جزائريا. أما حلمي ، فأن أعيش في «رليزان» .

ومع ذلك فقد كنت تنظر الى سماء باريس كما ينظر العشاق ، والى الكونكورد الباذخ ، والى اجمل جادة في العالم . وكان لكلماتك رنين الصدق .. لم تكن تذكرني في شيء بأولئك الأطفال الذين افترق آباؤهم بالطلاق اذ يختارون ، عند بلوغ سن الادراك بين الحياة مع احد ابويهم أو مع الآخر .

ولكن هنرى كريا لم يكن يتحرى كلماته ، بل قالها صريحة مباشرة :

— « ان تعبير «الكاتب الجزائري» في رأيي ورأى كتاب جيل ١٩٥٤ يعني في المطلق ان المرء قد اختار الجزائر وطنا ، أيا كان أصله من حيث العرق والسلالة ، أيا كان ولاؤه الديني أو الفلسفي » .

هذه الصيغة تضع المشكلة في أبعادها الصحيحة وتحدد الحل على نحو يثير الاعجاب .

* * *

من الواضح ان عبارة «الكاتب الجزائري» كانت تقتضي هذه الدقة في التحديد ، حتى تتطهر من كل شوائب اللبس والغموض .

ان الواقع الجزائري يبلغ من الغنى والاصالة مبلغا يضطرنا الى التردد امام الكلمات ، والى انكار الثقة على صيغ أو عبارات قد تكون جذابة مغرية ، وان كان ذلك لايقلل من خطورتها . ولكننا ، من ناحية أخرى ، نعرف جميعا ما في التصنيف والتفريع من اعتساف للأمور . ويلوح لي هنا أن البحث عن معيار نقيس به الأوضاع أمر ادق في التعبير اكثر منه استعصاء عليه . فليست المسألة ان نرتب الأوضاع مراتب بعضها يعلو البعض ، وأن نقيم الفواصل والامتيازات بين أبناء وطن واحد هم في الغد ، وفي الغد القريب ، مواطنون في دولة واحدة .

عندما يقول شاعر مثل سيناك : « انني أحس نفسي جزائريا مثل بن بيللا تماما » فلست أرى في ذلك سعيا الى عقد المقارنات السياسية ، أو تقييم الجدارة السياسية — فليس كل الناس بقادرين على أن يكونوا بن بيللا — بل اسمع فيه ، على العكس صرخة صادرة من الأحشاء ، وارى فيه اختيارا لرجل غير ممزق الولاء ، هو جزائري من اصل أوربي قد اجتاز ، في رحلته ، رأس التردد والحيرة .

ليس التوفيق بالأمر المستحيل ، وليس ثم من دراما مثل درامات كورني .

ولنتحدث عن كامي ..

كامي هو نموذج يمثل المثقف الجزائري الذي ينشق على ذاته ، حتى يتفادى ما يظنه انفصاما ، فلا يختار أن ينضوي تحت علامة الاستفهام بل هو لايختار عزاء روحيا ،ولكنه يختار التسويف وتعليق الأمور الى اجل غير محدود ، لم تكن الميتافيزيقا ، ولا الاخلاق ، تحظران عليه أن يؤكد ذاته ، فلم يكن ثم صراع بين الحب والعقل ، ذلك انه ليس مما يندرج تحت خيانة فرنسا ، ولا هجران فرنسا ، أن يكون للمرء اختيار ذاته في غير ما لبس ولا ابهام.. لا تروعنا الكلمات : لكي يختار المرء ، عليه أن يعرف ذاته ، أن يعرف أنه شيء ما . واذا كنت أذكر أنني قد كتبت : « **الانسان هو وطني** » ، فانني أرفض على نفسي أن أضع هذا «الانسان» المجرد موضع النظر الجاد ، هذا « الانسان » التصوري ،هذا «الانسان» الذي يرتاح المرء اليه أكثر مما ينبغي له أن يرتاح ، طالما كنا نرفض أن نأخذ على عاتقنا تلك المشكلة الفاجعة التي تعالج تعريف ذاته ، والسياق الذي يدور في مصيره . واعرف عددا من الكتاب الجزائريين الذين يقولون عن أنفسهم انهم جزائريون، لكنهم قد اصطنعوا لأنفسهم ، بكل بساطة ، فكرة ما عن الجزائر . لسنا هنا بصدد الحديث عن شقاء شعب ، وانما يجب أولا أن يوحد المرء بين ذاته وبين

آمال هذا الشعب ، وان يعادى أعداءه . وذلك يعود بنا الى القول بأنه يجب أولا أن يعرف المرء شعبه فى المحل الأول ، وان يشارك فى حياته كلها .

وقد احس مالك أوارى بذلك كل الاحساس ،ولا أعتقد ان فى كلامه مايسوغ الراى القائل بأن فيه تفرقة عنصرية :

ـ « كان من الصعب جدا ، دائما ، ان نجد الحد الدقيق لتعريف سكان الجزائر غير الاوربيين .. ان هناك فى رأيى مايدعو لاقامة تفرقة فاصلة بين الكتاب الأوربيين » وغيرهم . والكتاب الأوربيون »فى الواقع لايعرفون شيئا عن البيئات غير الأوربية ، فليس فى مقدورهم قط ان يترجموا عن الهموم والأمانى التى تجيش بها ، أما الكتاب غير الأوربيين ، فهم على العكس قد عاشوا ويعيشون فى هذه البيئة ، بل هم يعرفون مشاكلها حق المعرفة ، ولو لم يكن ذلك الا من خلال انفسهم . ومن ثم ففى مقدورهم ان يجعلوا من أنفسهم شراحا لمجتمعهم ومترجمين عنه » .

اننى أشاطر مالك أوارى رأيه ، بكل حذافيره ،الا فيما يتعلق بلفظ يستخدمه : « الأمانى » فاذا كان من الحق أن الكاتب ، سواء كان جزائريا أم غير جزائرى ، لا يستطيع الكلام الا عما يعرف » فانه من الحق أيضا أن الكتاب الجزائريين غير الأوربيين يستطيعون المشاركة فى المثل السياسى الأعلى الذى تجيش به بلادهم . وانه لمن جدارة كتاب مثل جاك سيناك ، وهنرى كريا ، أنهم منذ بداية حرب التحرير قد سلكوا سلوك الكتاب الجزائريين الوطنيين .. وانما نحن نأسف لأن عددهم لم يكن أكبر مما كان بالفعل .

وعلى العكس من ذلك ، سكتت اصوات لها شرفها .. اصوات لها قيمتها » اصوات مسموعة ، سكتت عن اختيار وارادة : كامى ، روبليس ، أوديسيو .. وحتى عهد قريب جول روى . لست أنصب من نفسى قاضيا ، وليس من مؤهلاتى أن أتصدى للقضاء . ولكننى اعرف بالخبرة الشخصية أن القراء الجزائريين يتطلبون الكثير جدا ، وانهم فى اللحظة الفاصلة من تاريخ بلادهم يرون أن كل كاتب يعتبر نفسه جزائريا مجندا فى خدمة وطنه .

سكتت أصوات كبيرة . واننى لأشهد ذلك بحزن كبير » واذا كنت احس من ذلك بمرارة ، فهى مرارة خالصة خلو من كل حقد وكل حنق . ان التاريخ يعلمنا التواضع ، ومن شأنه فى الوقت نفسه أن يعلمنا الحكمة والحيطة ، وان نكون ارهف تقديرا والطف حسا فى أحكامنا واقضيتنا بالادانة ، ذلك اذا لم يعلمنا التسامح . وعندما يلتزم المرء جادة الأمانة الحقة فانه يستطيع ان يقول مع فيركور ، فى «صمت البحر» : « سعداء أولئك الذين يعرفون صوت واجبهم فى يقين واضح بسيط » .

ذلك عندما يلتزم المرء جادة الأمانة » ويتجاوز ، الى بعيد ، حدود ذلك « الحرص التعس » الذى يتكلم عنه جان بول سارتر العظيم ..

سكتت أصوات ..

أصبحت الجزائر ، عند هؤلاء الكتاب ، مصدرا لالهام لا سياسى ولا انسانى فى نهاية الأمر ،أصبحت الجزائر عندهم مجرد ديكور محبب » ديكور مختار، لكنها ليست تلك « الأرض الجسدية » التى يتكلم عنها بيجى والتى تهز الجبال وتكسب الملحمة معنى.

أصبحت الجزائر عند هؤلاء الكتاب مجرد ظاهرة ادبية ، ووطنا ذهنيا .

ان الكتاب الأخير الذى كتبه جول روى ، وهو كتاب نبيل ومخلص ، له عندنا نحن الجزائريين قيمة الاعتراف أكثر مما له من قيمة الشهادة ، ولكن كاتبه قال بنفسه انه يخاطب به الفرنسى المتوسط العادى . على ان نجاحه الهائل فى السوق خليق بأن يثبت ، على العكس ، الى أى مدى يبلغ افتقار هذا الفرنسى المتوسط الى المعلومات الصحيحة ، والى أى مدى يبلغ زيغ معلوماته عن الصدق ، والى اى مدى تصل رغبته فى تقويم معلوماته على شرط ان يزوده بالمعلومات الصحيحة كاتب لاينــدرج تحت البطاقات السياسية المميزة . ان كتاب « حرب الجزائر » فى رأيى اعتراف بالذنب من شاعر طاهر شجاع . وللمرء ان يتساءل ، بحزن كبير ، لماذا تأخر رجال على هذا القدر من الذكاء والخير ، كل هذا الوقت ، فى الكلام . والاجابة بسيطة : لم يكونوا يؤمنون بالجزائر أمة ، أمتهم »أمة تخضعهم لواجبات لايملك الكاتب ان يتفاداها دون أن يعزل نفسه عن هذا الكل . لم يكن كامى مخدوعا فى ذلك عندما كتب « قد حان الوقت لأن ينضم كل امرىء الى الجماعة التى ينتمى اليها » . والتاريخ ، فى الحق » قد سبقهم ، وأزاحهم عما استقروا عليه من عادات .. لقد كانوا ، عن وعى أو غير معرفة ، منتفعين بالنظام الاستعمارى » وأصبحوا ،عن وعى أو عن غير معرفة

وعلى درجات متفاوتة بلا شك،متشيعين للاستعمار ان لم يكونوا استعماريين بالفعل . وهو مايخلصبنا الى القول بأن الجزائريين من أصل عربى - بربرى، فى غالبيتهم الساحقة ، هم وحدهم الذين عاشـــوا حياة وطنهم وقد سقط تحتالسيطرة الاستعمارية .. أما الآخرون فهم اما أن يكونوا فرنسيين » ولا يحق للمرء أن يلومهم على ذلك فى شىء على شرط الا يلعبوا على حبلين ، وأن ينضموا نهائيا الىالجماعة التى ينتمون اليها ، او ان يكونوا متفرنسين ، او قد زالت عنهم الخصائص الجزائرية . وأكرر اننى أرى فاجعة فى أن تمر أعوام ستة من الحرب ويســـقط مئات الآلاف من القتلى ، قبل أن يستقر عزم كاتب مثل جول روى على ان يرى وان يتكلم ، بعد انيأخذ فى حوار من وراء القبر اذ يكمل الطريق الذى توقف فيه كامى .

اننى من أولئك الذين يعتقدون أنه لاتوجـــد فى الجزائر مشاكل الأقليات ، مشاكل فاجعـــة أو مستعصية على الحل . ففى الجزائر جزائريون ، او على الأصح فيها الجزائريون ، وغيرهم . وعلى عكس مايقول المثل القديم عندنا : ليس من يذهب هو خير الناس . ان الجزائر الوطن الأم ليست زوجة أب . والجزائر تحس أكبر الاحساس بذلك الشعورالقبلى الذى كان يسود العشيرة السلفية ، فلا يمكن ان تعد من أبنائها فريقين : أبناء الأصل وأبناء السفاح ، بل تعدهم جميعا من أبناء العشيرة الواحدة ، على قدر سواء .

وعبارة « الكاتب الجزائرى » فى نهاية الأمـــر لاتنطوى على لبس الا فى حدود المدى الذى لاينعقد فيه الاتفاق على فهم مضمون كلمة « الجـــزائرى » نفسها ، وعلى تكييف خصائص الجزائريين .

والكاتب نتاج للتاريخ اكثر منه نتاجا للاعتبارات الجغرافية . فالجغرافيا أمرعرضى أما التاريخفليس عرضيا . واعتقد ان كل هذا الغموض ، وهذاالقلق، فى البحث عن تعريف، للكاتب الجزائرى ، انما ينبع من مأساة : اللغة . وهى المأساة التى تتـــأتى عن تعبيرنا عن انفسنا ، فى كتاباتنا ، باللغة الفرنسية .

ومن ثم ، ولأننى أحترم هؤلاء الكتاب ،فاننىأقول ان ثم بعدا شاسعا بين جابرييل أوديسيو وعمروش .. بين روبليس ومحمد ديب .. بين جـــول روى ومحمد ديب .. وبين روجيه كوريل وآية جعفر .. على رغم انهم جميعا يكتبون الفرنسية .

ليس كل من يريد أن يكون جزائريا يبلغ انيكونه تماما . ونحن الكتاب الذين ننتمى الى أصل عربى - بربرى قد انتهى بنا الأمر الى أن نغنى بلغة رائعة ، لكنها ليست لغتنا الأم من الناحية التاريخية . ان الذى يفرق بين الكتاب العرب البربر والـــكتاب الجزائريين الآخرين ليس اهتماماتهم السياسية - وهى أقدم وأشد احتداما - بقدر حنينهم الى لغة أم فطمنا عنها واصبحنا اليتامى منها ، لا عزاء لنا عنها .

ولا يوجد بيننا وبين الكتاب الجزائريين من أصل أوربى الذين اختاروا الجزائر وطنا الا المستقبـــل المشترك ، وليس ذلك بالقليل .

ان سمة الاسلام التى لاتمحى تميزنا ، لـــكنها لاينبغى أن تفصلنا عن بعضنا البعض ، نحن نختص بفولكلورنا ، بطرائقنا فى التفكير والاحســـاس ، وفى العمل . ونحن ، حتى عندما نعبر عن انفســــنا بالفرنسية ، ننقل الحلم ، والغضب ، والشــكاة النابعة عن أحقاب وأحقاب من تاريخنا القومى .. ولا يقولن أحد ، على الاخص ، ان الجزائر لم تكن أمة قط ، او ماهو أسوأ ، انها لم تكن حتىالسنوات القليلة الأخيرة ، وفقا للعبارة الغريبة التى تقدم بها أحد الماركسيين هو موريس توريز : « الا أمـــة فى طريق التكوين .. » .

ان الغرب قد نصب نفسهنموذجا ومثالا ، ومزقه تمركزه حول ذاته واتجاهه الى ان يضفى خصائص الانسانية فى شمولها وعمومها على مايقوم به وحده ؛ وحفزته شهوته المريضة الى اسقاط رغباته عـــلى الواقع ، ودفعته نزعته الى فرض رعايتـــه الأبوية الكهلة فرضا بقوة الانتصار ، فلم يســـلم قط بأنه يمكن ان توجد اشكال اخرى للدولة وسمات قومية اخرى تدل على وجودها الا تلك التى يعرفهــــا الغرب . بل احتكر الغرب لنفســـــه الفلسفـــة الانسانية .

والواقع أن الجزائر بعد أن غلبت على أمرها بقوة السلاح راحت تتحلل ، على نحو ما ارتضاه لهـــا الغالبون الذين استبدلوا مقوماتها ورايتها ولغتهـــا القومية بغيرها .

وهناك من الوثائق الأصلية الرسمية ماهو خليق بأن يؤكد وجود دولة جزائرية قبل ١٨٣٠ عـــلى الصعيد الداخلى والصعيد الدولى سواء . وعـــلى

فقهائنا القانونيين ان يبرهنوا علـى ذلك بالأدلة الدقيقة القاطعة وان يثبتوا الوقائع اثباتا نهـائيا فاصلا .

على ان الأمر الجدير بالتسجيل ، قبل كل شىء ، هو ان الكتاب الجزائريين المنتمين الى أصل عربي ـ بربرى ، حتى وان كانوا يعبرون عن انفسهم بالفرنسية ، يترجمون اليها فكرا جزائريا فى خصائصه الاصيلة ، وهذا الفكر من طبيعته ان يتخذ أكمل تعبير لو كانت اداته هى اللغة العربية والكتابة العربية .

استطيع ان اقيم خمسين عاما فى اقليم البروفانس هذا الذى احبه وافهمه ، البروفانس الذى استوحيت منه الكثير من كتبى ، ولكننى لا اصبح بذلك شاعرا بروفانسيا . والحب الذى تكنه ايزابيل ايبرهارت ، مثلا ، للجزائر لايكفى أن يجعل منها جزائرية . وأعرف صفحات رائعة من جى دى موباسان استلهمها من قسنطينة ، صفحات يمكن ان تتخذ مكانها فى مجموعة من النصوص عن الجزائر .. لكنها لايمكن أن تكون جزءا من مجموعة يكتبها كتاب جزائريون .

ليست الجنسية الأدبية مسألة اجراءات قانونية ولا صلة لها بالتشريع ، وانما هى ترجع الى التاريخ .. والتجنس بجنسية ما يكسب صاحبه وضعا قانونيا مدنيا ، لكنه لا يؤثر على جوهر الشخصية ، والتأقلم ليس الا شيئا سطحياظاهريا . قد يظن بنا اننا راضون ، نأخذ الأمور الهوينى فى غير توتر .. وليست الحقيقة من ذلك فى شىء .

يحدث لى فى اغلب الأحيان ، اثناء مناقشاتى مع كتاب من فرنسا ، سواء كانوا أصدقاء أو خصوما ، ان احس احساسا واضحا حادا بأن هذه المناقشات تجرى بالفرنسية ، واننا مع ذلك لانتكلم لغة واحدة .. فنحن نحمل الكلمات مضمونا ونعطيهـا معنى لاتترجم عنهما العبارة الفرنسية أتم ترجمة .

نحن نبين عن انفسنا .. ولكن الكلمات ، وهى مادتنا اليومية الخام ، لاترقى الى مستوى أفكارنا، وهى أقل بكثير من مستوى عواطفنا .

وليس هناك الا تساوق تقريبى بين « تفكيرنا كعرب » وبين « الفاظنا الفرنسية » .

ذلك هو السبب الرئيسى فى تلك اللعبة المحزنة التى تدور فيها الأصفار ، فى حلقة مفرغة .

وليست الأدلة فى حاجة الى بيـان ، ذلك أن الكلمات اكثر بكثير من مجرد علامات ، أو من مجرد اصطلاحات . ولو كانت كذلك لأصبحت القواميس من اصحاب المواهب ، ولأصبح المترجمـون من أصحاب العبقريات .

ومن ثم فنحن نتنتهى الى استخدام كلمات بعينها، وأفكار سياسية بعينها ، لنبين عن عواطف أو أفكار بعيدة كل البعد عن أن تكون هى بعينها فى العالم كله.

..فالناس لا يحبون ولا يكرهون فى ألاسكا والصين، فى شيلى واليونان ، فى فرنسا والجـزائر ، بنفس الطريقة . وخصائص الانسان بعيدة كل البعد عن أن تكون قاسما مشتركا بين الناس جميعا ، وأوجه الشبه والتماثل لا تحول دون وجود سلسلة لانهائية من الفروق الدقيقة والظلال المتباينة . والكلمة تفقد أو تكسب حدتها ، تصبح لها نكهة وطعم أو تفدو تفهة مسيخة ، تتلون أو ينصل عنها اللون ، تبعا لخطوط العرض والطول الجغرافية . ان اقامة الفروق بين الحضارات لايعنى وضعهـا فى مراتب بعضها أسمى من بعض ، أو التسليم بالعنصرية البغيضة الخطرة المنافية لكل نظام أخلاقى أرضى أو الهى . ولكن المزارع الذى يحرث الأرض فى «اللوار ايه شير » يختلف فى عقليته عن الفلاح فى «السمام» .. وأؤكد هذه الكلمة : « عقليته » . واذاكنت أومن بوجود جهاز نفسى وعمليات سيكلوجية متطابقة .. فاننى لاأومن بوجود هذا « الانسان » الذى يشار اليه بصفته المطلقة فاذا هو وحدة كلية ميتافيزيقية مجردة ، واعترف انه لايدخل فى حدود معـرفتى وحبى .

هذه العقليات المختلفة تستدعى وتقتضى تعبيرات لفظية مختلفة . ولا يحفزنى الى ما اقـول نوع من البهلوانية اللفظية : نحن نكتب بالفرنسية ولكننا لا نكتب كفرنسيين .

هذا الحنين الى لغتى الأم يتضح عندى ،شخصيا فيما أوثر فى حياتى اليومية ، أنا أحب « ايكس اين بروفانس » ولكنى لست من أهلها ، وانما أبحث فى شوارعها المنوعة الهادئة الرصينة عن شوارع قسنطينة المنوعة الهادئة الرصينة . وبعبارة أخرى فاننى أشبه ، الى حد ما ، ذلك العاشق الذى يقول لامرأة : « أنا احبك » ، بينما يفكر فى امرأة أخرى لن ينساها أبدا ، ومهما فعلت فاننى مضطر الى ان أجرد فكرى عن طبيعته .

قد يقال لى ان من الخير الا نخبط الرأس بحائط المبكى ، وأن نسجل وضعا لانملك الا ان نلاحظ وجوده . فهل كان البير ميمى قد سلم بهذا الوضع عندما قال لى : « فات الوقت علينا ، ولا يستطيع المرء ، عندما يبلغ من السن مابلغنا ، أن يبدأ كل شيء من جديد » .

فات الوقت علينا ، بالتأكيد ، وها قد مرت ثلاثون سنة او تزيد ، منذ ان كنا نخط اولى محاولاتنا فى الكتابة على لوح الادرواز ، ونسلمها الى معلمتنا فى المدرسة الابتدائية لتصحيحها ، الى ان كنا نسلم مخطوطاتنا الى الناشرين لطبعها ، ونحن نكتب بالفرنسية ، وندرس الفرنسية ، ونذيع افكارنا عن طريق اللغة الفرنسية .

وكلما اضطرد امتلاكنا لناصية الطرائق الفنية فى مهنتنا ، غاصت اقدامنا الى اعماق جديدة فى هذه اللغة ، وسيلتنا الرئيسية فى الاتصال بالعالم الخارجى ـ هذه المهنة التى وضعناها فى خدمة قارىء لايقرأ لنا للأسباب التى نعرفها .

ثم ماذا ؟

طالما ان هناك مشكلة فلا بد ان يكون ثم مخرج منها . ولكن لانتعلق بالأوهام . ونحن الكتاب الجزائريين من هذا الجيل اذا كنا تفسيرا لهذه المشكلة ، فاننا لسنا الحل لها .

لاجدال فى فائدتنا وجدوانا . وسنبقى درسا وعبرة . واعتقد اننا ، ومنظل ، امثلة نموذجية على مدى الضر والانحراف الاستعمارى ، وقد كان من الممكن ان نكون مبررا يستند اليه دعاة سياسة الاندماج ، اولئك الذين ينظرون من خلال عدسة خاصة فيرون فرنسا تمتد من دنكرك الى تامانراسيت لولا ان مؤلفاتنا قد اكدت ارادتنا ان نكون جزائريين ، عن عمد وتدبر . ذلك ان دعاة الاندماج هؤلاء لم ينكروا الخصائص الاقليمية قط ، وهم يعتبرون الجزائر اقليما فرنسيا من بين اقاليم فرنسية كثيرة : ان مارسيل بانيول من أهل بروفانس يكتب كفرنسى ، وكاتب ياسين من اهل قسنطينة يكتب بالفرنسية ، وهنرى بوردو من اهل سافوا يكتب كفرنسى ومحمد ديب من اهل تلمسان يكتب بالفرنسية ، وستاندال من أهل دوفان يكتب كفرنسى وفرعون من أهل القبائل يكتب بالفرنسية .. الى آخره .

اننى على يقين من ان الكتاب الجزائريين الذين سوف يتلقون الراية منا أو الذين تلقوها بالفعل ، لن يكون عليهم ان يجابهوا مثل هذه المشاكل .

ذلك ان تعليم اللغة العربية ، تعليمها رسميا لغة قومية ، بعد هذا المدى الطويل ، سيكون من شأنه ان تتغلغل الى كل ميادين النشاط العقلى وان تغزوها .. وسوف يتعلم الجزائريون المنتمون الى أصل أوربى انفسهم هذه اللغة التى سوف توثق التحامهم بسائر مواطنيهم . انهم لن ينسوا ولن ينكروا اللغة الفرنسية التى سوف تأخذ مكانها المفضل فى المدرسة وفى البلد على السواء . وليس من فضلة القول أن نكرر ان اللغة الفرنسية فى الجزائر جزء لا ينفصل منذ الآن فصاعدا ، من ثروتنا القومية .

وباستثناء بعض المستعمرين الذين كانوا بحاجة الى اللغة العربية لتصريف أعمالهم ، وبعض الموظفين الاداريين اوالعسكريين ، لنفس السبب ، وباستثناء بعض المستشرقين ـ وهم فى اللغة اكثر فقها منهم كفاءة وفعالية ـ باستثناء أولئك ، يروعنا أن نرى ذلك العدد الضئيل من الجزائريين المنتمين الى أصل أوربى الذين يتكلمون العربية ، واقل منهم بكثير يكتبونها . ومع ذلك فالجانب الأعظم منهم قد ضربوا بجذورهم فى ارض الجزائر منذ عدة اجيال . وقد كانوا يوما بعد يوم يسايرون الجزائريين المسلمين جنبا الى جنب . ذلك يوضح الى اى مدى اضاف الاستعمار الى العنصرية ابعادا هائلة ، والى أى مدى كانت الهوة واسعة عميقة ، تزداد سعة وعمقا ، بين الجزائريين المنتمين الى اصل عربى ـ بربرى ، والآخرين . ويعود بنا ذلك الى القول بأن النظام الاستعمارى ، من حيث المبدأ ومن حيث الواقع ، لاينشىء روابط أو صلات ، بل يقيم مجرد علاقات هى علاقات التبعية .

ان المصير الذى ينتظر جيلنا من الجزائريين ، سواء كنا كتابا ام غير كتاب ، هو مصير جيل الانتقال .

وبانتهاء النظام الاستعمارى ، وبانتهاء عقابيله ونتائجه البعيدة ، سوف تختفى ، ونحن هنا لغو وسخف ومفارقة ، عندئذ سيكون للجزائر كتابها الأصلاء الذين يمثلونها حق التمثيل . وسوف يتكلم كل كاتب منهم عن مشاكل يعرفها ، باللغة التى يعرفها ، ويعرفها قراؤه . لقد مرت مائة وعشرون

عاما حلت فيها التقاليد الشفاهية محل الموضوع المكتوب ، كما قال محمد ديب فى عبارته الرائعة : — « اصبحت ذاكرة الشعب هى المكتبة الوطنية للجزائر » .

* * *

ان المشكلة الأولى التى تقوم اليوم هى مشكلة تعليم اللغة العربية وتنظيم علاقاتها باللغة الفرنسية ومن المقدر أنه سوف يسوى كل شىء على خطوات مطردة ، على جرعات متناسقة ، وفى نظام لتوزيع الاسبقيات ، وتلبية للمقتضيات ، ومع احترام كل القيم المستقرة .

سوف يتساوق تحرر الفرد مع التحرر الوطنى ونتيجة مباشرة له . وسوف يمضى الكاتب الجزائرى قدما الى الأمام ، وقد تحرر من ثقل الارتهان الاستعمارى الذى يزيف كل المشاكل ويشوه طبيعة كل القيم أو يحط منها ، وعندئذ يصبح قادرا على التعبير عن نفسه باللغة التى تتساوق على خير وجه والى أقصى حد مع أشكال حساسيته الموروثة، هذا الكاتب الذى ننتظره جميعا ، الكاتب الذى لن يعرف هذا الحاجز الضخم من السخف واللغو الذى نضرب فى أوحاله على غير هدى . سوف تزدهر اصالة شخصيته فى حمى لغته الدفء وعلى نور تاريخه . وسوف يمتح من ماضيه القومى منابع طاقته الخلاقة ، وسوف يرى فى تجاربنا الغريبة الشاذة علامات تحذير لاتخلو من جدوى . ان خير خدمة نؤديها للأدب الجزائرى القومى الأصيل ، أن نعلن على الملأ حزننا واسانا ، ان لم نعلن يأسنا .

سنظل ابدا ، عند الأجيال المقبلة ، آثارا غريبة ، نعم ، غرائب حقا ، فى متحف الاستعمار .. والمؤرخ، وهو الذى لايدهش فى العادة ، سوف تذهله كل هذه المتناقضات ، وكل هذا اللغو والسخف والمفارقات

وسواء كنا أصفارا أو لم نكن ، فنحن نشارك فى شىء كلى ، وتحفزنا حركة تكفى بذاتها للتدليل على اننا أحياء . واذا كانت الحيطان كثيفة غليظة — هذا القفص من الكلمات الذى يتكلم عنه أراجون فى « الرواية الناقصة » — فان الواجهة الزجاجية صافية شفافة . الآفاق مشرقة وضيئة ، واضحة المعالم ، يقينية . كان الاستعمار ، هذا العصاب التاريخى ، مباءة للقلق والمضض . ان كل حجر وكل طوبة تمثل عند البناء مشكلة ، لكنها مشكلة يتحكم فيها ويصرفها اذ أن البيت الذى يبنيه هو الحل .

ونحن لم نستخدم موادا أصلية فى بناء الأدب الجزائرى بمجموعه . ولكن من سوء الذوق وخطل السياسة ان نغفل هذه المواد المستوردة أو ان نزدريها .

* * *

يحدث لى غالبا فى أمسيات المنفى — والوقت دائما مساء فى المنفى — ان أقف أمام الواجهات فى محل لبيع الكتب ، أو أمام الرفوف فى مكتبة أدخل اليها فأجد فيها نفح الود ، أو أجدها غريبة تثير العجب، أو مختلطة متنافرة ، ثم أتأمل كتب زملائى الكتاب الجزائريين . ويحدث كثيرا أن أتكلم عنهم ، أو يحدثنى الآخرون عنهم . وأنا أحس دائما ، بازاء هذه الاسماء التى أعرفها والعناوين المألوفة عندى، ذلك الاحساس المروع الذى خامرنى ذات يوم، قرب نهاية بعد الظهر ، فى الشتاء ، عندما وصلت الى « بارسلونيت » ، وقد هبطت درجة البرد الى عشرين تحت الصفر . هنالك ، فى واجهة مكتبة من مكتبات الريف المتواضعة ، بين صنوبرات عيد الميلاد وكتاب من تأليف روجيه فريزون روش ، رأيت كتاب محمد ديب « صيف افريقى » . شد ما كان وجوده هناك غريبا .. ! هذا الثلج على قمم الجبال ، عجلات السيارات تحيط بها السلاسل ، هذه اللوحات على الطريق تحذر المسافرين من أن ممر « آوست » مغلق ، هذه القرية الجبلية الأسطورية كأنها تقع فى قلب كندا الاسطورية .. و « صيف افريقى » .

ومن باب الغريب ايضا هذا الخطاب الذى جاءنى من المكسيك ، كتبه لى طبيب جزائرى يقول انه اشترى رواية لى هناك .. ما الطفه هذا المسكين.

كل منا قد تصور امتدادا لنفسه . والواقع ان الكاتب يدهشه دائما انه مقروء . ذلك أن الأمر عنده بعد أن يخط على مسودات كتابه « يطبع » ، هو المغامرة الكبرى . والكتاب اما أن تتآكل أطراف صفحاته من القراءة واعادة القراءة والاعارة والاستعارة ، واما ان يصفر غلافه وما زال مغلقا مختوما على رفوف المكتبات ، فى أركان الكتب التى لابيع لها ولا شراء ..

وعلى هنا أن أعترف اعترافا خطيرا ، قد يدهش له البعض أو يتحيرون ، لكن الافضاء به يزيح ثقلا

عن صدرى ، وقد ينير المشكلة التى تهمنا ، فيما اعتقد .

***

عندما ابلغت فى صيف ١٩٥٨ بمحضر انذار موقع من الجنرال ماسو يخطر فيه الناشر الذى نشر روايتى « الانطباع الاخير » ووكلاءه فى الجزائر ،بأن الكتاب قد صودر وحظر توزيعه باعتباره « يحتوى على كتابات من شأنها ان تخل بالامن والنظام فى اقليم الجزائر » لم احس بدهشة ولا بغضب على الاطلاق. كانت حربا مشروعة . أما اننى كنت قد تلقيت خطابا من الجنرال ديجول ، قبل ذلك بقليل ، ينبئنى بالاهتمام الذى يقرأ به كتبى ، فان ذلك لم يحيرنى فى شىء ، كان الجنرال ديجول فى ذلك الوقت رئيسا للوزراء . وعندما أصبح بعد ذلك رئيسا للجمهورية كتب لى خطابا آخر يهنئنى فيه ويشكرنى على اننى ارسلت اليه كتابى « سوف اهبك غزالة » ويقول لى فى خطاب موقع بخط يده « ان لى موهبة الرواية وهز المشاعر » لكن هذا الخطاب لم يمنع ، فى ابريل ١٩٥٩ ، ان يحظر على القراءة فى التليفزيون ، بأمر من وزير ما للداخلية ، فى برنامج « قراءات للجميع » بعد ان كنت قد وصلت بالفعل الى استوديوهات التليفزيون فى شارع كونياك جاى . واعترف اننى دهشت هذه المرة ، لأن كتابى « سوف اهبك غزالة » كما يقول قرائى ، اقل اتجاها الى الهدف مباشرة ، واقل « التزاما » بكثير من كتاب « الانطباع الأخير » الذى يصف تطورا يؤدى بأحد المثقفين الجزائريين من استنارة الوعى السياسى حتى القتال مع الثوار. ومن ناحية اخرى ، وتبريرا لدهشتى ــ ان شئت الصدق فلم تكن الا نصف دهشة ــ لم يكن كتاب « سوف اهبك غزالة » محظورا ، بل كان يدخل الجزائر نفسها .

لست اروى هذه الوقائع استثارة لمتعة فيها شىء ما بهم من تمجيد الذات ،متعة الذكريات الشخصية .. فالكاتب الذى يعالج موضوعات تهم مجتمعا بأسره ليست له ، الا فى النادر ، ذكريات شخصية فى رواية مايعرض له من مغامرات اثناء ادائه لمهنته. (ومعذرة ، فلست أقول ذلك من قبيل الزهو والغفلة ، وانما انا اقدر مهنتى تقديرا كبيرا) .

وبذلك ينتهى هذا الاستطراد .

ومن ثم فعندما علمت أن « الانطباع الأخير » قد صودر فى الجزائر احسست لذلك بارتياح حقيقى ، أرجو أن يفهمنى صديقى الناشر رينيه جويار) . واذن ، وبفضل هذه المصادرة ، لن يقرانى مواطنى فى الجزائر ، لا لانهم أميون فحسب ، بل نتيجة لأمر صادر مباشرة عن الجهاز الاستعمارى . ان الأمية هى احدى نتائج الاستعمار ، بل هى هدف من أهدافه فى نهاية الأمر ، على أنه ما من نص صريح كان يقضى رسميا بهذه الأمية ، وفى كل مرة يصادر فيها كتاب او صحيفة فى الجزائر ، فليس ذلك الا تصريحا وتوضيحا محل ابهام وغموض ، وانفاذا رسميا لاجراء ما من ضرورة اليه بالمرة لكى نصل الى نفس النتيجة ، فالناس على أى حال لا يقراون. وانما السلطة القضائية هنا تستكمل مابداته السلطة السياسية ، بكل بساطة . ان كل الكتب ، قبل هذه الحرب وفى أثنائها على السواء ، كل الكتب ، وكل الصحف ، محظورة بالضرورة وفى واقع الأمر ، فى بلد لاتعرف الأغلبية من سكانه القراءة ولا الكتابة .

ولنعد الى المشكلة التى تشغلنا ، مشكلة اللغة العربية ورسالتها المحبطة ، ولنذكر ماقاله محمد حربى فى العدد الخاص الذى أصدرته مجلة «انترتيان» عن الجزائر :

« ان المستعمرين ، منذ بداية الاحتلال ، قد انتزعوا من الثقافة القومية الجزائرية كل أدواتها ، اذ استولوا اولا على مصادر دخلها ، ثم استبعدوها من الميزانية التى يمدها الجزائريون اساسابالموارد. ولكن هذه الاجراءات التى تهدف الى خنق الثقافة لم يكن من المستطاع ان تؤتى أثرها الا اذا اختفت اداة التعبير ، اللغة العربية ، وفى ١٨ اكتوبر ١٨٩٢ صدر قانون يضع تعليم اللغة العربية تحت اشراف الادارة الفرنسية . وفى ٨ مارس ١٩٣٨ صدر مرسوم من الوزير شوتان يعلن اللغة العربية « لغة أجنبية عن البلاد » ــ فى البلاد التى وحدتها اللغة العربية وأعطتها روحها » ..

ولكى نصور تلك الوصاية المفروضة من خدم النظام الاستعمارى ، وطرائقهم الميكيافيلية ، لن نرجع الى ماقد يقول جنرال يبحث عن غار المجد يزين به خوذته فى غير عناء ، ولا الى ما قد يقول مستوطن كبير أو صغير ــ ان حجم الميكروب لاصلة له بضراوته ــ ولا الى ماقد يقوله متعصب برتكزالى

عقيدة « الرجل الأبيض الراشد المتمدين » ولا الى ما قد يقول سياسى حاذق خبيث الطوية ينطبع باسمه حدث قد تفشى له صيت بفيض ، ولكننا نرجع الى ماقاله السيد برنار مثلا . هذا السيد برنار « من أهل بلدنا ، منا وعلينا » كما يقال ،لاهو فاحش الخبث ولا بارع الظرف ، لا هو طائل الثراء ولا مدقع الفقر ، ليس بالجنرال ولا بالمستوطن ولا برجل سياسة . ولكن السيد برنار عضو من أعضاء جهاز التدريس الابتدائى . هذا التعليم الابتدائى الذى يتفرغر باسم جول فيرى ،متجاهلا اومتناسيا مأساة غزو تونس والدور الذى لعبه فيها هذا النبى الزائف • هذا التعليم الذى يردد ، عن ايمان أو عن غير ايمان ، تلك العبارات الطنانة الخاوية التى ترددت فى الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ ، هذا التعليم الذى قلت عنه منذ قليل انه ينضوى تحت الجهاز الاستعمارى • كان هذا السيد برنار ناظر مدرسة المعلمين ، وكان يحدد مهمة التعليم الفرنسى على النحو التالى :

***

« ان الجامعة لا ترغب فى نشر التعليم فى منطقة القبائل من قبيل الكرم ، وانما فلنقلها مدوية صريحة فى سبيل مصلحة فرنسا . هذه المصلحة هى وحدها الماثلة فى أذهاننا وهى التى تحدد خصائص نظامنا فى التعليم ، وتهدى مدرسينا الى المناهج والطرائق التى ينتهجونها ، وتعطى برامجنا شكلها الراهن .. من المهم أن يتمثل الاهالى عن وطننا أسمى الأفكار واتقاها . وعلى ذلك فسوف نعطى تلاميذنا ، فى دروس تتناسب مع عمرهم ودرجة ثقافتهم ،الأفكار الملائمة عن عظمة فرنسا ، عن قوتها العسكرية ،وعن ثروتها . سوف يتوطد مركزنا ويزداد رسوخا لو ان الأهالى أصبحوا يفكرون على النحو التالى : ان الفرنسيين أقوياء وكرماء ، انهم خير سادة لنا .. « ان المدرسة التى يتعلم فيها الأهالى ، بشكلها الراهن ، وعملها الخير المزدوج ،ليست أداة للتجديد الخلقى فحسب ، بل هى فوق كل شىء أداة للسلطة ووسيلة لبسط النفوذ . وسوف تجعل من رعايانا أعضاء لهم فائدتنا الكبيرة فى المستعمرة وتابعين مخلصين لفرنسا » .

ليس لى تعليق .

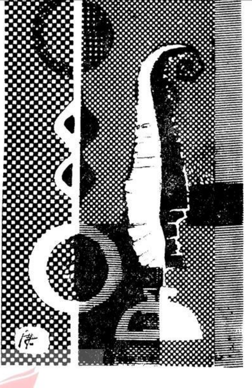
سوف تضع الحرب أوزارها الآن ، والآفاق الرائعة تتفتح وتزداد اشراقا يوما بعد يوم . ان هذا التحرير الذى طالما دعونا باسمه ، وطالما تغنينا به ، قد أصبح فى متناول أيدينا ، أصبحت أكثر رغائبنا صحة من مخلفات التاريخ التى لاتتساوق مع اللحظة الراهنة . ودخلت فكرة الوطن الجزائرى الى صميم التقاليد الفرنسية والدولية على نفس النحو الذى كانت تنبض به قلوب الجزائريين طيلة مائة وأربعة وعشرين عاما .

والأصفار قد دارت فى حلقة مفرغة ، وما زالت تدور فى حلقة مفرغة ، لكن هذا الدوران فى مكان واحد بعينه ، لن يكون فى غير طائل ، بل سوف يثبت للأجيال المقبلة ، الى الأبد ، فداحة الثمن الذى يدفعه الشعب اذ يفقد استقلاله ويقع تحت رحمة عقائد ليست بعقائده ، ولا يمكن أن تكون عقائده. ان المصالح الاستعمارية قد أوقعت خطر الموت ببلاد أوقفت فى أثناء سيرها ، وأزيغ بها عن الطريق التقليدى لرسالتها التاريخية .

ان الكاتب الجزائرى اذ ينظر فى دخيلة نفسه ، وهو فى وطنه أولا ، فى وطنه الجزائر ، وقد أصبح حرا أن يرصد نفسه لمهنته ، يعيش على ترابه الوطنى سوف يجد الكلمات التى لاتفنى ، هذه الكلمات التى تنضاف الى موسيقى السيمفونية العالمية فتسهم فى تقدم كل ما تنهض به الانسانية .

الكاتب الجزائرى ، وقد تسلح بلغة أسلافه ،بعد أن سرت فيها روح جديدة من الشباب ، سوف تكون له شجاعة الشاعر العريقة : ان يكون صدى رنانا يدوى فى مسامع الناس ، ولعله ان يكون«مكبر الصوت الرئيسى » الذى تكلم عنه مياكوفسكى .. ولكنه سوف يكون جزائريا ، جزائريا فى كل شىء ، وسوف يصغو بالانتباه ، فى شغف مشبوب ، الى كل الأصداء والأصوات المترددة فى جنبات العالم .

هذا الكاتب هو الذى ننتظره ونترقبه ،وليس لنا من مطمح ، ولا راحة لنا ، الا فى أننا قد مهدنا له جانبا من الطريق ، ونحن نحمل وزر اللعنة ، ويشفع لنا حسن النية ، لكى يكتب روايات تزدحم بالابتسامات ، وتزخر بالايمان واليقين ، هذه الروايات التى سوف يكتبها ليثأر لنا .



العلاقة بين العلم والأدب في العصر الحاضر

بقلم : مرسى سعد الدين

عالمنا عالم تسيره العلوم ، علوم الطبيعة والبيولوجيا والزراعة والتكنولوجيا وكلنا نعترف بفضل العلوم وأهميتها فى مجتمعنا الحاضر · فهى ضرورية لتوفير الغذاء ولبناء المنازل · بل انها ضرورية فى نظام الحكومة نفسها فهو مقام على أسس علمية تراعى الظروف الاجتماعية والحاجيات البشرية · ولكن هناك فئة من الناس تعتقد أن العلم قد تخطى حدوده . وأن العلماء قد أخذوا على عاتقهم مهاما لا تدخل ضمن اختصاصهم · وهذه الفئة هى الأدباء والفنانون الذين يرون أن العلماء لايريدون أن يقصروا اختصاصهم على النواحى المادية التى ترمى الى تحسين مستوى المعيشة ، وتقدم المجتمع ماديا بل انهم ينادون بأنفسهم حكاما على النواحى الخالقة الجمالية · وبدأوا يتدخلون تدخلا سافرا فى شئون الآداب والفنون · ويصدرون أحكاما نقدية بدون وجه حق ·

وهنا تظهر المشكلة ·· فهل هذا التدخل بدون وجه حق · أم أن من واجب العلماء وهم الآن يسيرون المجتمع ان يكون لهم تأثير مباشر فى تأثير شعورى على نواحى الحياة الأخرى· ان هذا الاختلاف على الاختصاص موضوع دقيق ناقشته هيئات عديدة فى أوروبا وأمريكا · وصدرت عنه كتب مختلفة بعضها يأخذ صف العلوم وبعضها يؤيد الفنون والآداب وليس هناك من ينكر أن الأدب يدين للعلم بالكثير · فهو يدين له باختراع الطباعة · ويدين له بشىء أهم وهو توفير أوقات الفراغ · فلا شك فى أن الاختراعات العلمية قد سهلت من حياة الانسان ووفرت له الفراغ الذى يستطيع الفرد ــ ان أراد ــ أن يستعمله فى سماع الموسيقى ، أو فى مشاهدة مسرحية أو ــ طبعا ــ فى القراءة ·

وقد مرت العلاقة بين العلوم والآداب والفنون بمراحل مختلفة . مراحل اخاء وتعاون ومراحل عداء مستحكم · لقد صفق الأدباء للعلوم · واستخدم بعض الشعراء من أمثال بوب مثلا تشبيهات علمية حين قال :

ان الفصاحة الكاذبة كالزجاج ذى البؤرة ·
ينشر الوانا صارخة فوق كل مقال
ان الطبيعة لم تعد نراها كما هى
فقد صار ضوؤها صارخا
ولكن التعبير الصادق كالشمس الثابتة

التي تشرق وتغطي كل ماتغمره بنورها .
انها تطلي الاشياء بلون الذهب . ولكنها لا تغيرها .

ولكن هذا لم يمنع نفس الشاعر من هجاء العلم حين قال متحدثا الى العالم :

اذهب ايها المخلوق العجيب اصعد حيثما يقودك العلم
اذهب وقس الارض .. وزن الهواء واحسب المد والجزر
واختر للكواكب الافلاك التى تسير فيها
وعدل من الزمن القديم ونظم دورة الشمس
اذهب وعلم السماء كيف تحكم الارض
ثم ارجع الى نفسك . فسترى انك لا تزال غبيا .

ولكن من أهم التأثيرات التى يدين بها الأدب والفنون للعلوم هى الطريقة العلمية . وقبل أن تتقدم خطوة أخرى يحسن بنا أن نعرف صفات هذه الطريقة ويقول الدكتور وادنجتون فى هذا :

« ان العلم هو محاولة الانسان المنظمة لمعرفة الاسباب التى تتوقف عليها الظواهر ، انه يمتاز بالتحليل الدقيق . وهو يعطينا اساسا ثابتا للحكم على القيم الموجودة . وهذا الاساس هو ان هذه القيم توزن بمدى نجاحها فى تفسير المشاكل العملية التى تواجه الانسانية وفى ايجاد حلول لهذه المشاكل . والاديب ايضا يجب ان يفهم هذه المشاكل . ولكنه ليس من المفروض ان يجد لها حلولا » .

ولكن هناك من العلماء من يفرق بين وجهات نظر العلوم المختلفة . فالعالم السيكلوجى مثلا تختلف نظرته عن عالم الطبيعة ويقول الدكتور ج . ب . هودين وهو من النقاد الفنيين ذوى الثقافة العالمية .

« لنفرض ان امامنا صورة تمثل امراة عارية . ولنفرض ايضا ان معنا عالما نفسانيا ومؤرخا فنيا وعالم طبيعة وفردا ممن يستسيغون الفن .. كيف سينظر كل من هؤلاء الى الصورة . ان العالم السيكلوجى سينظر اليها باعتبارها تساميا لنزعة الاستيلاء والملكية المكبوتة فى النفس الانسانية ، ومؤرخ الفنون سينظر اليها باعتبارها المرحلة الاخيرة من مراحل تطور تكنيك رسم الاجساد العارية فى اوروبا .

اما علم الطبيعة فانه سيركز اهتمامه على النواحى العلمية ، سينظر الى الرسم باعتباره مكونا من ورق والوان وهذه بدورها تتكون من ذرات موجودة فى حالة من التوازن المؤقت . وقد يخرج من هذا بصدى تأثير هذه الذرات بعضها على البعض الآخر ، ولابد انه فى النهاية سيجد طريقة يقيس بها تأثير هذه الذرات . اما الشخص الذى يستسيغ الفن فانه لن ينظر الى هذه اللوحة على أساس أى عامل من هذه العوامل التى ينظر اليها عالم السيكولوجى او المؤرخ الفنى او عالم الطبيعة بل على أنها شيء يحيا فى ذاته . انها مخلوق فنى ، لخطوطه ولشكله حياة خاصة بهما ولتكوينه وحدة وكمال ، ونهاية ترضى فى حد ذاتها . ان تأثير هذه اللوحة على مثل هذا الشخص ذى الوعى الفنى ياتى فى الحال . انه تأثير مباشر لا يحتاج الى التفكير فيه » .

ومادمنا بصدد الحديث عن الفن أقصد الفنون التشكيلية . فيحسن بنا أن نحاول الوصول الى علاقتها بالعلوم . ومدى تأثيرها بطريقة البحث العلمى . ان وليام هودين وهو من كبار فنانى الخزف . كتب يناقش هذه المشكلة فى كتابه . « العلم والفنون الخالقة » فقال :

« ان الفنون فى اتصال مستمر بالعلوم . سواء العلوم البيولوجية او الرياضية او الطبيعة . فالفنان يدرس التشريح دراسة وافية ويدرس الرياضة والمنظور ويدرس نظريات الضوء . وهذا الاتصال المباشر يجعل الفنان عرضة لتأثير الطريقة العلمية ويجعله اول من يحس بضغطها . وهناك بعض النقاد الفنيين مثل ايريك نيوتن الذين يعتقدون بقيمة هذا الاتصال . وبان الفنون تقدمت بسبب العلوم . » ولا اريد ان أبدو متحيزا ضد العلوم . ولكن فى الواقع أن المدارس الفنية الحديثة ليست الا ثورة ضد هذا الفرع من المعرفة فمثلا العالم ينادى باهمية الناحية الشكلية فى الفنون . ولذلك فاول ماأثرنا ثرنا على الشكل . وهذه الثورة هى فى الواقع احتجاج على العلوم .

ولكن اريك نيوتين يرى فى هذه الثورة انعكاسا للطريقة العلمية ..

« ان هذه الثورة دليل على تطور الفنون . والعلوم تعتقد فى التطور وتعتقد ايضا فى وظيفة الفنون . وبيكاسو مثلا حين رسم لوحاته كان يعكس هذا التطور وهذه الوظيفة . اننا اذا درسنا مثلا اللوحات التى رسمها فى فرنسا أثناء الاحتلال الالمانى لوجدناها تعكس شعور الرعب الشديد الذى بدوره يعكس التجربة الجسمانية والروحية التى مرت بها فرنسا فى تلك الفترة . ان الفنون التشكيلية فى تطور مستمر . فنحن نذكر ماقاله رسكين من ان الفنان يجب ان يلجأ الى الطبيعة . ويثق بها ويحاول التغلغل الى معناها الخفى » .

ولكن أريك فيوتين يرى فى هذه الثورة انعكاسا مختلفة من تطوره انتهت بالسوريالية ، ولكن على الرغم من أن هذه الحركات الفنية متأثرة تأثرا مباشرا بالعلوم الا أن هناك فوارق عديدة بينهما . وهذه الفوارق ناتجة عن الاختلاف بين وسائل العلم الحديث ووسائل الفن الحديث . ومهما اختلف المكان الذى تجرى فيه التجارب العلمية ومهما اختلفت جنسية العلماء المشتغلين على هذه التجارب . فاننا نجد ان وسائل قيامهم بها لا تختلف . انها وسائل ذات صبغة عالمية . ولذلك

فان النتائج التى تظهر من هذه التجارب تكون ذات تأثير على الانسانية عامة ، أما فى الفنون التشكيلية فان الرغبة فى التعبير الفنى لها دوافع تختلف من فنان الى آخر ومن بلد الى آخر ونتيجة لذلك تأتى وسائل التعبير مختلفة بعضها عن بعض . ولهـذا السبب نجد أن بعض الحركات الفنيـة وقف على أماكن معينة وحضارات معينة فنرى أن حـركة السورياليـزم لم تنتشر الا فى أوروبا وأمريكا ولم تصل بعد الى آسيا أو افريقيا . بينما نجـد أن النظريات العلمية تجد طريقها بسرعة غريبـة من مكان الى آخر ونستطيع أن نقول ان الموسيقى تشبه العلوم الى حد كبير . أقصد فى سرعة الانتشار . فنحن جميعا يلذ لنا سماع الموسيقى مهما كـان مصدرها أى انها تنتقل من مكان الى آخر بحرية والسبب هو أن الموسـيقى من أقـرب الفنون الى العلوم . فهى مبنية على أسس رياضية وطبيعية . وقد بالغ بعض الموسيقيين فى تطبيق العلم على الموسيقى فنرى مثلا موسيقيا مثل ارتلولد شوينرج الالمانى يخترع طريقة تعتمد اعتمادا كليا على تكرار بعض النماذج الرياضية وان كانت القطع الموسيقية الناتجة قد لا تروق الجميع .

والموسيقى تنتقل بنا الى الشعر ويشرح ايفور ايفانز السبب فى معاداة بعض الشعـراء للعـلم فيقول :

« انه موقف عدائى . فقد اعتقد بعض الشعراء وخصوصـا افراد المدرسة الرومانتيكيـة انالعلم يساعد على خلق نظـرة ميكانيكيـة للعالم . فجاءت حركتهم ثورة ضد العلوم ، ضـد المجتمع التكنولوجى الذى اراد القضاء على الطبيعة وجمالها . كان الشعراء يعتقدون ان العـالم بمصانعه ودخانه سيعكر صفحة الطبيعة الصافية . بل انه سيغير بالطبيعة نفسها » .

وطبعا لم يكن لهـذا الخوف أساس . لقد أراد شعراء الرومانتيكية أن تبقى الطبيعة كما هى . والا يتدخل العلم فى حياة الانسان ليجعل منهـا حياة أسهل وأكثر راحة . وهنـاك مع الأسـف بعض الادباء المحـدثين الذين ينفون مافعلـه العلم فى المجتمع . ويرددون أن المصانع تعـكر جو الريف الجميل . وان الطرق الحديثـة تقضى على نواحى الجمال فيه . ولكن هناك نقدا أساسيا يوجهه بعض العلماء أنفسهم للعلـوم . وخصوصا العلمـاء التقدميون . ويقول الاستاذ برنال :

« اعتقد ان لا بد من وجود فلسفة تحاول ان تشرح للشخص العادى مغزى العالم ومعناه بالنسبة اليه انا معشر العلماء نقع فى خطأ كبير حين نضيق من معنى العلوم . ان العلوم ليست مجرد قياس لحياة طبيعية بدقة . او تتبع تغيرات بيولوجية ، انها اعم واشمل ويجب ان تحوى العلوم الاجتماعية . مثـل الاقتصـاد والاجتماع وعلم الاجناس . ويحاول علماء الطبيعـة وضع هذا النوع من العلوم فى المكانة الثانية . بينما الواقـع انها اساس المجتمـع الذى نعيش فيه . ولا شك فى ان بعض العلماء انفسهم احسوا ببعض خيبة الامل نحو العلوم الطبيعيـة فنجد ان ادامز مثلا يهاجم هـذه العلوم ، او بمعنى اصح ينقدها حين يقول :

« انها لم تسر بنا فى طريق الوحـدة التى كنا نعتقد انها ستوصلنا اليه ان منهج العلوم هو التحليل والتفتيت الى أجزاء . وهذا لا يساعد على الوصول الى الوحدة المطلوبة .

وانا لا اوافق على راى ادامز بل اختلف عنه بعض الشئ . فانى اعتقد ان علم الطبيعة يستطيع ان يوصلنا الى هذه الوحدة المنشودة فهذا العلم له وجهـان . فهو من ناحية يتصل بعالم الاشياء المادية . انه منهج الوسائل التحليلية . وطريقة استعمال هـذه الوسائل ـ ولكنه ايضا عمل اجتماعى انسانى . تفاعل الانسان مع المجتمع الذى يعيش فيه . ومع التغيرات السياسية والاقتصادية لهذا المجتمع » .

ومعنى هـذا أن الأستاذ برنال يريد الربط بين العلوم الطبيعيـة وبين العلوم الاجتماعية وهذا فى الواقع هو الاساس العلمى الحديث فمن الممكن مثلا شرح نظرية داروين بطريقة سياسة. فقد استعملت هذه النظرية القائلة بأن البقاء للأصلح لاقامة مذهب التفرقة العنصرية . بينما فى الواقع أن داروين حين خرج بنظريته كان يقصد بها البقـاء للأصلح فى الطبيعة ولهذا السبب ينادى العلماء الآن بضرورة شرح العلوم للشعب وهذا ما ينادى به الاستاذ برنال حين يقول ان شعبية العلوم وتبسـيطها من الأمور الأساسية فى مجتمعنا الحديث فالنازية مثلا كانت تنادى بأرستقراطية العلوم . وان الشعب لا دخـل له فيها ونحن نعرف نتيجة هذه النظرية . وهناك الآن خطر فى أننا نسير فى نفس الاتجـاه .. ان الشعب يجب أن يعرف الكثير عن العلوم . لقـد وصل تطور العلوم الطبيعية الى ذروتـه باكتشاف الذرة . ان أول قنبلة ذرية ألقيت فى هيروشيما أظهرت لنا تلك القوة الخارقة التى وضعها العلم فى يد الانسان لتسخير الطبيعة .. ان هذا الاكتشاف أخطر من اكتشـاف النار والزراعة من قبل . ومهمة

الآداب والفنون في رأيي هي المساعدة على نشر هذه المعرفة العلمية ·

وهذه نقطة مهمة جدا · وهي أن الادباء والفنانين يجب أن يتعاونوا مع العلماء ويعتقد الدكتور ايفور ايفانز أن مركب النقص الذي يحس به الفنانون والأدباء يجعلهم يتباعدون عن العلماء · فقد استطاع العلم في عالمنا الحديث أن يضاعف من امكانياته ومن حيويته وذلك لانه مجموعة تجارب يضاف بعضها الى بعض لتكون وحدة . ولكن الفنان يجد أن مركزه في أفول مستمر أولا لفرديته القاسية وثانيا لأن تجاربه من شأنها أن تأفل أمام الحضارة العالمية · ان مكانة الفنان الخالق تحتاج الى تجديد · انه لن يستطيع أن يصلح العالم أو ينقذه · ولكن في استطاعته أن يشرح كل ماهو هام في التجربة الانسانية . وهذه الانسانية يجب أن تعرف أن العلم له مكانه والفن له مكانه والدين له مكانه والفلسفة لهامكانها · ويمكن للفنان أن يؤكد مكانه في وسط العلاقات الاجتماعية والروحية للانسان ·

يجب ألا يستعمل الفنان فنه سلاحا ضد المجتمع أو خادما لنظام ما ، يجب أن يزيد من معرفته للعلم وأن يختلط بالعلماء ففي يدهم توجد مفاتيح مجتمعنا الحاضر .

وهناك فعلا عدد من الكتاب أخذوا بهذه النصيحة ··وحاولوا أن يشرحوا العلم ويبسطوه أو يستعملوه في كتاباتهم . ومن هؤلاء ج . ويلز مثلا الذي استعمل العلوم الطبيعية والبيولوجية وكتب قصصا بمثابة تنبؤات للمستقبل كتب ويلز « آلة الزمن » وفيها يستعمل الطبيعة والرياضة · وكتب « الرجل الخفي » وفيها استعمل الكيمياء والبيولوجيا ويعلق الأستاذ ايفانز على هذا فيقول :

« ان بعض هذه القصص كان ممتازا وفي نفس الوقت مسليا · فقد لمست من هذا أن التحليل العلمي لم يقدم او يؤخر من مكانة الفنان في المجتمع الميكانيكي العلمي · بل ان ويلز كان دائما يحاول ان يبعد عن نفسه صفة الفن وياخذ مظهر العالم وشانه في هذا شان جوته الشاعر الالماني ، الذي كان يعتز بمعرفته العلمية الى درجة كبيرة ، وكانت له فعلا فلسفة يمكن القول بانها علمية · ولكنها كانت اسسا انسانية في ذات الوقت · ولا زلنا نذكر ما قاله :

« ان أساس مجتمعنا علمي لا شك في ذلك · ولكني احس بالخوف والقلق من هذا التزايد المستمر في ميكانيكية الحياة · لقد أدت الى جهل الناس بانفسهم ، لقد صار هم المجتمع الآن هو الثورة والسرعة · وكل الاختراعات ترمي الان الى تيسير سرعة الانتقال · ان هذا هو مايرمي اليه العالم المتحضر ليزيد من حضارته وبالتبعية من آلامه ·

على أن هناك ناحية هامة في الادب للعلوم فيها أثر كبير وهي ناحية الزمن · ان هذه المشكلة تعد أخطر مشكلة خلقها العالم في المجتمع الحديث · خلقها بنظريته النسبية والعلاقة بين الزمن والفضاء . ويقول شبنجلر الفيلسوف الالماني عن هذا :

***

« لقد اقمنا نظرية فلسفية جديدة · نظرية عن الحياة فالحياة لدينا لم تعد حالة الوقوف والثبات · بل التحول المستمر · اننا لم نعد ننظر الى فترة واحدة من الزمن بل الى النمو الزمني · وبذلك خلقنا احساسا بمنطق الزمن بالاضافة الى منطق الفضاء »·

وهذا يكرره الفيلسوف وندام لويس حين يقول :

« ان السرعة التي يحدث بها التطور الاقتصادي والاجتماعي قضت على شعور الانفراد والثبات في عالمنا الحاضر ، قضت على شعور الدوام وصار الفرد مهددا بالانهيار · كان الانسان في الماضي يعتقد في وجود اطار له » سيمترية « يحيط بالعالم ويحفظه في داخله كالصورة · كان هذا الاطار يحوي داخله الله والانسان والحيوان والنبات · كان هناك احترام للسلطة للاحساس اللاشعوري باحترام الاب والاسرة والدولة ومملكة الله » ·

ولكن هذا الاحترام زال تدريجيا · فثارت الكنيسة على البابا· وزالت الوحدة بين الدين والعلم والفلسفة والفنون · وظهرت صفة التخصص الجاف · فحدث انفصال قوي بين النشاط الذهني والنشاط الفني · زال هذا وبدأ الجميع يبحثون عن شيء يحل محله فعاد البعض الى الدين حيث السؤال ممنوع وذهب البعض الى الفلسفة حيث السؤال يجاب بالنفي ، كل هذا حدا بكتاب القصة الى البحث عن اطار زمني جديد » ·

فنجد أن فرجينيا وولف تقول ان الاطار القديم ثابت ولم يعد الثبات من صفات مجتمعنا المتفكك · ان القصة يجب أن تكون تسجيلا للذرات بمجرد وقوعها على العقل ، ان مفتاح هذا العصر هو السرعة والسرعة هي العلاقة بين الزمن والفضاء » · ان الزمن الآن هو معيار قياسنا للنجاح ·

لقد استطاع الزمن في هذا العصر أن يسيطر على الفضاء · وقضى العلم على وحدة الزمن التي نادى بها أرسطو وكان لنظرية النسبية أثر كبير في الأدب · ويقول الأستاذ وادنجتون ··

« ان النظرية النسبية تقول ان الزمن يتخذ معنى فى نظم عديدة وانه يختلف من اطار الى اطار · ان الزمن لا يكـــون مشتركا بين شخصين » ·

ففى القصة مثلا مجموعة من القيم الزمنية تحـدد بثلاثة أنواع من الـزمن زمن الكاتب الذى قضـــاه فى كتابة القصة وزمن القـــارىء الـذى قضاه فى قراءتها وهناك زمن بطل القصة · هذه القيم الزمنية .. تكون بنيـــانا متوازنا وقد أدت هذه النظرية الى القول . بأن التقسيم الزمنى الى ماض وحـــاضر ومستقبل تقسيم غير طبيعى فالفـــرد فينا يستطيع أن ينصت الى محاضرة فى الحاضر ويعيش فى داخله فى أحداث الماضى ، ويفكر فيماسيحدث بعد المحاضرة ·· كل هذ فى وقت واحد · وبعض الكتاب يخلطون بين هذه الأزمنة فنرى القصـــة تخرج من واحدة الى الثانية الى الثالثة دون سابق انذار · وقد أثرت هذه النظرية حتى على اللغة فخلعت عنهـــا التقسيمات الزمنية للكلمات والجمل . فنرى كاتبا مثل جيمس جويس يستعمل لغــة لا ترتبط بالقوانين المنطقية للقواعد ·

نخرج من هذا بأن المشكلة هى مشكلة تعـــاون وثقة · ان هناك نضالا بين العلوم من ناحية الآداب والفنون من ناحية أخرى · ولكن هذا النضال مفيد لا يضر ·

ان النضال بين شيئين لا يعنى كارثة · انه فرصة عظيمة والاختـــلافات التى تظهر فى تطور المعرفـــة الحقيقة ليست الا الخطوة الاولى نحو التقدم.لاشك فى أن الفكر العلمى قد أثر على الفن الحديث والأدب الحديث · والفنان يجب أن يعطى هـذا العصر العلمى صورته الفنية · وهذا التعاون كيف يأتى ومن هو الملوم على عدم وجـوده ؟ فى رأى النـــاقد الفنى « هودين » ان الخطأ يقع على مجموعة من الـــكتاب والفنانين الذين يعيشون فى عالم مثالى ·· ان هؤلاء ساعدوا على ابعادنا عن الحياة وبـــذلك أضعفوا من ارادتنا للعمل الى درجة تحطمت معهاهذه الارادة حين واجهت عالم الواقع · عالم العـــلوم · ان العلوم هى أساس الحياة ـ الحياة الجديدة · ولكن قبـــل أن تزدهر هذه الحياة فان الأرض فى حاجة الى حرث والى تشـــذيب والأدب الحقيقى والفن الحقيقى هو بمثابة هذا الحرث وذلك التشذيب ·

ويذهب البعض الى أبعد من هذا فنجد أن الأستاذ ايفور ايفانز مثلا لايجد فرقا كبيرا بين العالم والفنان حين يقول :

« ان الفصل بين الفنان والعالم ليس بهذه القوة فلا شك فى ان العالم الحـديث يستعمل خيالـه الان كما يستعمل الفنان خياله · ولكن خيال العالم يخضـــع للتجارب أكثر من خيال الفنان · لكن هناك نواحى مشتركة بين كليهما فمثلا هو يشتغل بالتجربة تماما كالمتعبـد ، المتعبد يرضى بالتجربة فى حد ذاتها والفنان يحاول ان يشرح هـــذه التجربة بطريقته الخاصة والعالم يحاول ان ينظر اليها كنظام متصل ، ان الفنان له حرية أكثر من العالم · فهو يستطيع ان يخلط استعاراته عن طريق الخيال · ولكن العالم يجب ان يبنى من الخيال عالما واحدا متماسكا · عالما يعبر عن العلاقات بين التجارب · فمثلا نظريات نيوتين وفاراداى واينشتين متصـــــلة ببعضـها وهى فى ذات الوقت مخلوقات للخيـال » ·

ولكن هناك بطبيعة الحال بعض الاختلافات · وهى اختلافات فى أساس العلوم وأساس الفنون والآداب · فعمل العـــالم متجمع بينما الفنان يجب أن يبدأ من جديد كلما أراد الخلق · ان العـــالم الشاب يستطيع أن يبدأ من حيث انتهى سلفه ولكن الفنان لا يجـد من السهل أن يرث الماضى · لا شك أنه يعتمد عـلى الماضى · ولا شك فى أن كل فن مهما كان أصيلا فان عنصر التقليد فيه قوى · وكما يقول الكاتب الايرلندى أوفلارتى :

« ان أشد مايؤلم الكاتب هو معرفته ان كل مايقدمه قد قيل من قبل » ·

ان عالمنا علمى لا شك فيه وكلما أسرع الفنـــان فى معرفـــة ذلك جاء الانقاذ السريع وعلى العالم من ناحيته مهمة أساسية وهى أن يشرح لنا الطبيعة ، يشرح لنا الخيال العلمى والاكتشافات والاحتمالات الموجودة أمام طريقة البحث الجديدة ، ان عليه تقع مهمة رفع مستوى الحياة .

عليه أن يشرح نفسه للنـــاس وبذلك يساعد هو وزملاؤه من العلماء على اقامته · انالفنان سيجد فى العالم مثلا يحتذى به · فالعالم أكثر نشاطا · انـه يقضى اياما وليالى يراقب حركة لحيوان صغير فى المعمل ، بطريقة قد يراها الفنان مهينة ·

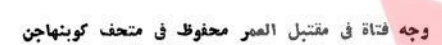
ولكنها أساسية وسيكسب العـــالم اذا ما قويت العلاقة بين العالم والفنان ، علاقة مبنية عـلى ثقتهما فى الانسان وفى وظيفة الانسان ·

من روائع

الفن المصرى

لوحات الفيوم

بقلم
الدكتور عبد المنعم أبو بكر



وجه فتاة فى مقتبل العمر محفوظ فى متحف كوبنهاجن

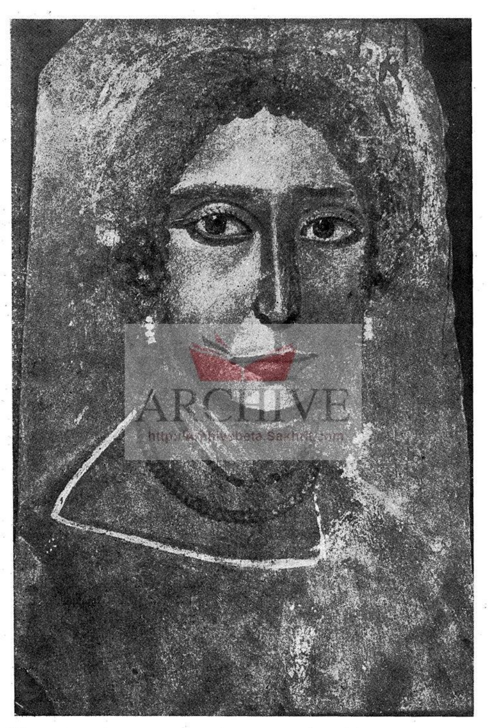
لعل الفرصة لم توات الكثيرين منا ليعرفوا شيئا عن فن مصرى عاش وازدهر فى هذا البلد العظيم فى القرون الاولى من العصر الميلادى . فن أبدعته أيد مصرية حاولت أن تستعيد مجدا تليدا كان قد خبت شعلته أو كادت ، أقصد بذلك تلك اللوحات الخشبية التى حملت صورا مرسومة لوجوه الناس والتى كانت توضع فوق جثث الموتى بعد تحنيطها واحكام لفها ، ومكان هذه اللوحات فوق الرأس لتدل على صاحب المومياء .

هذه ولا شك عادة مصرية قديمة اتبعها المصرى منذ أول تاريخه أى منذ أن اعتقد فى حياته الأبدية التى لابد أن يبدأها بعد أن تنتهى فترة الحيـــاة الأولى على الأرض ، ومن أهم مقوماتها تحنيط الجثة وتزويدها أما بتمثال يحفظ تماما ملامح الوجه أو بقناع للوجه يوضع فوق الجثة ، وهـذان المقومان الرئيسيان حتمتهما العقيدة المصرية التى جعلت حياة الدنيا الثانية وقفا على العنصر البشرى الاثيرى غير المادى أى على « الكا » (القرين) .

من الواضح تماما أن المصرى القديم اعتبر الجسم البشرى بمثابة صندوق يغلف عناصر أخرى تعيش داخله خلال الحياة الأولى فوق الأرض ، ولـكنها لاتلبث أن تنفصل عنه لتبقى وتعيش حياة أبدية . هذه العناصر التى يحويها الجسم هى :

أولا : « البا (عنصر الحياة) ونفهم ممـا قاله المصرى عن هذا العنصر أنه يقرب مما نطلق عليـه نحن « الروح »

ثانيا : الـكا » وهـو ذلك الجسم الأثيرى الذى يسكن الجسم المادى ويشبهه فى كل شىء ، يخلقان سويا ويقوم على خلقهما الاله خنوم (معبـود جزيرة اليفانتين على هيئة الكبش) ، ونترجم عادة هـذا العنصر « بالقرين » واعتقد المصرى أن « القرين » هذا سيحيا فى المقبرة بعد الموت ولكنه لايستطيع الاستفادة من هذه الحياة ويسعد بها الا اذا توفرت لديه بعض الشروط وأحيط ببعض الضمانات ، ومن أهمها تحنيط الجثة حتى تحتفظ بصورتها الدنيوية لتتعرف عليها « الكا » ومن الضمانات أيضا أن تزود



وجه سيدة محفوظ فى متحف اللوفر

المقبرة بتمثال يسعى المثال جهد استطاعته أن يجعل ملامحه تطابق ملامح صاحبه تماما ، هذا غير تكديس ألوان من الأكل وأنواع من الشراب والاثاث في حجرة الدفن ، وليس من شك أن ماتركه المصرى القديم من روائع الفن سواء التماثيل أو النقوش كانت لخدمة « الكا » قبل كل شيء ٠

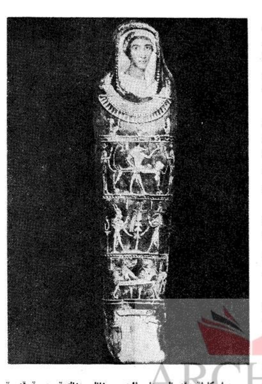
ثالثا : « الآخ » وهو عنصر الهى اعتقد المصرى أنه يمثل شخصية صاحبه ، لايبقى بعد الموت فوق الأرض ولا يسكن القبر ، بل يصعد توا الى السماء ويصبح نجما يزين جسم الهة السماء « نوت » ويتلألأ في الليل ، ومن هنا اصطلحنا على اطلاق اسم « الجسم المنير » على هذا العنصر ٠

رابعا : أما العنصر الرابع والأخير فقد كان القلب وأطلق المصرى عليه كلمة « ايب » ، وعقيدته فيه تجعلنا نشبهه « بالضمير » لدينا ، فهو الذى يهدى الانسان في حياته الأولى الى الخير والشر ، وهو مركز الأحاسيس البشرية لديه ٠

واذا كان المصرى قد زود « الكا » بتمثال يبقى على ملامح الوجه ويجعل من السهل عليها أن تتعرف على مسكنها (المقبرة) ، فنراه قد أمعن في اتخاذ الضمانات بأن وضع فوق رأس الجثة المحنطة قناعا ، تارة من الذهب الخالص ، للملوك وثراة القوم ونضرب لذلك مثلا قناع الملك (توت عنخ آمون) وتارة أخرى من لفائف الكتان تعلوها طبقة رقيقة من الحصى ، ثم في نهاية الأمر وفي العصور الأخيرة من الحضارة المصرية لوحات مرسومة وهى التى سنعالجها في هذا المقال ٠

تمكن أحد تجار العاديات النمساويين واسمه تيودور جراف من أن يفوز بغنيمة أثرية كبرى في عام ١٨٨٧ ، اذ اشترى ما يزيد على ٣٠٠ لوحة خشبية تحمل كل منها صورة لوجه ميت كانت تثبت أمام وجه المومياء ٠ اشتراها كلها من منطقة الفيوم وحملها معه الى بلده فينا ، واستطاع بعد عامين أن يعرض منها مايقرب من مائة لوحة ، عرضها في الأكاديمية الملكية في برلين ، وكان لعرضها كمجموعة متكاملة ضجة كبرى في الأوساط العلمية والفنية وعقدت الدهشة ألسنة الناس وتهافتت الدول على طلب نقل المعرض اليها ، واستجاب تاجر العاديات وطاف مع معرضه في أكثر من بلد سواء في أوروبا أو في أمريكا ٠

ومنذ عام ١٨٨٩ بدأ العالم يتحدث عن لوحات الوجوه المرسومة من الفيوم ، حقيقة أن بعض



مومياء كاملة وقد ظهر على الجسم مناظر جنائزية مصرية قديمة تمثل الاله أنوبيس يشرف على تحنيط الجثة والاله ازوريس ممثلا على هيئة قائم يعلو تاج الاله ويحيط به على اليمين « تحوت » وعلى اليسار « ازيس » ولقد ثبتت اللوحة التى تحمل رسم الوجه في أعلا المومياء أمام مكان الرأس ، وهذه المومياء محفوظة في المتحف البريطانى

المتاحف كانت تملك منها عددا قليلا ، ولكنه لم يزد هذا العدد عن ١٠ لوحات ، ٦ منها في متحف اللوفر واثنتين في المتحف البريطانى واثنتين في متحف درسدن بألمانيا ، وكانت جميعها في حالة سيئة من الحفظ ، ولم تكن قد أثارت الاهتمام في نفس أحد من العلماء أو الفنانين ٠

ومنذ ذلك الوقت أصبحت منطقة الفيوم قبلة الباحثين وتجار العاديات ومن ثم علماء الآثار ، فمما يؤسف له حقا أن علم الآثار كان منذ أوائل القرن التاسع عشر وقفا على حفنة من الناس يمكن أن نطلق عليهم اسم ناهبى القبور ومخربى الآثار أمثال « جيوفانى ملزونى » والقنصل الانجليزى « سولت » والقنصل الفرنسى « دروونى » ، بل ان كثيرا من السياح الذين كانوا يقصدون مصر للنزهة والاستجمام لا يلبثون أن يدلوا بدلوهم في

البحث عن الآثار ويقوموا بالتنقيب عنها ويأخذوا معهم مايصل الى أيديهم • لقد بقي الحال فى مصر هكذا حتى أواخر القرن التاسع عشر وبعد أنقامت مصلحة الآثار والمتحف المصرى بدوريهما فى القضاء على الفوضى الشائنة التى كانت تخيم على مصر فى شئون البحث عن الآثار – أعود فأقول ان منطقة الفيوم أصبحت حقلا مثمرا بالنسبة الى البحث عن الآثار ، وفى الواقع عثر فيها على كنز ثمين من أوراق البردى وصل فى عدده الى ٢٠ ألف بردية كما عثر أيضا على كمية هائلة من اللخاف (أوستراكا) المكتوبة ، هذا غير المنسوجات الملونة والتى تزدان بأشغال الابرة الرائعة ، ثم تماثيل التناجرا الملونة الفاخرة •

ولعل القارىء يتساءل عن الأسباب التى جعلت منطقة الفيوم تموج بكل هذه الكنوز الرائعة ، وما هى أهمية الفيوم كواحة تبعد عن وادى النيل الخصيب ، وموقعها لم يساعدها مطلقا على أن تلعب دورا سياسيا أو دينيا مهما فى تاريخ مصر القديمة •

من المعروف ان تاريخ منطقة الفيوم التى كانت تكون الاقليم الحادى والعشرين من أقاليم مصر العليا فى العصور الفرعونية ، يبدأ منذ عصر الأسرة الثانية عشرة (أى منذ عام ٢٠٠٠ ق.م) ففراعنة هذه الأسرة ، كانوا أول من فطن الى أهمية هذه



لوحة تحمل صورة الوجه وقد ثبتت تحت اللفائف التى لفت بها المومياء وهى محفوظة فى المتحف البريطانى

الواحة التى تتوسطها بحيرة واسعة شاسعة يمكن بقليل من الجهد أن تستخدم كخزان هائل للمياه يغذى النيل بكميات من الماء فى أيام التحاريق تجعل الملاحة فيه صالحة على مدار السنة وتجعل الرى مستطاعا أيضا فى هذه الفترة ، ويحدثنا التاريخ عن السد الطويل الذى شيده ملوك الأسرة الثانية عشرة فحجز المياه فى البحيرة من ناحية ، كما حسرها عن رقعة كبيرة من ارض الفيوم أصبحت صالحة للزراعة بلغت فى مساحتها مايقرب من ٢٠ ألف فدان • ومنذ عصر هذه الأسرة أخذت الحياة تزدهر فى اقليم الفيوم ، واستمرت العناية موجهة اليه طوال العصر الفرعونى ، ثم ازدادت فى العصر البطلمى وذلك نتيجة للسياسة التى انتهجها ملوك هذه الأسرة واختيارهم للفيوم لتكون المنطقة التى تستقر فيها جموع الجند المرتزقة الذين سرحوا من الخدمة العسكرية ، فاقطعتهم الدولة أراضى واسعة ، فى الفيوم ليقوموا على زراعتها ، وهكذا تجمعت فيها أعداد كبيرة من اليونانيين لونوا الحياة فى العاصمة الاقليم بلون أغريقى ونقلوا الكثير من عناصر الحضارة اليونانية الى وطنهم الجديد وتقدمت سبل المدنية وازدهرت حتى أصبحت مدينة الفيوم أكبر منافس لمدينة الاسكندرية عاصمة البطالمة ، وزادت أهمية مدينة الفيوم فى عصر الملك بطليموس فيلاديلفوس (٢٨٠ ق•م) الذى بلغت عنايته بها أن أطلق عليها اسم زوجته « ارسينوى » ثم نشأت الى الشمال الشرقى من عاصمة الاقليمالتى أصبحت تعرف باسم « ارسينوى » مدينة أخرى تبعد عنها بما يقرب من ٢٠ كيلو مترا عرفت باسم « فيلادلفيا » •

وعندما دالت دولة البطالمة فى مصر وانتقلالحكم الى الرومانيين بقيت للفيوم أهميتها واستمرت عوامل الازدهار تهيمن عليها واحتفظت عاصمة الاقليم بمنافستها لمدينة الاسكندرية وتكاثرت أعداد الجاليات الأجنبية فيها وبخاصة الجالية الاغريقية ، ولو أن أهل المنطقة من المصريين كانوا يسيرون فى حياتهم اليومية على النمط المصرى محتفظين بتقاليدهم القديمة ، لايأخذون من الحضارة الحديثة الا القدر اللازم لاقامة التوازن بينهم وبين النازحين من الجاليات الأجنبية • وهكذا احتفظت لنا أرض الفيوم بكنوز من الآثار القيمة التى تركتها لنا مجموعة مختلطة من الناس تعددت حضاراتهم واختلفت نظم

حياتهم ، ولو أن هذه الحضارات كانت فى نهاية الأمر تنصهر فى بوتقة الحضارة المصرية الغلابة وينتج عن هذا الانصهار لون من الحضارة لاشك أنه يحمل بين طياته الكثير من عناصر الحضارة المصرية الأصيلة .

نعود الآن الى الحديث عن لوحات الفيوم لنقول بان المجموعة الضخمة التى فاز بها تاجر العاديات ، « تيودورجراف » عام ١٨٨٧ كانت كلها من منطقة الروبيات (فيلادلفيا) ، ونحن لانستطيع مطلقا التعرف على طريقة الدفن وطراز المقبرة فى الجبانة التى عثر فيها على هذه اللوحات ، وسبب ذلك أن هذه المجموعة كان قد عثر عليها جماعة من المزارعين أثناء نقلهم لكميات كبيرة من السماد العضوى (المعروف بالسماد الكفرى) من هذه المنطقة ، ولا شك أن تعبئة هذا السماد ونقله كانا يجريان بطريقة لايمكن معها التعرف على أى ناحية من النواحى الأثرية . الا ان الأثرى الذائع الصيت « فليندرز بترى » سجل لنا معلومات دقيقة عن الجبانة التى عثر فيها على الموميات المزودة بلوحات تصور وجوه أصحابها (أى بلوحات الفيوم) ، وذلك أثناء تنقيبه فى منطقة هواره بالفيوم . ومن تقاريره التى نشرها يبدو واضحا أن المقبرة التى دفنت فيها هذه الموميات ، اما أن تكون عبارة عن صالة منقورة فى باطن الأرض يتفرع منها عدة ممرات نقرت فى جدرانها مشكاوات تتسع كل منها لاحتواء مومياء ، أو توضع كل منها فى منخفض فى الأرض ينقر ليتسع لطول المومياء وعرضها ، وهذا النوع من المقابر كان قريبا من سطح الأرض لاتكسوه الا طبقة من الرمال يبلغ سمكها نصف متر . ولا بد أن هاتين الطريقتين كانتا متبعتين أيضا فى منطقة الروبيات (فيلادلفيا القديمة) .

ولاشك أن عملية التحنيط التى كانت تقوم على حفظ الجثة بعد تهيئتها باخلائها من الأحشاء والمخ ووضعها لمدة ٤٠ يوما فى ملح النطرون لامتصاص كل المواد الدهنية منها ، كانت تتم بملء الجثة بكميات كبيرة من مادة الراتنج والقار النباتى ثم تلف بعناية كبرى بعشرات الامتار من الأقمشة الكتانية ، هذه العملية كانت تصيب لوحات الوجوه بكثير من التلف وذلك عندما تطفوا كميات من مادة الراتنج بتأثير الحرارة الى السطح وتصل الى اللوحة الخشبية وتملأ مسامها وتكسو السطح المرسوم بطبقة رقيقة منه فتطمس معالم الصورة وتتلفها . وكنتيجة لهذا تهشمت وضاعت معالم الكثير من لوحات الفيوم ولو أن البعض منها لم تصل عوامل التلف فيه الى درجة كبيرة واستطاع « بترى » أن يرمم الكثير منها وبخاصة تلك التى استخدمت فى رسمها ألوان يدخل فى تركيبها شمع العسل .

واستعمل الفنانون فى تحضير الألوان المستخدمة فى رسم هذه اللوحات طرقا ثلاثة :

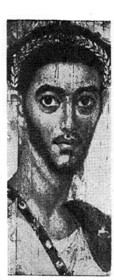
١ – شمع العسل

٢ – ألوان تمبيرا

٣ – ألوان التمبيرا ممزوجة بشمع العسل .

أما الطريقة الأولى فكانت تتم على أساس تحضير كمية من شمع العسل الأبيض وغليها على نار خافتة ثلاث الى أربع مرات مع اضافة كمية صغيرة من الملح على شمع العسل بعد كل مرة من الغليان ، على أن يترك الشمع بعد كل مرة ليبرد ويعاد غليه باضافة كمية الملح السالفة الذكر وعند الغلى تنزع من سطح السائل الشوائب المتجمعة . وعندما تنتهى هذه العملية يضاف الى الشمع المغلى كمية بسيطة اما من زيت الزيتون أو من سائل التربانتين Pistacia Jerebinthus ، وهكذا تتكون مادة لينة ذات لون يميل الى البياض وتمتاز بلزاجة معينة يسهل معها مزجها باللون المطلوب . وواضح أن هذه الطريقة لم تساعد الفنان للوصول الا الى الالوان الأصلية ، واذا أراد استعمال الألوان التى تحتاج الى مزج بين أكثر من لون من الألوان الأصلية فكان يصل الى غرضه بأن يمزج كميات صغيرة من عجينة لونين أو أكثر ، وصحنها سويا صحنا متواصلا حتى يتم الامتزاج ، ولكن لاشك أن هذه العملية كانت تنتج اللون المطلوب على أساس أن ذرات كل لون من الألوان المزوجة تبقى منفصلة بعضها عن البعض الآخر ، ولو انها فى انفصالها لا تبدو واضحة للعين المجردة ، بل تراها العين البشرية فى لونها الذى يطلبه الفنان .

أما الطريقة الثانية ، طريقة التمبيرا فكانت تتم على نفس الأسس المستعملة حتى وقتنا هذا ، أى باستعمال بياض وصفار البيض كمادة لزجة لتحضير الألوان ويمزج بعضها بالبعض الآخر .



وجه لشاب من المحاربين
فى متحف برلين

أما الطريقة الثالثة ، فكانت تتم باضافة كمية بسيطة من بياض البيض الى الألوان التى حضرت بواسطة شمع العسل ، وهذه الطريقة تساعد الفنان على أن يستعمل فى رسمه ألوانا سائلة فيسهل عليه الانتهاء بسرعة من عمله ولكن يتضح بأن اللوحات التى استعملت فى رسمها هذه الطريقة قد بهتت ألوانها بل فى كثير من الأحيان اختفت الكثير من معالمها ٠

وأكثر صور وجوه الموميات كانت ترسم على لوحات خشبية طولها يتراوح بين ٥٠ سم و ٣٠ سم وعرضها يتراوح بين ٣٠ سم و ٢٠ سم وسمكها بين ١٠ مليمتر و ٢ مليمتر ، وكان الفنان يبدأ بصقل السطح صقلا طيبا ومن ثم يغطى هذا السطح بطبقة رقيقة من سائل يتكون من مزيج الغـــراء الأبيض والجبس ، ولو أن بعض هذه اللوحات رسم عليهـا دون اعدادها بالطريقة السالفة الذكر ٠ ومن الملاحظ أن الفنان كان يختار اللوح الخشبى بحيث تمتـــد تعاريج الخشب امتدادا أفقيا ٠ وأنواع الخشـــب المستعملة كانت : خشب الجميز أو اللبخ أو الأرز ، وقليل منها من خشب الزيزفون ٠

واذا كان معظم صور وجوه الموميات قد رسمت على لوحات خشبية كما سبق القول ، فهناك قلة منها رسمت على قماش سميك من الكتان ثم يلصق القماش بعد ذلك على لوحة خشبية ٠ وفى كلتـــا الحالتين كانت توضع الصورة فى فتحة تترك خصيصا لهـا أثناء لف المومياء باللفائف الكثيرة ، وتكون هـذه الفتحة أمام مكان الوجه تماما ، وتبدو هكذا لو كانت تطل من نافذة ٠

لقد قلت فى بداية هذا المقال ان صـــور وجوه الموميـات ترجع فى عصرها الى القـرون الأولى من العصر الميلادى ، وفى واقع الأمر هذه نقطـــة طال الجدال عليها وكثرت النظريات فيها ولم نصل فيها الى رأى حاسم أو الى نتيجة محددة ٠ ولعل السبب فى ذلك هو عدم العثور على أى تاريخ مسجل فوق احدى هذه اللوحات ، ومن أجل ذلك حاول العلماء ان يؤرخوا ظهورها واختفاءها معتمدين على قرائن لاتسمو مطلقا الى حد الدلائل ، بل بالعكس لعـــل الكثير من هذه القرائن يتعارض احداها مع الأخرى ٠

فمثلا يود البعض أن يجعل من عام ١٣٠ ميلادية بدء ظهور عادة تزويد الموميات بصور الوجـــوه ، اعتمادا على مجموعة الصور التى عثر عليهـــا فى جبانة شيخ عبادة (أنطينيوى القديمة) ، وهى المدينة التى شيدها الامبراطور « هادريان » الرومانى وأمر أن يعبد فيها غلامه « أنطينوس » الذى كان قد غرق فى النيل أثناء زيارة الامبراطـور لمصر ، وهى الزيارة التى حدثت عام ١٣٠ م ، واصحاب هذا الرأى يرون فى العثـور على مجموعة من صور وجـوه الموميـات فى مقبرة حاكم طيبـة الرومانى المدعـو « يوليوس سوتر » والمعاصر للامبراطور « هادريان » قرينة تساعد على الأخذ بنظريتهم التى تجعل من عام ١٣٠ م بداية ظهور هذا الفن فى مصر ، سواء فى الفيوم أو فى طيبة أو فى شيخ عبادة

وليس من شك فى أن الاعتماد على هذه القرينة فيه مآخذ كثيرة ، وخاصة اذا علمنا أن جبانة « تونة الجبل » وهى فى نفس منطقة شيخ عباده ، واستمر الناس يستخدمونها طوال العصر الرومانى فى مصر ، لم تعثر بعثة جامعة القاهرة فيها على صورة واحدة لوجه مومياء ، بل الطريق المتبعة فيهـا كانت وضع قناع من الكتان المقـوى تكسوه طبقة من الحصى الأبيض ويلون الوجه المجسم بألوان مختلفة ، ولقد عثرت البعثة على مئات من هذه الأقنعة ٠ واذا كان الأمر كذلك فلابد أن تكون عادة رسم وجوه الموميات قد ظهرت أول ما ظهرت فى منطقة الفيوم فى عصر سابق لعصر « هادريان » (أى ١٣٠ م) ، ولابد

أيضا أن يكون أصحاب هذه اللوحات التى عثر عليها سواء فى شيخ عبادة أو من أسرة « يوليوس سوتر » فى طيبة ، كانوا فى الأصل من أبناء الفيوم ولكن ظروف الحياة جعلتهم ينتقلون الى مناطق أخرى وعند وفاتهم نفذوا التقليد السائد فى بلدهم حيث ولدوا .

البعض الآخر يحددون أواخر القرن الأول قبل الميلاد وأوائل القرن الأول الميلادى كبدء لظهور عادة تصوير وجوه الموميات ، وهذا البعض يعتمدون فى تاريخهم على طريقة تصفيف شعور السيدات ، فمنها مايشبه « موضة » تصفيف الشعر فى عصر أغسطس ، ومنها مايشبه الموضة « الشائعة فى عصر كلاوديوس »

أما العصر الذى انتهت فيه هذه الطريقة ، فلقد اتفقت الآراء على أن هذه اللوحات أخذت فى الاختفاء ابتداء من منتصف القرن الرابع الميلادى .

* * *

أما وقد انتهيت من الحديث عن هذه اللوحات من الناحية العلمية ، مؤرخا لها وموضحا العوامل النى دفعت الى اظهارها فى هذا الاطار ، فعلى الآن أن أتحدث عن فنها والأسلوب الذى اتبعه الفنان فى رسمها ، وهذا أمر تنوء به ثقافتى غير الفنية ، وعلى كل حال سأحاول فى حديثى عن فن لوحات الفيوم أن أعبر فقط عن انطباعاتى ومشاعرى الشخصية التى لاتقيدها بعض التجارب الفنية ، فأعترف أنى لم أمارس الفن فى مرحلة من مراحل حياتى .

هناك بعض النقاط أحب أن أبرزها قبل التحدث عن فن لوحات الفيوم :

أولا : هذا الفن نشأ وازدهر فى منطقة لم تلعب دورا سياسيا مرموقا ، كما أنها لم يكن لها تأثير قيادى فى أى ناحية من نواحى الدين الرسمى للبلاد، ونحن نعلم أن الدين الرسمى السائد فى هذا العصر الذى يبدأ بأسرة البطالمة (٣٣٢ ق.م) وينتهى بتدهور الحكم الرومانى وبدء استقرار الديانة المسيحية والاعتراف الرسمى بها أى حوالى نهاية القرن الرابع الميلادى ، كان هذا الدين مستمدا من ديانة الاغريق ثم من ديانة روما ، بالنسبة للطبقات الحاكمة فى البلاد ، بينما بقى الدين المصرى القديم دينا للشعب المصرى الكادح العامل ، الذى وان تأثر بمظاهر الحضارة الجديدة فهو لم يسمح مطلقا لهذه المظاهر أن تؤثر على عقيدته الدينية والجنازية .

ثانيا : لقد كانت التقاليد المصرية السائدة طوال العصور الفرعونية ، ولا بد أنها استمرت بعد ذلك أيضا فى العصرين البطلمى والرومانى ، كانت هذه التقاليد تحتم أن يكون الفن فى العاصمة الأولى وكذلك فى عواصم الأقاليم ، خاضعا للقيود والقوانين الفنية المتوارثة ودليلنا على ذلك تلك المعابد التى شيدها ملوك البطالمة وأباطرة الرومان فهى تعتبر صورة طبق الأصل فى طرازها المعمارى وأسلوبها الفنى ، مما اعتاد الفراعنة فى مصر تشييده من معابد ، فى حين اطلق الفنانون فى الأقاليم العنان لسجيتهم وأحاسيسهم الفنية ، غير مقيدين بقواعد وقوانين الفن السائد فى العاصمة ، حدث هذا فى أهم العصور الفرعونية واكثرها تزمتا ، حتى اننا نستطيع التمييز بين مافى العاصمة ومافى الأقاليم فى عصر الدولة القديمة والوسطى والحديثة من التاريخ الفرعونى .

ثالثا : اذا كان الأمر كذلك ، فأولئك الفنانون الذين قاموا برسم هذه اللوحات قد نفذوها بعيدين وغير متأثرين بالتقاليد الفنية الرسمية السائدة فى مصر حتى العصر الرومانى ، كما أنهم قاموا بتنفيذها لمجموعة من الناس ، وان اتصف بعضهم بالثراء ، فقدكانوا جميعاممن لم يحظوا بنفوذسياسىأو ادارى ، وهناك دليل على ذلك وهو أن من بين مئات اللوحات التى عثر عليها فى الفيوم ، عشرون ممهورة باسماء أصحابها ثلاثة منها : ديمتريوس الترزى وهيرميتون المدرسة ، ثم هناك لوحة ثالثة : باسم هرون بن أمرنيوس مدرس الفلسفة . وهذه المهن كلها تدل على أن أصحابها ليسوا من ذوى النفوذ السياسى أو الادارى وبالتالى لاعلاقة لهم بالعاصمة الاسكندرية .

رابعا : والآن لابد لنا أن نتعرض لنقطة هامة : هل كان أصحاب هذه اللوحات من المصريين ، أم كان من بينهم بعض الاغريق والرومان الذين استوطنوا اقليم الفيوم ؟ لقد سبق القول أن اقليم الفيوم منذ بطليموس الثانى « فيلادلفوس » كان يموج بجاليات أغريقية وأخذت هذه الجاليات تتعدد وانضمت اليها جاليات رومانية فى العصر الرومانى .. ومن المعروف أن الاغريق القدامى لم يعتنقوا فكرة الحياة الثانية وأبديتها بالطريقة التى اعتنقها المصرى القديم وبالتالى لم تحو تقاليدهم الجنازية

حفظ الجثة بتحنيطها أو تزويدها بتماثيل جنازية أو بأقنعة تغطى جثث الموتى تحفظ ملامحها • ومن المعروف أيضا محافظة الجاليات الاغريقية فى كل بلد حطت فيه : على تقاليدها سواء الدينية أو الجنازية أو فى حياتهم اليومية • هذا أمر نلاحظه حتى يومنا هذا بين الجاليات اليونانية فى مصر •

أما الرومان فقد اتبعوا مع موتاهم طريقة معقدة ، يبدأونها بحفظ الجثة لمدة معينة فى صحن الدار ، وكانوا يقومون بصب قالب جصى أو من الشمع لراس الميت ووجهه Imagines maiorum يثبتونه فـــوق التابوت الذى تحفظ فيه الجثة ، واذا ما حان وقت الدفن أو حرق الجثة ، يحتفظون بالقـــالب الجصى أو الشمعى فى صحن الدار ، واضـــعين اياه فى صندوق خشبى واجهته تصمم على هيئة واجهـــة المعبد وهكذا لم يتبع الرومان عادة حفظ الجثـــة بالتحنيط وتزويدها بالقناع او بالصورة المرسومة .

❋ ❋ ❋

يبدو لى بعد التوضيحات السابقة أن ليس لنا الا أن نأخذ بالرأى الذى يقول بأن فـــكرة اللوحات المرسومة لوجوه الموتى فى الفيوم ، تمثل عادة مصرية لعلها الحلقة الأخيرة من سلسلة تطور عقيدة الحياة بعد الموت . وهى العقيدة التى هيمنت على عقـــل المصرى القديم منذ أول التـــاريخ (٣٢٠٠ م) وتطورت بتطور حضارته ولازمته حتى حين بـــدأ يعتنق الديانة المسيحية ، بل لازالت الكثير من هذه التقاليد الجنازية تلازمنا حتى الوقت الحاضر وبعد أن انقطعت الصلةالروحية وانعدمت أحاسيسنا بالنسبة الى ماضينا الغارق فى القدم ، أقصد بذلك عادات « الندابات » فى المآتم ، و « الطلعة » الى المدافن ، وتوزيع المآكل « رحمة ونور علىروح الميت » وذكرى الأربعين باقامة سرادق يتوافد عليه الأصـــدقاء والأقارب بل أكاد أعتقد أن عادة اقامة قداس جنزى فى الكنائس على صورة زيتية أو فوتوغرافيـــــة :لآن للميت ليست الا تكملة لعادة مصرية قديمة ، ظهرت عند أهل الفيوم فى اللـــوحات المرســـومة موضوع هذا المقال •

واذا كانت هذه اللوحات قد رسمت لأصحابها من المصريين ، فهل الفنانون الذين رسموها كانوا من المصريين أم كانوا أجانب ؟

نعرف عن الأغريق أنهم رسموا صورا لبعض الشخصيات متبعين فى ذلك طريقـة مزج الألوان بواسطة شمع العسل ، حقيقة لم تصل الينا صورة واحدة من هذا النوع ، الا أن الكثيرين من الكتاب نوهوا بهذه الصور فى كتاباتهم ـ هناك أغنيـــة لاغريقى اسمه « أنا كريون » عاش فى القـــرن السادس قبل الميلاد : « ارسم لى عشيقتى ، ارسمها بضفائرها الداكنة ، واذا استطاع الشمع أن يلين بين يديك فارسم أيضا رائحة الطيب الذى يفــوح منها » ، ونذكر هنا أيضا ما قاله أفلاطون :

« ولقد علقت أحداث هذه القصة فى نفسى ، كما لو كانت مرسومة بالشمع »

واذا كانت هذه الصور المرسومة بالشمع قـــد اختفت تماما ولم يصل الى أيدينا نموذج واحد منها، فقد تبقت لنا نماذج لاحصر لها من روائع فن النحت الاغريقى ، ومنها تعرف أن الفنان الأغـــريقى كان لايهدف الى تسجيل ملامح الشخص بعينه بل كان يرنو الى تخليد بعض المعانى والتعابير المثالية فى هذه الملامح ، كانت تماثيله تنحت لمشاهير الناس من الشعراء وقواد الحـــــروب ورجـــالات الدولة من السياسيين والحكام ، ويحاول قدر استطاعته أن يبرز على ملامح الوجه العظمة ، وعلو المحن والذكاء الخارق ، أن يسجل هذا كله فوق اطار ما يجب أن يكون ولكن ليس كما هو فى الواقع الدنيوى • بل أكثر من هذا وصلت الينا الكثير من التماثيل التى تركها لنا بعض الفنانين من الاسكندرية والتى تمثل بطريقة كاريكاتورية بعض الشخصيات التى عاشت فى هذه العاصمة فى العصر الهيلينستى مثـــــل الشحاذين والمشوهين والأحادب ، نجد أن الفنان هنا حاول تمثيل الفـكرة دون تسجيل لشخصيات بعينها ، لقد سجل فى الواقع معانى كثيرة منهـــا المرض والقبح وما يرتسم على ملامح ذوى الأعضـــاء المشوهة من معالم تبعث على التهكم •

أما الرومان فقد عرفوا القوالب المجســـــمة من الجص او الشمع للموتى كما سبق القـــول ، وهى وان حفظت ملامح الشخص بكل دقة ، فقد حفظتهـــا كملامح شـــخص مات ، ذهبت عنه حيوية الملامح الحية لانسان بعينه .

يتضح مما سبق ان ليس فى استطاعتنا ان ندعى بأن لوحات الفيـــوم قد رســـمها فنانون اغريق أو

فنانون رومان ، بل لا بد أن قام برسمها فنانون مصريون . وان كانوا قد استعملوا فى رسمها قواعد الرسم للمدرسة الفنية الجديدة التى كانت قد هيمنت على الفنون فى الشرق الأدنى الا وهى المدرسة الاغريقية .

نحن نعلم كيف اضطر المصرى عندما دالت دولة الفراعنة وتلقفت دولة البطالمة علم القيادة فى البلاد (٣٢٢ ق.م) ناشرة مظاهر الحضارة الاغريقية فيها ، كيف اضطر المصرى أن يفتح صدره لمظاهر هذه الحضارة الجديدة فتعلم اللغة اليونانية وتعبد الى الهة القدامى بعد أن أخذت أسماء اغريقية أمثال « هرمس = تحوث » و« سيرابيس = أوزيرابيس» و « زيوس = آمون » و « حاتور = افرديت » الخ، .. كما مارس الفنان فنه فى الرسم والنحت متخذا قواعد الفن الاغريقى . واذا كانت مظاهر الحياة المصرية قد تكونت بالحضارة اليونانية ، الا أن ذلك لم يزد على حياة الناس وممارستهم لشئونها فى الاطار الحضارى الجديد ، أما اللب فقد بقى مصريا قحا سواء فى العقيدة أو فى التقاليد .

واذا كانت لوحات الفيوم قد خرجت عن الاطار الفرعونى القديم ، الا أنه من الواضح تماما أن الفنان كان فى قرارة نفسه ملتزما بعض القواعد الفنية الفرعونية ، فقد حاول أن يبرز ملامح الشخص وخصائص هذه الملامح دون أن يعتمد كثيرا على تفاصيل أناتومية تشريحية . والدارس للفن المصرى القديم يعرف أن الفنان قد استطاع بسهولة واضحة أن يبرز الكثير من معالم الشخصية دون الاعتماد على التفاصيل التشريحية ، وهذه هى عظمة الفنان المصرى القديم والاعجاز الذى وصل اليه فى روائعه الفنية .

وان نظرة نلقيها على هذه اللوحات (ولدينا منها مايقرب من خمسين لوحة محفوظة فى المتحف المصرى لتدلنا على المهارة التى سجل بها الفنان التعبيرات الشخصية لصاحب كل وجه وعلى القدرة على تسجيل الجانب الانسانى لكل فرد ، ولست أخفى عن القارىء تجربة مثيرة حدثت لى منذ أن عنيت بدراسة هذه اللوحات . لقد عرضت صورها على كثير من أقاربى وأصدقائى ، وهم من مستويات ثقافية مختلفة ، ومن بينهم من له باع كبير فى الفن والرسم بالذات ، ولا حظت أنهم جميعا رأوا فى كل صورة شبها عجيبا لمصريين معاصرين من أهل الريف أو من سكان العاصمة ، وكان الشبه أوضح بالنسبة للسيدات .

حقا لقد استطاع فنانو لوحات الفيوم أن يسجلوا لنا بطريقة بسيطة ودون اعتماد على تفاصيل الوجه من الناحية التشريحية ، رسوما لأفراد عاشوا منذ مايقرب من الفى عام نكاد نتعرف على شخصيتهم ونستشعر صفاتهم بل نحس بأنهم من أبناء هذا الوطن وان أحفادهم لا يزالون يعيشون بين ظهرانينا حتى الآن .

بقى علينا الآن أن نذكر نقطة طال عليها النقاش ، وهى هل كانت هذه الصور ترسم لاصحابها بعد موتهم مباشرة وفى الفترة الطويلة التى تحنط الجثة ابانها ، أم كانت ترسم أثناء الحياة ؟ ان أولئك الذين يدافعون عن نظرية رسم الصور بعد الموت يعتمدون على دليلين ، أولهما العثور على الجانب الخلفى لاحدى اللوحات على قائمة مكتوبة بخط سريع يذكر فيها الفنان أهم المميزات لملامح الوجه ، أما الدليل الثانى فهو أن بعض هذه اللوحات شكلت بحيث تتفق مع الفتحة التى تترك عند لف المومياء فى لفائفها بعد التحنيط وهى الفتحة عند مكان الرأس تماما .

الا أن البعض الآخر يؤكد أن هذه اللوحات ترسم لأصحابها أثناء حياتهم بل وتمثلهم غالبا وهم فى عنفوان شبابهم وهم يعتمدون فى ذلك على الادلة الآتية :

أولا : عثر بترى فى هوارة على مومياء وجد أسفل اللوحة الخشبية التى رسم فوقها وجه صاحب الجثة ، عدة فضلات خشبية تكمل الجوانب الناقصة من اللوحة ، وهذا يدل على أن القائمين على التحنيط عند تسلمهم اللوحة الخشبية قاموا بتقليل مساحتها واعدادها بشكل يتفق مع مساحة الفتحة المخصصة لها ووضعوا الاجزاء المنتزعة منها تحت اللوحة وبين اللفائف الكتانية .

ثانيا : معظم لوحات الفيوم تتفق فى ظاهرة واحدة وهى أن أطرافها عدلت بطريقة خشنة لتتفق فى مساحتها مع الفتحة المعدة لوضعها فوق وجه المومياء

ثالثا : عثر بترى على لوحة مستطيلة لم تعدل أطرافها ولم يضعها المحنطون فى مكانها لسبب

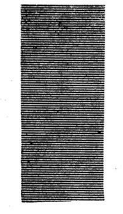
لاندريه ، بل اكتفوا بوضعها فوق المومياء ، وهذه اللوحة تحوى فى أطرافها العليا فتحة مستديرة لاتزال بها بقايا قطعة من حبل رفيع ، لاشك كان قد زودت به اللوحة لتعليقها منه ·

والواقع يدل على أن هذه اللوحات قد تميزت بلمسات فنية صادقة تبرز أصحابها فى اطار من الحيوية ، بل تكاد العيون ترسل اشعاعا من الحياة والملامح تتحدث بأوصاف أصحابها وأخلاقهم بحيث لايستطيع الفنان ان يظهر هذا كله فى صورة رسمها من الذاكرة أو من بعض الأوصاف التى يسجلها بعد سماعها من أقرباء الميت بعد الوفاة · ان هذه اللوحات لابد ان كانت ترسم لأصحابها أثناء حياتهم ثم ترسل بعد ذلك الى المحنطين لوضعها فى المكان المعد لها ·

لقد كانت هذه اللوحات نابعة من صميم الحياة المصرية ، ورسمت من أجل هدف جنازى لازم الحضارة المصرية منذ أول العصور ، وبقيت جذوره حية واضحة فى نفوس المصريين الى درجة أن المصرى حين اعتنق الديانة المسيحية لم يجرؤ مطلقا أن يأخذ بفن « الايقونات » ، وهو فن ذاع صيته وانتشر فى أوربا المسيحية منذ القرن السادس الميلادى ويقوم على رسم صور القديسين على لوحات خشبية ، وأكاد أعتقد أن هذا الفن لم يظهر فى مصر المسيحية الا منذ القرن الثالث عشر الميلادى نظرا لاعتقاد المصرى أن الرسم على اللوحات تقليد موقوف على رسم وجوه الموتى فقط ولا يصح مطلقا تطبيقه على الرسل والقديسين الذين تحتم الديانة المسيحية اعتبارهم أحياء لايدخلون فى زمرة الموتى ·



هكذا كانت تحنط المومياء فى مصر ابان العصر الذى ظهرت فيه لوحات الفيوم يثبت قناع يغطى راس الجثة ومشكل على هيئة راس ورقبة ويدان تبدوان من اللفائف ، ويتضح من الصورة أن فن صناعة الاقنعة كان قد تدهور واضمحل اذا قورن بما كانت عليه هذه الاقنعة فى العصور الفرعونية



القيمة الفنية للوحات الفيوم

بقلم:
الدكتور نبيه كامل

يدهش زائر المتحف المصرى اشد دهشة لرؤية لوحات زيتية عديدة أقحمت على الفن الفرعونى . لون من النشاط الفنى ظهر فجأة بلا مقدمات تربطه بما سبقه من فنون . لون من النشاط الفنى ولد ناضجا معبرا كأنما تكلم فى المهد ، بلغة جديدة لا يفهمها الفن المصرى العتيد . أطلق الأثريون الأجانب عليه اسم الصور الرومانية أو اسم لوحات الفيوم . واهمل ، شأنه شأن كل فن غير شرعى تنقصه عناصر الاصالة والنسب العريق .

ظهر هذا الفن ، لسوء الحظ ، فى فترة تعتبر فترة ضعف وانحلال الحضارة المصرية ، الفترة التى فقدت فيها مصر الفرعونية استقلالها السياسى وحكمها الأجانب كالبطالسة والرومان وتأثرت فيه الحضارة المصرية بحضارات أجنبية ــ كما تأثرت من قبل فى عصر اخناتون ــ ولسوء الحظ أيضا أن عثر على هذه اللوحات الفيومية فى أوج العصر الامبراطورى فى أوربا الذى مجد الفنون الملوكية واعتبر أن فن كل العمارنة اصيل لأنه فن ملوكى وفن الفيوم شعبى نحيل رخيص . فن جاء ليرضى أصحاب الجيوب الخاوية الرعاع الذين يسعون دائما، وفى كل عصر ، الى تقليد السادة الحكام فان لم يكن فى استطاعتهم شراء قناع ثمين للتابوت فلا بأس من لوحة خشبية رخيصة يخدع بها الآلهة فيمنحون الراحل حياة أبدية .

وهكذا دخلت لوحات الفيوم التاريخ من باب الخدم ، فن جلف ، تقليد للصور الرومانية الواقعية التى عنى فيها الفنان بتسجيل تقاطيع الوجه بكل دقة وأمانة ففشل فشلا ذريعا ، تسجله عليه هذه اللوحات التى بعدت كل البعد عن الواقعية المادية الرومانية وبعدت كل البعد عن القناع الجنائزى التقليدى .

مما لا شك فيه أن عثر على هذه اللوحات فى توابيت موتى مصريين ، لا هم فرس ولا بطالسة ولا رومان ، وانما مصريون يؤمنون بأن الحياة الآخرة حق ، وان تخليد صورة الميت بوضعها على تابوت ركن من اركان ذلك الايمان لا يجوز الخلود لأحد بدونه ــ ومن هنا صح القول بأن لوحات الفيوم لأشخاص مصريين . ولكن هل كان المصور أيضا مصريا يشارك المصريين عقائدهم وخصوصا الجنائزية أم كان بطلميا أو رومانيا ؟

يبدو انه قد ظهر هذا الفن فى نحو القرن الأول قبل الميلاد واستمر الى منتصف القرن الرابع الميلادى كما يخبرنا الأثرى العلام ابو بكر ــ اى انه استمر نحو خمسة قرون ، قامت خلالها حضارات وسقطت حضارات وكانت ارض مصر مسرحا هاما . لذلك الصراع الحضارى ومع ذلك فلم يظهر فن التصوير الزيتى فى بلد غير مصر . فان كان فنا دخيلا جاء به فنانون أجانب فأين آثارهم فى البلاد التى جاءوا منها ؟

ظهر هذا الفن فى منطقة الفيوم لا لأن بعض سكانها كانوا أجانب ولكن لأن الفيوم لم تكن عاصمة يتحتم على فنانيها الخضوع للفن التقليدى بل اقليم بعيد عن سلطان الحكومة المركزية ومن ثم يستطيع فيها فن حديث أن يحيا فى جو من الحرية .

تدل المشاهدة ، ولا اقول التاريخ أو قوانين السلوك البشرى ، على أن الحكم الأجنبى مهما تغلغل فى حضارة شعب لا يجسر على التدخل فى تقاليد أمور ثلاثة هى الميلاد والزواج والوفاة . من المحتمل

جدلا ان يكون مصورو لوحات الفيوم أجانب وان كنا نستبعد كثيرا ان تشتغل فئة أجنبية فى أعمال هى من صميم العقائد الجنائزية عند المصريين ، عقائد لم يشاركهم فيها بحال غيرهم من الشعوب .

وبعد ، فهل لهذه اللوحات المصرية قيمة فنية بغض النظر عن قيمتها التاريخية الفريدة ؟

تتميز هذه الأعمال بخصائص أهمها :

انها تسجل الوجوه من زوايا متعددة ليس فيها الزاوية الجانبية وانها لا تعتمد على الخط وانها تخضع لقواعد المنظور وانها صور زيتية . وهى خصائص لا تشارك فى أبهى الفن المصرى التقليدى ، وكأنما تعمدت الا تشاركه الا فى التعبير .

سجلت هذه اللوحات وجوه الأشخاص اما مواجهة للمصور مواجهة تامة وهذه قلة واما ظهر فيه ثلاثة ارباع الوجه من الزاوية اليمنى او اليسرى ويلاحظ اننا لم نعثر فيما عثرنا على صورة واحدة سجل فيها الوجه جانبيا Profile وهى الزاوية التقليدية للرسوم الحائطية الفرعونية فى مختلف عصورها (الا صورة واحدة جاءت فى مقبرة .. فيها عازفتان على القيثارة) فهل كان هذا جهلا من المصور بتقاليد الفن ؟ اضف الى هذا ان الفنان لم يعتمد على الخط فى حين كان الخط هو العنصر الأساسى فى التصوير التقليدى . اذ ليست هذه اللوحات رسومات ملونة كالتى نجدها فى مقابر الملوك والأشراف وانما هى صور كان العنصر الأساسى فيها اللون لا الخط ومن هنا كان لزاما على المصور أن يرفض تمثيل القريب والبعيد فى بعدين بالأسلوب التقليدى ويركن الى استعمال قواعد المنظور ، اى فى أبعاد ثلاثة والتى لم تدخل فن التصوير الغربى الا بعد الف سنة أى فى عصر النهضة .

فهل كان هذا أيضا جهلا بأصول الفن ام تحديا له وثورة عليه ؟

نحن نعلم انه كان — ولا زال — على فنانى القصور ان يلتزموا أسلوبا تقليديا وأن يعبروا عن عواطف تقليديه لا يستطيعون الخروج عليها وطالما كان على الفنان ان يلتزم أسلوبا تقليديا كان عليه أن يكتسب مهارة معينة فيدرس التشريح وأصول الرسم الاكاديمى أما اذا اراد الفنان أن يعبر عن عواطف غير تقليدية أو شعر بقصور الأسلوب التقليدى عن التعبير عنها ثار عليه وابتدع أسلوبا جديدا كما حدث فى أوروبا فى أواخر القرن الماضى عندما ظهر الفن التأثرى .

قامت الثورة الفنية اذن فى الفيوم لأنه لم يكن من المستطاع أن تقوم فى العواصم التى يسكنها الطبقات التى تساند الحكم الأجنبى . قامت الثورة الفنية لأن الفنون الجنائزية كانت قد فقدت روحها وانحط أسلوبها الى درجة فقدت معها وظيفتها الأولى — وهى خلق صورة ابتداعية للراحل الحى فى العالم الآخر حتى أصبح القناع مجرد وجه رجل « أو وجه امرأة » .

ثار المصريون اذن على ذلك الفن الجنائزى وحمل لواء الثورة الفنان المصرى ، فخلق فنا جنائزيا جديدا فى أسلوبه قديما قدم الأسرة الرابعة فى تعبيره .

جاءالفن المصرى فى أسلوب تقليدى واحداستطاع الفنان المصرى ان يؤدى خلاله وظيفتين مختلفتين فى التعبير . ونطلق على الوظيفة الأولى « فن الحياة الدنيا » واظهر فيه الفنان الفرعون ، رجلا ذا قوة وبطش ، له مطامع وشهوات ، واظهر فيه الكاهن او الكاتب كانسان حى يعنى أشد العناية بأمور هذه الحياة . ومن هذه تماثيل وصور الفراعنة فى معابدهم . واما الوظيفة الثانية فهى « فن الحياة الأبدية » أو الفن الجنائزى وفيه يعبر الفنان عن حال الراحل فى العالم الآخر . فالفرعون هنا كائن أبدى لا غرائز له ولا شهوات وانما روح خالد ينعم فى سعادة سرمدية . يبدو هذا الفرق بين الفنين — وان اشتركا فى الأسلوب — اكثر ما يبدو ان قارنت بين — على سبيل المثال — تمثال توت عنخ آمون الخشبى الملون وبين قناعه الجنائزى الذهبى.

يتميز هذا الفن الجنائزى بأنه يمثل الانسان وقد انقطع بينه وبين هذا العالم كل سبب ، فهو لايعيش بيننا ولا فى دنيانا وانما يحيا فى عالم آخر . فالعينان مثلا قلما تنظران اليك وان نظرا فانما ينظران خلالك الى أشياء لا نراها نحن الأحياء ، أشياء جميلة جمالا يفوق جمال كل ما تراه العين ، جمالا مثاليا . وأكثر من ذلك ، يمتاز هذا الفن بالقدرة على جذب الأحياء منا الى ذلك العالم المجهول الذى لا نراه فنحيا فيه بقلوبنا لحظات معدودات نعود بعدها الى عالم الواقع المحسوس .

هذه الصفات الثلاث لازمة لكل عمل فنى وهى انه يخلق عالما جديدا يحيا فيه الموضوع حياة مثالية ويستطيع أن يجذب الى عالمه ذاك غيره من الأحياء .

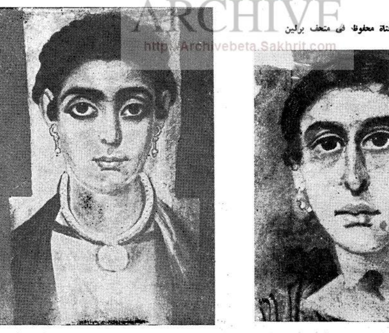
تبدو هذه الصفات الثلاث فى كل عمل فنى رائع بغض النظر عن العصر او الثقافة التى أوجدته . فتراها فى قناع توت عنخ آمون وفى الموناليزا ، وفى

صورة الملك لروو وصورة رمبرانت لنفسه (اكس ان بروفنس) ولاتراها فقط فى صور الأشخاص بل وفى صور المجموعات أيضـا فلوحة الصلب لالجريكر وجورنيكا لبيكاسو وتعبد المجوس لدافنشى والقضاة الثلاثة لروو وغيرها الكثير . انه فى صحبة هؤلاء نضع الفنان المصرى الذى صور لوحات الفيوم اذا وضعت مائة لوحة رائعة جنبا الى جنب لاخترت منه ثلاثة أو اربعة أما اذا عرضت عليك اربع لوحات فقط قدرت قيمة كل تقديرا حقيقيا . وهكذا الحال فى لوحات الفيوم ان عرض اربعين أو خمسين منها جنبا الى جنب يفقدها قيمتها الفنيـة ولكن ان اخترت منها أربعة أو خمسة تبدت عظمتها الفنية واحتلت مكانتها الرفيعة بين روائع الفن العالمى ، بأنها طلائع فن التصوير الزيتى الذى أنجب دافنشى ورمبرانت وسيزان .

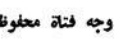
ليست لوحات الفيـوم بديلا رخيصـا للقنـاع الجنـائزى لأن التعبير الفنى الذى تحويه هـذه اللوحات الزيتية لم يعد فى اسـتطاعة القناع أن يحويه . وليست لوحات الفيوم فنا مبتذلا ضعيفا لأنها خلت من عنصر الخط الذى امتـاز به الفن المصرى . ان خلو هذه اللوحات من الخط ليست قصورا ولا جهلا وانما ثورة عارمة حطمت قيـود تقليد فنى قاس واودت به الى حين . قرر فنـان الفيوم الغاء الخط لأنه لم يعد أداة صالحة لتحقيق رسالة الثورة الفنية .

لقد نادت الثورة الفنية بأن يحل المضمون محل التكوين ويحل الروحى العميق محل المادى القريب فحل اللون محل الخط حتى تبدو الوجوه ديناميكية راسخة فى مكان غير هذا المكان . استلزمت وظيفة الفن الحديث ظهور أسلوب فنى حديث فخلق لنـا الفنان المصرى فن التصوير الزيتى فى أبعاد ثلاثة .

فان كانت لوحات الفيوم قد اختفت فى منتصف القرن الميلادى فان فن التصوير الزيتى حى لا يموت ظهر ثانية فى الفن القبطى ومنه الى البيزنطى ثم الى سائر أنحاء العالم . ولا زالت روح فن الفيـوم والصفات المميزة له هى المعايير التى تقيم بها الفنون التشكيلية فى مختلف الحضارات وعلى مر الدهور .



وجه فتاة محفوظ فى متحف معهد الفنون بمدينة ديترويت



وجه فتاة محفوظ فى متحف برلين



حيـــاتى ظـــلال
وطيف خيـــال
وذكرى غرام ·· وشـعر ·· وغيـد

*

حيـاتى زهـر بروض نضـير
تهدل فـوق ضـفاف الغـدير
تالـق عطـرا ·· وفـاح عبيـر ··
فمرت عليه رياح الهوى
فضـاع نـداه
وأخبى سـناه
وراح شـهيدا ·· وأى شـهيد !

*

حيـاتى جـرح تنزى دمـا
ودمـع على أمنيـاتى همـا
وروح تجـوب رحـاب السما
وتسبح بين خضم المنى
خضـم الحيـاه
عميـق مـداه
ألجلج فيـه بقلب وحيـد .!
حياتى فضاء بعيـد المـدى ··
يرفـرف قلبى بـه منشـدا
لقد ضاع عمرى وولى سـدى ··!
وعشت أصارع وحدى النوى · ·
وأفنـى رويـدا
رويـدا رويـدا
صريع الهموم ونضـو الجحـود .!

*

حيـاتى لحـن شرود النغـم
تغنت به صـادحات القمـم
فذاب أنينـا بوادى العـدم
ولم يبق للروح غير الصدى ··!
يـذوب بنفسـى
ويضـرم حسـى
وينبش قبـر هـواى الشـهيد ··

حيـــاتى كأس .. وحب أفـــل
وشـدو على همســـات القبـــل
وشـعر يفيض بعذب الأمـــل ..
أصور فيه غراما ثوى
باعمـــاق درب
وأحشـــــاء قلب
يعيش شـــقيا بأســـر القيـود .!

*

ويصـــحو بقلبى غـــرام قـــديم
غـــرام تولى كطيف النســـيم
وكان لقـــلبى وروحى النعيـــم
فصـــار جحيما عتى اللظى
طـــواه القضـــاء
بقبـــر الفنـــاء
فاظــــلم فى ناظرى الوجـــود ..

*

ويحملنى الوهـم عبـــر السحاب
أفتش عمـن تـــولى وغـــاب
فاعمـــه فى حلـكات الضـــباب
ويكتنف القلب شتى الرؤى
أنادى تعــــال
بعـــادك طـــال
وطـــال عـــذابى فهلا تعـود ؟!

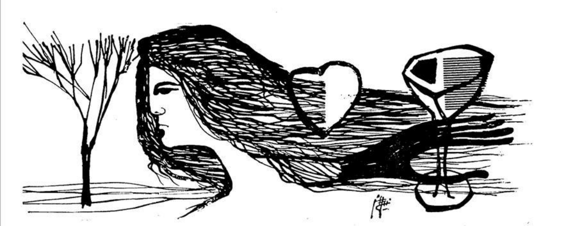
وأمضى .. فاصـــعد بين الأفـــق
أحـدق فى شـــرفات الفســـق
فيبـــدو لعينى خلف الشـــفق
خيال اذا ما اقتربت مضى ..
خيـــال الحبيب
لـــروحى قـــريب
ولـكن لعينى بعيـــد .. بعيـــد !

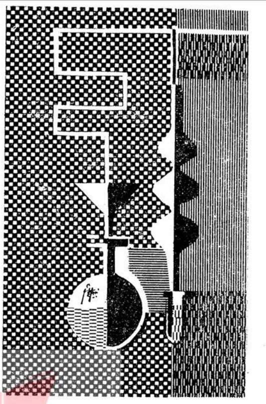
*

ويغــــرق قلبى فى ذكـــره
يلوك بقـــايا هـــوى عمـرى
ويخفـــق بالحب فى شـــعره
ويهفو لذكراه بين الورى ..
ينـــادى الحبيب
ولا مــــن مجيـــب
وكيف .؟ وقـد غاب بين اللحـود .!؟

*

وأخلو الى الشـــعر فى وحـــدتى
وأوقـــظ بالحب قيثـــارتى
اذا مـــا توحـــدت فى خلـــوتى
أغنى على جمرات الجوى
حيـــاتى ظـــلال
وطيف خيـــال
وذكرى غـــرام وشـــعر وغيـد ..





أمل لا يعدو أن يكون...

بقلم :
الدكتور محمد محمود غا...

كان مقالى الاخير عن نشأة الحياة وعن الانسان على الخصوص ، وقد استعرضنا فيه مدرستين مدرسة الروحانيين الذين يدينون بالروح وخالقها وترتكز عليها جميع الديانات مهما اختلفت وتباينت ومدرسة الماديين الذين ينكرون ذلك ويعتقدون أن المادة الصماء تطورت فى مئات الملايين من السنين حتى وصلت الى المادة الحية ووجد الانسان ، وكان لنا رد على أصحاب المدرسة الاخيرة الذين جعلونا والجماد شيئا واحدا ، ولم نستعن فى ذلك بالديانات فى شىء ، وانما ردنا نبع عندى من نوع من الفكر ومن المنطق السليم .

وكان برنامجى أن أكتب اليوم عن الارض التى نعيش عليها ونشأتها ونستعرض فى ذلك المدرسة القديمة والحديثة ونبحث الاصل فى وجودها ـ هل هى جسم انفصل عن الشمس عندما اقترب منها نجم كبير احدث مدا على سطحها كما يحدث القمر مدا فى بحارنا فانفصل بفعل هذا النجم جزء كبير من الشمس فى شكل السيجار وهو الجزء الذى انقسم الى هذه الاجزاء التسعة التى هى الكواكب السيارة التى دارت بفعل الجاذبية حول الشمس . أم أن هذه الكواكب التسعة الدائرة حول الشمس ومنها الارض انما وجدت من غبار كونى وسحابة كونية من التراب والغاز اقتربت من الشمس فى غابر الزمان ولم تنفصل عنها ولم تكن جزءا منها ثم تجمعت أجزاء من هذا الغبار الكونى فكون الكواكب التسعة الدوارة التى نعرفها والتى منها ارضنا التى نعيش عليها .

كان هذا برنامجى ولكن عاطفة قوية تغلبت على نفسى عندما بدأت أكتب مقالى وهو ان اعود لموضوع الذرة والتفجيرات الذرية والجهود المبذولة الان فى سبيل تحريمها والامال المعقودة على ذلك .

وهكذا كلما طوت الايام جزءا من صفحاتها نشعر نحن معشر الشيوخ ان علينا واجبا نؤديه لهذا الجيل ، واشعر بسعادة لا تعادلها سعادة ان اشرح موضوعا بات اهم مايتناوله الباحث موضوع الذرة والتفجيرات النووية وعلاقتها بسلامة الانسان .

ويحفزنى اليوم للكتابة من جديد على صفحات المجلة فى هذا الموضوع الذى سبق ان بحثناه تلك الاحداث الجديدة الخاصة بتحريم التفجيرات الذرية جزئيا واتفاق أمريكا والاتحاد السوفييتى وبريطانيا على حظر هذه التفجيرات فى نطاق معين.

ففى الخامس والعشرين من شهر يوليو الماضى وقعت فى موسكو بالحروف الاولى بين ممثلى الدول الذرية الثلاث معاهدة نصت المادة الاولى منها على تعهد الحكومات الثلاث بعدم اجراء التجارب النووية فى الجو وفى الفضاء الخارجى وتحت الماء ..

ولم تتناول المعاهدة حظر التجارب تحت الارض ولم تمتد بعد الى حظر استعمال الاسلحة النووية وحظر انتاجها وابادة الموجود منها ، ولكنها مع ذلك أثارت اهتمام الرأى العام العالمى

واستقبلها بالبشر والتفاؤل ، واعتبرها فى الظروف الدولية الراهنة بادرة تحول فى قضية السلام وميدان الحرب الباردة .

ولقد وافق على هذه المعاهدة أكثر من تسعين دولة ، ومنها الدول العربية جمعاء ، بل وافق عليها مجلس السلام العالمى فى مؤتمره الذى عقد فى فارسوفيا فى المدة من ٢٧ نوفمبر الماضى حتى ٢ ديسمبر ، ورحبوا بها ووجدوا فيها سبيلا للسلام ولم يشذ فى ذلك غير مندوبى الصين الشعبية .

بل فى نص البيان التاريخى للرؤساء والملوك العرب فى مؤتمرهم الذى عقد فى القاهرة فى ١٢ يناير الجارى ما يأتى :

« ويؤكد الرؤساء والملوك الايمان بحل المشكلة الدولية بالوسائل السلمية طبقا لميثاق الامم المتحدة كما يؤمنون بمبدا التعايش السلمى بين الدول وسياسة عدم الانحياز ، وبوحى من هذا الايمان ، كان ترحيب الدول العربية باتفاقية موسكو للحظر الجزئى للتجارب النووية ومبادرتها الى التوقيع عليها وتأييدها السعى الحثيث للوصول الى نزع السلاح نزعا شاملا بالطريقة التى تحفظ السلام الدولى »

هذه موافقة فى المحيط الدولى تكاد تكون اجماعية ، وفى محيطنا العربى تأييدا لها ومحاولة للعمل على استكمالها . ترى ماذا يجب أن يدور فى محيطنا العلمى ؟

وهنا لا أود أن يعتبر القارىء أن ما أبديه من اراء فى هذا الشأن هو مخالفة لاجماع دول العالم واجماع الدول العربية على الخصوص فى ناحية قد يعتبرها البعض من النواحى السياسية انما هو مجرد راى علمى ارجو ان يعتبره القارىء نذيرا لاكثر ولا أقل ، وعند ظنى انه يجب على رجال الحكم والمشتغلين بالسياسة أن يستأنسوا برأى العلماء فى هذا الشأن وفى هذا الموضوع الهام على الخصوص الذى يتعلق عليه حياة البشرية جمعاء – ولعل دراساتى الطويلة وانشغالى بهذه المسألة سنين عديدة تسمح لى بأن يكون لى عند القارىء راى فى اهم مسألة تشغل بال الانسان .

فلقد القيت عن نواة الذرة ومنذ ربع قرن أكثر من خمسين محاضرة أولاها فى قاعة فيصل ببغداد سنة ١٩٤١ ثم فى الحلة والبصرة بالعراق ، وقد تابعت محاضراتى بعدها فى مصر فى جامعة القاهرة وفى جمعية المهندسين والجمعيةالكيميائية وغيرها من الجمعيات العلمية ، ولم يكن لموضوع الانفجارات الذرية فى ذلك الحين الاهمية التى لها اليوم ، ومنذ قنبلتى هيروشيما وناجازاكى تحدثت عن ضرر هذه التفجيرات فى كثير من الجمعيات والندوات العلمية والادبية فى مصر والخارج فتحدثت عن خطورتها فى مؤتمر السلام الدولى فى كولومبو بسيلان « كتاب مؤتمر السلام المنعقد فى كولومبو سنة ١٩٥٧ » وفى ميدان الاستقلال بها وفى بمباى فى الهند فى لجنة الطاقة الذرية ، وفى سنة ١٩٥٨ تناولت الموضوع من جديد فى مؤتمر الشعوب والتعايش السلمى فى استوكهولم فى الاجتماع العام وفى لجنة نزع السلاح ، وقد تابعت أحاديثى فى الاتحاد السوفييتى ، وأخيرا تابعت دراسة الموضوع بسلسلة من المحاضرات فى شهر السلام الدولى بالقاهرة وفى الجمعيات العلمية فى المجمع المصرى للثقافة العلمية وفى الاتحاد العلمى العربى ، وفى المؤتمر العلمى العربى الرابع المنعقد فى القاهرة فى فبراير سنة ١٩٦١

ويدفعنى للعودة فى المجلة الى هذا الموضوع بعد هذا العدد العديد من المحاضرات والبحوث المنشورة ، وبعد مقالاتى العديدة عنه فى رسالة الاسلام وفى الكاتب المصرى ما للموضوع من اهمية بالغة فهو يرتبط باستمرار أو عدم استمرار حياتنا كجنس يعيش على هذا الكوكب الوديع الدوار .

ولعل القارىء يسائلنى ماذا أشعر به بعد هذا الجهد وهذه المعرفة التى لازمتنى طوال اربعين عاما فى محيط الذرة بعد القرار الاخير الذى اتخذته الدول وتبناه مجلس السلام العالمى ووافقت عليه بدورها الدول العربية فى اجتماع الرؤساء والملوك الاخير .

وفى هذا أقول ان شعورى العلمى يتسم بالخوف من التحسينات التى يمكن أن تجريها الدول الذرية فى صناعة هذه القنابل والعثور على قنابل أشد فتكا من كل الذى عرفوه حتى اليوم . كذلك أخشى من تخزينها واستمرار صناعتها فالمعاهدة لم تلغ للاسف صناعة القنابل ولم تلغ اجراء بعض التجارب عليها .

ولقد تأملت مع نفسى ساعات طويلة الموضوع من جديد لاراجع من ذكرياتى الاحداث الذرية الهامة . هل كان لها مخطط مرسوم أم حدث أغلبها عن طريق المفاجأة ؟ ولعل القارىء يدرك معنا أن عامل المفاجأة كان العامل القوى فى كل الكشوف التى أدت الى بناء العلوم الذرية الحديثة بل الى صناعة القنابل الذرية بأنواعها الثلاثة القنابل الانشطارية . القنابل الهيدروجينية ، والقنابل فوق الهيدروجينية ، وهذا العامل اكرر كلمة المفاجأة مازال موجودا ، وأؤكد للقارىء عن علم اننا مازلنا فى العلوم الذرية فى حروف الالف والباء أى فى الحرفين الاولين بالنسبة لحروف الهجاء البالغة الثمانية والعشرين . أى اننا فى مرحلة اعتبرها بدائية بالنسبة لما يخبئه القدر فى هذا العلم الواسع فكشف بكارل الفرنسى سنة ١٨٩٦ عن أن اليورانيوم عنصر يشع كان مفاجأة هزت العالم أجمع ، وكشف مدام كورى بمفردها عن عنصر يشع الف مرة قدر اليورانيوم وهو العنصر التى اسمته البولونيوم من اسم وطنها بولونيا كان من جديد مفاجأة لها وللعلماء ، بل كشف مدام كورى من جديد وزوجها بيير كورى عن عنصر أكثر اشعاعا من كل ماسبق أسموه الراديوم لانه يشع كان المفاجأة الكبرى للعالم . صحيح انهما فى أول عام من تجاربهما كشفا الراديوم ولكن لكى يحضرا كمية عملية منه استغرق منهم ذلك اربعة أعوام ولكن الكشف فى حد ذاته عن وجوده كان مفاجأة علمية لاينساها أحد .

بل واعتقد جازما ان الكشف الكبير لانريكو فرمى العالم الايطالى المعروف فى روما من أن جسيم النيوترون البطىء يحدث تصدعا داخل نواه الذرة اكثر من النيوترون السريع كان عملا غير معقول وكان مفاجأة له غير منتظرة وهذا الذى اذكره لاشك فيه فقد حضرت عرضه لهذا العمل بنفسى عندما حضر الى السوربون ليعرض كشفه على علماء الطبيعة فيها سنة ١٩٣٣

بل وجاءت المرحلة الحاسمة فى العلم التجريبى وخطوة كبرى فى تاريخ الذرة عندما استخدم « أوتوهان » الالمانى ملاحظة فرمى السابقة وقذف اليورانيوم والبلوتونيوم بالنيوترونات البطيئة وعوضا عن الحصول على رتبة اعلا فى جدول العناصر وذلك باسكان هذا النيوترون داخل النواة أو الحصول على عنصر

رتبته اقل فى هذا الجدول وذلك بطرد احد جسيمات النـــواة خارجها حدث فى تجربته الخالدة الانشطار النووى المعـــروف وانقسمت نواة الذرة الى نويات اصغر من النواة المقذوفة ، وكان هذا بلا شك اكبر مفاجاة علمية حدثت بعد كشف بكارل ومدام كورى للنشاط الاشعاعى ، ونشر اوتوهان تجربته الخالدة فى الاسبوع الاخير من ديسمبر سنة ١٩٣٨ ، وقد نشا كما هـــو معروف عن هذه التجربة صناعة اول قنبلة ذرية عرفها العالم سنة ١٩٤٥ ، ثم كانت القنبلة الهيدروجينية ثم القنبلة فوق الهيدروجينية .

وهذه القنبلة الاخيرة وقوة تدميرها قدر القنبلة الذريةالاولى حوالى الخمسمائة مرة ويمكن ان تصل الى الف مرة كـــانت كما شرحنا فى مقالات سابقة فى المجلة نتيجة تحسين فى الصناعة واحاطة القنبلة الهيدروجينية بغلاف رخيص من اليـــورانيوم الذى كان لايستخدم فى صناعة القنابل اليورانيوم ٢٢٨ الذىكان يستبعد فى الصناعة .

ولعل القارىء يدرك معى ومن مقالاتى السابقة ومنهـا ماكان على صفحات المجلة واخص بالذكر المقال المعنون « اما سعـادة وهناء واما شقاء وفناء » المنشور فى العدد ٧٣ بتاريخ ينايرسنة ١٩٦٣ ما لهذه التفجيرات من اخطار جسيمة قد تودى بالحيـاة كلها من على الارض .

هذه المعاهدة التى لم تستـكمل اذن لم تنص عـلى عـدم صناعة القنابل الذرية بكافة انواعها والتى سمحت باستمرار التجارب لا نستطيع معشر العلماء أن نقرها أو نهلل لها .

ولعل من اول النتائج السيئة لهذا الاتفاق الغريب بين الدول الثلاث امريكا والاتحاد السوفييتى وبريطانيا ما حدث يوم ١٦ يناير سنة ١٩٦٤ فى مجلس العموم البريطانى .

فقد شهد المجلس نقاشا حادا وفق ماجاء فى البرقيـــــات وطالعته بالنص فى جريدة الاهرام بشان مســـائل الدفاع بين هيوم رئيس الحكومة البريطانية وويلسون زعيم حزب العمـال المعارض اعلن السير هيوم فى المجلس ان حكومته مصممة علىان يكون لبريطانيا قوة نووية مستقلة لان دولا اخرى من بينهـــا فرنسا والصين سيكون لديها اسلحتها النووية عما قريب .

وقال « ان هذا هو اسلم سبيل فى عالم يفتقر الى اتفـــاق دولى على نزع السلاح » ثم قال « انه فى الظروف التى تســود العالم الان حيث لايبدو انه سيكون هناك اتفاق دولى عـــلى نزع السلاح فى وقت قريب بدرجة معقولة ، ارى ان فى طـــرح قواتنا النووية جانبا مخاطرة لا استطيع ان اوصى البـــرلمان بقبولها » .

***

هذا الذى حدث فى انجلترا فى منتصف يناير الحـالى ، وفى الجريدة ذاتها فى الاهرام وفى نفس الصفحة صرح وزير الدفاع الفرنسى فى مؤتمر صحفى « بان فرنسا مصممة تصميما لارجعة فيه على الاستمرار فى تجاربها الذرية والنووية فى طبقات الجو العليا فى المحيط الهادى » .

مسألة هامة قد يتعرض لها الطالب فى امتحانه التحريرى أو الشفوى عند ادائه امتحان الحصول على شهادة الدراسةالعليا فى الطبيعة الارضية او الجيوفيزيقا كما يصح ان نجـرى على تسميتها بالعربية وهى مسالة السراب وهوالذى نشاهده عندما نسير فى الصحراء مثلا او على الطريق الصحـــراوى بين مصر والاسكندرية فنـرى ماء وتسير خلفه فلا يلحق به الراجل او الراكب ، ذلك لان هذا الذى يبدو امامنا ماء ليس الا مجـــرد عمليات من الانكسار الضوئى حادث من اختلاف درجات الحرارة فى طبقات الجو ، ولاتفن فى مثل هذه الامتحانات ان تكون اجابتك وصفية كما ذكرنا الآن انما لها حلول من صميم الرياضة نضعلها المعادلات والقوانين ونخرج منها بهذا السراب أو بغيـــره من الظواهر مثل ظاهرة قوس قزح حسب الفروض التى نضعهـــا والحلول التى نصل اليها .

هذا هو السراب وعند ظنى ورأيى أنالذى وصلتاليه الدول الثلاث لايعدو ان يكون سرابا الا اذا كان مانائبته المتعاقدون فى صدر المعاهدة ومقدمتها من اعلانهم ان غرض المعاهــدة الاساسى ان يحققوا فى اسرع واقرب وقت اتفاقابشان نزعالسلاح الشامل الكامل تحت رقابة دولية صارمة تتفق واغراض الامم المتحـدة ويمنع هذا السباق للتسلح ويحرم الاثارة والدعوة الى انتـاج أو تجربة الاسلحة بكامل أنواعها ومنها الاسلحة النووية .

اذا حدث هذا يكون لنا معشر العلماء موقف آخر ونعتقد فى هذه اللحظة ان الذى نراه ليس سرابا انما ماء يروى البشرية من ظمأ طويل ويعوقها هذا الاستهتار بالحياة وبالقيم الانسانية .





تمثيلية من فصل واحد..

بعد كل هذه السنين

للكاتب الانجليزى : سيدنى بوكس

ترجمة : صلاح التهامى

الشخصيات

جيمس برستون : موظف كتابى باحدى الشركات .
اليـــزابيث : زوجته
أوليـــف : ابنتـه
جيم ماكسويل : خطيب ابنته
جـون مارثـر : صديق قديم له .

أوليـف: ألم يعد والدى بعد يا أمى ؟

اليزابث: كلا ، لم يعد بعد يا أوليف . يبدو أنه سيتأخر الليلة أيضا

أوليـف: ما سبب تأخره فى هده الايام الاخيرة ؟

اليزابث: استلام الواردات أو شيء من هذا القبيل .

أوليـف: يبدو أن أمرا ما يشغل باله فى هـــذه الأيام . ألم تلحظى ذلك ؟

اليزابث: كلا ، لم ألحظ شيئا .

أوليـف: انه يبدو صامتا وكأنه يخفى شيئا فى نفسه

اليزابث: ولكنه لم يكن أبدا ثرثارا .

أوليـف: هذا صحيح ولكنى أرى مظاهر القلق بادية عليه فى هذه الأيام الأخيرة .

اليزابث: انى لم ألحظ عليه أى تغيير .

أوليـف: وما رأيك فى حذائه ؟

اليزابث: حذاؤه .

أوليـف: نعم . انى واثقة من أنه لم يستهلك من قبل زوجين من الاحذية فى مثل هذا الوقت القصير . لقد كان الزوج الواحد يكفيه أكثر من ســـتة أشهر قبل أن يحتاج الى اصلاح .

اليزابث: انك تعلمين أن عمله الجديد يبعد مسافة طويلة عن محطة القطار ، وهو يقطع هـــده المسافة سيرا على الاقدام .

أوليـف: اعرف هذا ، ولكن هذا لا يبلى النعل فى مثل هـــذا الوقت القصير .

اليزابث : سيكون على أن أصنع لحذائه نعلا من المطـاط حتى لا يبلى سريعا . ان الاسـكاف يتقاضى أجرا كبيرا ، وليس لدينا من المال ما يفيض عن حاجتنا فى هـذه الأيام . **(تسمع دقات ساعة)** يا للعجب !. لقـد بلغت الساعة السادسة !! لقد تأخر كثيرا .

أوليـف : حقا ، لقد تأخر الليلة نصف ساعة .

اليزابث : يجب أن أحادثه فى هذا الموضوع . ان عشاءه سيفقد طعمه حين يبرد . لماذا نقلوه الى هذا العمل الجديد؟ عندما كان فى عمله القديم لم يكن يتأخر لحظة واحدة عن ميعاده .

أوليـف : أمى ، انى أحس أحيانا بالاشفاق على أبى .

اليزابث : ولمـاذا ؟

أوليـف : **(بتردد)** لا أعرف ... ولكنى أشعر بذلك عندما أفكر فى الوقت الطويل الذى قضاه فى عمله منحنيا على مكتبه يوما بعد يوم ، سنة بعـد سنة . أمام هذه الدفاتر القديمة نفسها . أمام الارقام ذاتها . البداية هى هى ، والنهاية هى هى . لا تغيير ، لا عطـلة ، لا تنويع فى العمل . بل لا يتسع وقته حتى لمشاهدة مباريات الكرة يوم السبت .

اليزابث : لقد اعتاد ذلك يا أوليف . فكان ذلك فى صالحنا ، والا لما استطعنا أن نملك اليوم مثل هذا المنزل .

أوليـف : انه لم يصبح بعد ملكا لنا .

اليزابث : كلا ، ولكن بعد خمس سنوات سيكون ملكا خالصا لنا . وما كنا لنستطيع شراءه على اقساط بدون ضمان من ايراد ثابت منتظم .

أوليـف : اعرف هذا . ولكنى أسأل نفسى ، هل ما حصلنا عليه يستحق كل هذا العناء .

اليزابث : أوليف ! لا ترددى مثل هذه الترهات ! ان العناء يهون ما دام الجزاء طيبا .

أوليـف : كيف ؟

اليزابث : انك تثيرين دهشتى ! كيف ؟! لقد منحنا هذا العناء مركزا محترما الا ترين هذا ؟ فى بيتنا القديم لم نكن شيئا مذكورا ، ولكن الآن .. هـه ، هل تظنين أن الفرصة كانت ستتاح لنا لمقابلة جيم مكسويل لو أننا لم ننتقل الى هذا المنزل ؟ ان أمثال جيم لا يبحثون فى شارع أجرب عن زوجة أو حبيبة .

أوليـف : حقا ! انك على صواب فيما تقولين يا أماه . ولـكن هذا العناء قد تحمل ابى أكثره ، ولم ينعم بحياته . لقد مرت بنا الآن عشر سنين كلها كفاح .

اليزابث : هذا لم يغير شـيئا من حال والدك ، فما كان أبدا متلافا أو متهورا . انه لا يعرف غير عمله الذى يخلص له ومنزله الذى يقضى فيه وقت راحته القصير .

أوليـف : ولكن ، هذه ليست حياة . ألست معى فى ذلك ؟

اليزابث : لا أرى فى هذه الحياة أى نقص . **(يسمع اغـلاق الباب)** هذا هو أبوك قد حضر أخيـرا . يجب أن أسأله عن سبب تأخره .

أوليـف : لا تضايقيه يا أمى .

اليزابث : ما فعلت ذلك أبدا ، ولـكنه فى هذه المرة قد تأخـر كثيرا .

جيمس : مساء الخير يا اليزابث .

اليزابث : مساء الخير يا جيمس . لقد تأخرت كثيرا الليلة .

جيمس : حقا ! لقد فاتنى القطـار ... وكان على أن أجرى لالحق بالسيارة .

اليزابث : اذن ، فقد خرجت متأخرا من عملك ؟

جيمس : نـ .... نعم .

اليزابث : اخلع معطفك وعد بسرعة فان العشاء فى انتظارك . **(يخرج جيمس) (فى صوت خافت)** ان حذاءه بال يا أوليف .

أوليـف : لقد لاحظت هذا ، عندما كنت أنظفه له هذا الصباح.

اليزابث : يجب ان أسأله كيف يبلى بهذه السرعة ؟

أوليـف : أعدى له العشاء يا أمى . انى واثقـة من انه جائع **(يعود جيمس)**

اليزابث : اين تمشى كل هذه المسافات يا جيمس ؟

جيمس : امشى ؟!

اليزابث : نعم . ان حذاءك لا يكاد يأتى من الاسكافى حتى نعيده اليه مرة اخرى .

جيمس : آ ....

اليزابث : هل عملك الجديد أشق من عملك الأول ؟

جيمس : نعم . اشق بكثير يا اليزابث . هل يمكنك أن تعدى لى العشاء الآن ؟

اليزابث : اذهب الى حجرة الطعام وسأتبعك بعد لحظة واحدة .

أوليـف : انه يبدو متعبا . أليس كذلك ؟

اليزابث : ولكنه لم يشك .

أوليـف : لعل كبر سنه قد أنهكه ، وهو محتاج الى الراحة .

اليزابث : ليس فى وسـعه أن يرتاح الآن . نحن فى حاجة الى المال ، وشركة ستارك لا تدفع أجرا للعـامل خلال مرضه . شكرا لله ! ستنتهى اقساط المنزل قبل أن يحال أبوك على المعاش ! ولن يكون هناك بعد ذلك ما يقلق بالنا .

جيمس : أين شبشبى يا اليزابث ؟

اليزابث : فى الدولاب . جيمس . انت غيرمرتاح فى عملك ؟

جيمس : كلا ... لم تسألين عن هذا ؟

اليزابث : ألنت راض عنه اذن ؟

جيمس : نعم ! كل الرضى .

اليزابث : أواثق أنت من هذا ؟

جيمس : نعم ، كل الثقة .

أوليـف : هل تنام نوما هادئا يا أبى ؟

جيمس : نعـم .

أوليـف : يخيل الى انى سمعت وقع أقدامك الليـلة الماضية مرة أو مرتين واحسست أن شيئا ما يقلق نومك .

جيمس : كلا . انى أتمتع بنوم هادىء يا أوليف **(محاولا تغيير الموضوع)** ، شبشبى فى الدولاب ، هه

اليزابث : نعم ... انه فى الدولاب .

جيمس : سأذهب لأحضره **(يخرج)**

اليزابث : ان جيمس فى أحسن حال . يبدو أن أوهامك لم تـكن صادقة . لا يمكن ان يمرض الآن ! اننا لا نستطيع تحمل ذلك . **(يدق جرس الباب)**

أوليـف : انه جيم . لقد دعانى الى السينما الليلة ، اتسمحين لنا بالخروج يا أمى ؟

اليزابث : نعم ، يمكنكما الذهاب حيثما تشاءان .

جيـم : مساء الخير يا مسز برستون .

اليزابث : مساء الخير يا جيم . انى ذاهبة لأساعد جيمس . سأراك قبل أن تذهب . **(تخرج اليزابث)**

جيـم : حسـنا .

أوليـف : أنت تلهث يا جيم . هل كنت تجرى ؟

جيـم : طول الطريق من موقف السيارة .

اوليف: ولكن لم يكن هناك داع لهذه العجلة . هناك متسع من الوقت .

جيم : **(فى حماس)** اسمعى يا أوليف ! عندى أخبار هامة أريد أن أزفها اليك .

اوليف: ما هى ؟

جيم : لقد حظيت بالترقية اليوم ، وهكذا يمكننا أن نتزوج فى أى وقت نشاء .

اوليف: **(فى قلق)** صحيح ؟

جيم : نعم . لم أكن أتوقع هذه الترقية . على الاقل لم أكن أتوقعها قبل مرور وقت طويل . ولكنى حصلت عليها اليوم وسيزيد مرتبى وسيكون ... يبدو أنك غير مسرورة لسماع هذه الأنباء .

اوليف: انها المفاجأة فقط يا جيم .

جيم : فكرت فى أنه يمكننا الآن اعـــداد كل شىء ، وأن يتم زفافنا فى يونية .

اوليف: أتقصد بعد شهرين يا جيم ؟

جيم : قد يبدو لك هذا وقتا مبكرا ، ولكن أعيدى التفكير فى الأمر . لقد فاجأتك بالأنباء ، ولـكنى كنت مسرورا جدا لما حدث . لقد كانت مفاجأة مدهشة لن أتحدث عنها مرة أخرى حتى أدع لك وقتا للتفكير .

اوليف: ولكن يونية قريب جدا ، ثم ....

جيم : دعينا من هذا الموضوع الآن . لقد حملت اليك الأنباء السارة . ويمكننا أن نفكر فيما بعد فى الموعد المناسب للزفاف . هل عاد والدك الى المنزل منذ قليل ؟

اوليف : لقد عاد لتوه ، منذ دقائق قليلة .

جيم : متأخرا ، أليس كذلك ؟

أوليف : نعم ، ولكن لماذا تسأل عن تأخره ؟ أتعرف السبب ؟

جيم : كلا ولكن ما نوع عمله الجديد ؟

أوليف: العمل نفسه الذى كان يمارسه من قبل .

جيم : انى اسألك لانى رأيته فى الايام الاخيرة ،خلال النهار، فى أماكن مختلفة من المدينة فظننت أنه قد غير عمله .

أوليف: **(مندهشة)** لا أعرف شيئا عن هذا يا جيم . انه دائم الصمت . لا يكاد يحدثنا فى أمر . ربما يكون قد وكل اليه أمر الدعاية للشركة أو أى شىء من هذا القبيل، وهو لا يريد اخبارنا .

جيم : ولم لا يخبركم ؟

أوليف: أنت تعرف انه من الطراز القـــديم ، وقد تبدو له الدعاية عملا تافها .

جيم : **(مبتسما)** نعم . ان الرجال الكبار يقاسون من هذه الكبرياء الجوفاء ، والشركات فى هذه الأيام تعامل موظفيها من كبار السن معاملة قاسية . لقد سمعت عن بعض الأحوال التى فصل فيها هؤلاء الموظفون . لا شك أن الأمر يختلف مع والدك . لقد مضى عليه زمن طويل وهو يعمل فى شركة ستارك .

أوليف: لقد قضى فيها حياته كلها .

جيم : لا يمكنهم فصله الآن . انه سيحال على المعاش قريبا أليس كذلك ؟

أوليف: بعد خمس سنوات .

جيم : لا خوف عليه اذن .

اوليف: حقا ، لا يمكنهم الاستغناء عنه الآن . انه يتقن عمله تماما . هل عدت لتوك من المنزل ؟

جيم : أوه ! لقد نسيت أن أحادثهم فى التليفون . لقد جئت مباشرة من اجتماع المكتب .

اوليف: ألم تتناول عشاءك بعد ؟

جيم : نعـم . لقد طغى على السرور فلم أفكر فى الطعام . سنتناول طعاما خفيفا عندما نذهب الى السينما ، ولكنى سأخرج الآن لاتصل بالمنزل تليفونيا . **(وهـو يبتعد)** التليفون على ناصية الشارع ، أليس كذلك ؟

أوليـف: بلى .

اليزابث: أخارج أنت الآن يا جيم ؟

جيم : نعم . سأذهب للتحدث فى التليفون ثم أعود بعـد لحظة . ستزف اليك أوليف الأنباء يا مسز برستون.
(يخرج جيم) .

اليزابث: أية أنباء ؟

أوليف: **(مترددة)** لقد حظى جيم بترقية ،وهو يريد أن نتزوج فى يونية .

اليزابث: يونية ! بهذه السرعة ؟

أوليف: على أى حال ، لقد ترك لى تحديد الموعد .

اليزابث: لم أكن أتوقع أن يتم هذا الزواج قبل سنة .

أوليف: وأنا كذلك فاجأنى جيم بهذا الموعد .

اليزابث: أتعرفين يا أوليف ماذا يعنى زواجك هذا لنا ؟

أوليف: **(فى حزن)** نعم .

اليزابث: تعلمين أننا فكرنا فى شراء هذا المنزل من شركة البناء.

اوليف : أعرف هذا يا أمى . ولكنى لم أكن أعتقد اننا سنبقى بهذا الايراد المحدود مدى الحياة .

اليزابث: ستكون الحياة أشق عندما ينقطع عنا مرتبك .

أوليف: وقد يصعب عليكم تدبير أمر معيشتكم . ألا يمكننا بيعه والعودة ثانية الى السكنى بالايجار ؟

اليزابث: ماذا ؟ نعود ثانية الى بيت قديم ، وأنت على وشـك الزواج من جيم مكسويل ؟ ماذا يقول هو عنا ؟ وماذا يقول أهله ؟

اوليف: اذن . ألا يكون من الافضـل أن نخبر جيم بحقيقة حالنا .

اليزابث: كلا ، كلا ! سندبر الامر على حال . ان لأبيك رصيدا محترما فى البنك ويمكنه أن يدفع هذا المبلغ من أصل ثمن المنزل .

أوليف: ولـكن يا أمى ، ربما يكون أبى قد اقتصد هذا المبلغ لأمر ما .

اليزابث: هذا لا يهمنى . انى فى حاجة اليه الآن ، وسأحصل عليه .

أوليف: ولكن هذا لا يبدو حلا عادلا للموقف . ربما يكون أبى قد أعد هذا المال لمشروع يفكر فى تنفيذه بعد احالته على المعاش .

اليزابث: عزيزتى أوليف . أنت لا تفهمين أباك . أكرر لك أنه ليس له مشروعات أو آمال أو أى مطامع أبدا . انـه سيعطينى المال بكل سرور ، ما دام يعلم ان فى هـذا سعادتك .

اوليف: أتظنين ذلك ؟

اليزابث: انى واثقة مما أقول . وافقى جيم على أن يكون الزواج فى يونية .

اوليف: شكرا ، يا أمى .

اليزابث: ان جيم مكسويل ينحدر من أسرة عريقة ، وله مركز محترم ، ويسرنا أن يتم زواجكما فى أقرب وقت .

أوليف: هل أذهب لاخبر أبى ؟

اليزابث: كلا ، اتركى لى هذا . اعتبـرى أن كل شىء قد تم يا أوليف .

اوليف: يونية ! بعد شهرين فقط ! كم أنا سعيدة ! هل أخبرك أبى بنوع العمل الجديد الذى يمارسه ؟

اليزابث: انه يقوم بعمله الكتابى السابق .

أوليف : ولكنه يقوم بجولات كثيرة . لقد رآه جيم عدة مرات فى أماكن مختلفة من المدينة .

اليزابث: انه لم يذكر لى شيئا عن هـــذا . وماذا يعمل فى جولاته هذه ؟

أوليف: لا أعرف شيئا عن هذا .

اليزابث: لابد أن أعرف تفاصيل هذا الموضوع من أبيك . ولكن ها هو ذا جيم قد عاد .

أوليف: جيم ، لقد وافقت أمى على زواجنا فى يونية .

جيم: انى عاجز عن الشـكر يا مسز برستون ، وثقى انى سأجعل حياة أوليف سعادة دائمة .

اليزابث: انى واثقة من هذا يا جيم .

جيم: أوليف ، هل أنت مستعدة للخروج الآن .

أوليف: نعم يا جيم .

جيم: هيا بنا اذن . مساء الخير يا مسز برستون .

اليزابث: مساء الخير يا جيم . أرجو أن تقضيا وقتا طيبا .

(يخرج جيم وأوليف) .

اليزابث: **(وحدها)** لابد أن أتحدث مع جيمس حديثا طويلا .

***

(اليزابث وجيمس وحدهما)

اليزابث: كيف حالك يا جيمس .

جيمس: بخيـر .

اليزابث: لقد كان جيم ماكسويل هنا منذ قليل .

جيمس: حقا ؟ أكان هنا ؟

اليزابث: نعم . لقد حظى بترقية وسيتزوج من أوليف فى يونية.

جيمس: **(وكأنه قد تلقى صدمة عنيفة)** يتزوج ؟

اليزابيث: نعم ، يتـزوج ؟ هل يزعجك هذا الخبر يا جيمس ؟ مالك قد حزنت كأنى أخبرتك ان أوليف قد قتلت .. آه ... لقد تذكرت الآن ما يقلق بالك . انك تعتقد اننا لن نستطيع تدبير أقساط المنزل عند ما نفقـد مرتب أوليف . ولكن هذه انانية منك ، يجب أن تفكر أولا فى سعادة أوليف .

جيمس: ولكن ... كيف ـ كيف سندبر الامر ؟

اليزابث: ان لك رصيدا فى البنك . أليس كذلك ؟

جيمس: بلى .

اليزابث: ان سعادة أوليف أهم من اقتصادك .

جيمس: ولـكن ... اليزابث ... ان ...

اليزابث: **(تقاطعه)** لا محل للمناقشة فى هذا يا جيمس ، يجب أن تفخر بزواج ابنتك من شخص كهـذا من ذوى النفوذ . ولكن لابد من أن تحضر لى رصيدك فى البنك حتى يمـكننى تدبير أقساط المنزل . ولعلك تنال قريبا علاوة تساعدنا على تدبير أمورنا .

جيمس: هه ... علاوة ؟

اليزابث: على فكرة يا جيمس ، نسيت أن أسألك ما نوع عملك الجديد ؟

جيمس: **(مندهشا)** ماذا ؟ انه ... انه عملى السابق نفسه يا اليزابث .

اليزابث: اذن ما الذى يجعلك تتجول فى أنحـاء مختلفة من المدينة ؟

جيمس: أنا ؟ من قال لك هذا ؟

اليزابث: لقد رآك جيم ماكسويل عدة مرات . هل تقوم بدعاية، أم تجمع معلومات ؟

جيمس: **(مستردا هدوءه)** آه .. نعم . فى بعض الاحيـان أخرج لأجمع معلومات .

(يدق الجرس)

اليزابث: ترى . من يكون هذا ؟

جيمس: ربما كان جون مارثر . انها الليلة التى اعتاد زيارتنا فيها .

اليزابث: بودى لو أنك لم ترحب بهذا الرجل فى منزلنا .

جيمس: انه صديق قديم لى يا اليزابث .

اليزابث: أعرف هذا . ولكنه شخص لا فائدة منه . انى واثقة انه لم يعمل يوما واحدا منذ أربع سنوات ومظهره لا يبعث على الاحترام . أرجوك ألا تدعوه لزيارتنا مرة أخرى .

جيمس: **(يائسا)** بالله عليك . كفى عن هذا الكلام الجارح !

اليزابث: على كل حال ، سأتركك لتستقبله وحدك فانى لا أطيق رؤية ملابسه المهلهلة .

جيمس: أرجوك يا اليزابث لا تنالى أصدقائى بسوء .

(يدخل جون)

جون: مساء الخير يا جيمس .

جيمس: مساء الخير يا جون .

جون: كيف حالك الآن ؟

جيمس: الحمد لله . فى خير حال .

جون: ولـكن ، مالك شاحب اللون ؟ أمريض أنت ؟

جيمس: كلا ؟ كلا ! لست مريضا .

جون: ما زلت تهلك نفسك فى العمل كعادتك ؟

جيمس: نعـم !

جون: ان العمل سعادة كبيرة . بودى لو وجدت عملا ـ أى عمل كان .

جيمس: **(باهتمام)** ألم يزل عندك أمل يا جون ؟

جون: كلا ! لا يمكن أن أحصل على عمل الآن . لقد بحثت فى كل مكتب ، فى كل مصـنع ، فى كل بناء ، فى كل مكان يدور فيه عمل ما ، ولكن لا أمل هناك . انت تعلم ما يحدث عادة . ما أن يرانى المدير حتى يعرف انى لا أستطيع أن أبدأ عملا فى مثل هذه السن . ان هناك مئات الرجال يتقدمون لكل عمل يخلو . وعندما يبلغ المرء سننا هذه ، ينتهى كل شىء .

جيمس: اذن فليس هناك أى أمل ـ لن تجد عملا أبدا ؟

جون: كلا ! لا أمل عندى . هيه ... أعطنى قليلا من التبغ يا جيمس . **(فى حزن)** ايه ... ما كنت أتوقع أن يأتى يوما أستجدى فيه قليلا من التبغ . ان هذه أول مرة أستجدى فيها طوال حياتى .

جيمس: آسف يا جون ولكنى أقلعت عن التدخين .

جون: أقلعت عن التدخين ؟ لماذا ؟ لقد كان غليونك يلازمك دائما .

جيمس: هذا صحيح ، ولكن الحال قد تغير . **(فجاة وفى شعور جارف وفى يأس)** جون ! جون !

جون: ماذا بك يا جيمس ؟ ما بالك اليوم غريب الاطوار ؟ أأنت مريض ؟

جيمس: جون ؟ انى أخفى سرا يؤلمنى وأريد أن أخبرك به فانت وحدك الذى تستطيع أن تفهم موقفى .

جون: تحدث يا جيمس . أخبرنى بسرك .

جيمس: انى .. عاطل لم يعد لى عمل الآن !

جون: عاطل ؟! لم يعد لك عمل ؟! ولكن ...

جيمس: **(منزعجا)** أخفض صوتك . يجب ألا تخبر أحدا !

جون: لمـاذا ؟

جيمس: لقد كتمت الخبر عنهم جميعا .

جون: ومتى تركت عملك ؟

جيمس: منذ ثلاثة شهور .

جون: وطوال هذه المدة ، لم تخبر أحدا حتى أهل بيتك ؟

جيمس: كلا ! لم أستطع أن أخبرهم بشىء .

جون: ولماذا لا تخبرهم ؟

جيمس: أنت تعلم اننا ما زلنا ندفع أقساط هذا المنزل ، ونحن فى حاجة شديدة الى مرتبى ... ولهذا لا يمكننى أن أخبرهم بشىء .

جون: ولكن كيف عللت انقطاع مرتبك ؟ لابد وانهم قد عرفوا حقيقة الموقف .

جيمس: كلا ! لقد كنت أعطى زوجتى المبلغ نفسه كل أسبوع . كان لى بعض المال فى البنك و ...

جـــون : فهمت الآن . ولكن متى ينتهى هذا المبلغ ؟
جيمس : لم يبق منه شيء . لقد استلمت آخر ما أملك يـوم السبت الماضى ؟
جـــون : اذن ، فلا بد أن يعرفوا الحقيقة يوم السبت القادم ؟
جيمس : **(فى حزن)** نعـم .
جـــون : ولماذا تخاف اطلاعهم على الحقيقة يا جيمس ؟
جيمس : المنزل ... أنت تعرف ان الاقساط حمـل ثقيل كل شهر – ولن تنتهى هذه الاقساط قبل خمس سنوات .
جـــون : جيمس ، يجب مواجهة الموقف بصراحة .
جيمس : قلت لك لا يمكننى أن أصارحهم بشيء !
جـــون : ولكن ما الذى دعا الشركة الى الاستغناء عنك ؟
جيمس : لقد كانوا قســـاة فى معاملتى يا جون . بعد خمس سنوات كنت سأترك العمـل وأحصل على مكافأة ، ولكنهم سارعوا الى طردى قبل الاوان .
جـــون : وبماذا عللوا فصلك من العمل ؟
جيمس : قالوا انى غير كفء ، وانى كنت دائما ارتكب الاخطاء واحمل الشركة خسائر كثيرة . كذب . كذبوا على يا جون . وطردونى من عملى بحجة الاهمال . مـاذا أعمل الآن يا جون ؟
جـــون : بودى أن أفعل أى شيء لمساعدتك . هل تسمح لى بأن أفاتح اليزابث فى الموضوع وأخبرها بما حدث ؟
جيمس : كلا ! كلا ! لا تفعل . انت تعرف ان أوليف تستـعد للزواج الآن وهذا الخبر قد يفسد كل شيء .
جـــون : وماذا تنوى أن تفعل اذن يا جيمس ؟
جيمس : يجب أن أفكر الليلة فى حل ما .
جـــون : لا أظن انك تنوى أن تودع الحياة الليلة . ليس أمامك الا أن تخبر اليزابث وتبحثا الموقف معا .
جيمس : كلا ، يا جون ، لا أستطيع ! لا أستطيع ... دعنا من هذا الحديث الآن ، ولا تقل شيئا ... انها آتية .
اليزابث **(فى لهجة ساخرة)** الم تجد عملا بعد يا جون ؟
جـــون : **(بلطف)** من المستحيل الحصول على عمل فى هـذه الأيام .
اليزابث : ليس هناك مستحيل على ظهر الارض .
جـــون : من المستحيل لرجل فى الستين من عمره أن يحصل على عمل **(بحدة)** لقد قضيت أربع سنوات وأنا أبحث عن عمل ، لذلك فانى اتكلم عن خبرة يا مسز برستون.
اليزابث : **(ساخرة)** نعم ، لقد مضت أكثر من أربع ســنوات يا جون منذ كنت تعمل لآخر مرة . ولكن ماذا كان سبب الاستغناء عنك يا جون ؟
جـــون : **(فى لطف متزايد)** عدم الكفاءة .
اليزابث : نعم . تذكرت على كل حال : لو انك كنت اكثـــر حرصا لكنت الآن تحيا سعيدا فى منزلك .
جيمس : **(يصرخ)** كفى ! كفى ! أرجوكم كفوا عن هذا الحديث !
اليزابث : لماذا تصرخ هكذا يا جيمس ؟!
جيمس : **(فى ضعف)** انى آســـف يا اليزابث ولكنى أحس بصداع مؤلم .
اليزابث : اذهب وارقد قليلا ولكن لا تصرخ فى وجهى مرة أخرى هكذا ! الا تخجل من نفسك .
جيمس : عن اذنك يا جون . سأذهب لاستريح قليلا .
اليزابث : تصور يا جون . ان هذه أول مرة يصرخ فيها جيمس فى وجهى وكل هذا بسبب صداع .
جـــون : هناك فرق بين صداع وصداع يا مستر برستون .
اليزابث : ماذا تعنى .

جـــون : بعض أنواع الصداع قاسية لا ترحـــم ، ويبدو أن جيمس متألم .
اليزابث : انه دائم النشاط يعمل باستمرار .
جـــون : من المدهش ان جيمس احتفظ بعمله كل هذه السنين.
اليزابث : وماذا يدهشك فى هذا ؟
جـــون : انت تعرفين ما حدث لى . عندما يبلغ الموظفون سـنا معينة ، لا يرغب فيهم أصحاب الاعمال .
اليزابث : لقد كان جيمس دائما موظفا دقيقا مخلصا . وشركة ستارك تعامل موظفيها كما يعاملونها . عندما نقل العمل فى المركز القديم نقل جيمس الى المركز الجديد .
جـــون : نعـم ... ولكن ماذا تقولين لو أن جيمس فقد عمله ؟
اليزابث : **(ضاحكة)** يفقد عمله ؟ جيمس يفقد عمله ؟ يا لها من فكاهة .
جـــون : منذ أربع سنوات كنت أظن أنا أيضا ان تفكيرا كهـذا شيء مضحك، ولكنى أذكر موقف زوجتى عندما أخبرتها بأنهم فصلونى من العمل .
اليزابث : وماذا كان موقفها ؟
جـــون : قالت لى : « ان هـــذا ليس ذنبك يا جون ، ولست الوحيد فى المدينة الذى لا يجد عملا . وسندبر الأمر على خير وجه نستطيعه » .
اليزابث : وقد شجعتك ايضا على أن تذهب الى مكتب مساعدة العاطلين .
جـــون : وهل كنت استطيع أن أفعل غير هذا ؟ أكان من الافضل أن نموت جوعا ؟
اليزابث : أعتقد انه لو كان جيمس مكانك لفضل الموت على أن يقصد الى مثل هذا المكان .
جـــون : **(بسخرية)** انها سعادة عظيمة أن يموت المرء جوعا وهو ما زال متمسكا بكبريائه الزائفة .
اليزابث : ان جيمس لن يموت جوعا ولن يفقد كبرياءه . انه جيل من طينة أخرى .
جـــون : ليس المهم الطينة التى جبلنا منها نحن ، ولكن المهم الطينة التى جبل منها أصحاب أعمالنا ، واذا سمحت رأيى يا مسز برستون فان ...
اليزابث : **(مقاطعة)** شكرا ، لا أريد سماعه ، سـأخبر جيمس بأنك خارج .
جـــون : كما تشائين سأخرج دون أن أخبرك برأيى ولـكنك ستسمعينه على كل حال من غيرى . **(باحترام زائد)** مساء الخير يا مسز برستون **(يخرج)** .
اليزابث : **(تضحك فى سخرية)** جيمس يفقد عمله ... بعد كل هذه السنين ... يا لها من فكاهة ؟

(يدخل جيمس)

جيمس : هل خرج جون ؟
اليزابث : طبعا ! لقد تخلصنا منه . ولكن .. ما بك يا جيمس ؟ ان وجهك شديد الشحوب .
جيمس : لا شيء !
اليزابث : **(فجأة وبلهفة)** هل كان جون يريد أن يقترض منك نقودا ؟
جيمس : كـلا !
اليزابث : اذن ، ما الذى يدعوه للحضور هنا ؟
جيمس : انه صديق قديم .

اليزابث : ارجوك يا جيمس . لا تشجع هذا الرجل على التردد علينا . انه غير جدير بالاحتـــرام . انه يذهب الى مكتب مساعدة العاطلين . انه الآن متسول ...

جيمس : جون متسول ! صديقي القديم تقولين عنه متسول ؟!

اليزابث : هذا هو الواقع . انه غير جدير بأن يختلط بأناس محترمين .

جيمس : ولكن ، ليس هناك من يرغب في فقد عمله يا اليزابث. ان ما حدث لم يكن بارادته . لم يكن مذنبا .

اليزابث : انه نتيجة تقصيره . لقد فصل لعدم الكفاءة .

جيمس : هذا غير صحيح ! فالواقع ان ...

اليزابث : (**بحدة**) جيمس ، للمرة الاخيرة اطلب منك ان تحترم ما اقوله لك ؟ لن يدخل منزلنا متسولون بعد اليوم والآن دعنا من هذا واحضر لي دفتر حسابك في البنك.

جيمس : (**على وشك البكاء**) اليزابث . ارجوك الا ...

اليزابث : (**ببرود**) ارجوك يا جيمس ؟

اليزابث : اعطني دفتر حسابك .

جيمس : حسنا ، هذا هو ! خذيه !

اليزابث : شكرا . سأعرف الآن موقفنا على التحديد .

جيمس : اليس من الافضل ان تستمعي لي ؟

اليزابث : كلا ... دعني ارى مقدار ما لنا في البنك ... ماذا ؟ لا شيء ؟ اين ذهبت نقودك ؟ ماذا صنعت بالمال ؟.. ماذا حدث ؟ اجب اتكلم !.. جيمس برستون ، اين المال ؟

جيمس : لقد اخذته انت يا اليزابث .

اليزابث : انـا ؟

جيمس : نعم . لقد كنت تتسلمين جزءا منه كل اسبوع طـوال الثلاثة الشهور الاخيرة .

اليزابث : الثلاثة الشهور الاخيرة ؟ اني لا افهم قصدك .

جيمس : (**في هدوء**) لقد فقدت عملي منذ ثلاثة شهور .

اليزابث : فقدت ... عملك !

جيمس : (**في سخرية خفيفة**) نعم . اني ... عاطل .

اليزابث : ولكن ... لماذا ؟ ما الذي حدث ؟

جيمس : ان شركة ستارك لا تريد ان تمنحني مكافأة .

اليزابث : اني لا اصدقك ! هذا كذب .

جيمس : كلا ، يا عزيزتي ، انها الحقيقة .

اليزابث : ماذا فعلت ؟ اي خطأ ارتكبته في عملك ؟

جيمس : لم اخطيء في شيء . كانوا يريدون ان يتخلصوا مني ، هذا كل ما هنالك .

اليزابث : كلا ! كلا ! لا يمكن ان يكون هذا صحيحا ! بعد كل هذه السنين !؟

جيمس : بعد كل هذه السنين .

اليزابث : وماذا قالوا لك ؟

جيمس : قالوا اني ارتكبت اخطاء . ولكنهم كاذبون يا اليزابث. كذبة قذرة ! مجرد حجة لسلب مكافأتي .

اليزابث : اني لا اصدق هذا الكلام ! اذا كانت هذه القصـــــة صحيحة ، فلماذا لم تخبرني من قبل ؟

جيمس : كنت خائفا . كنت اعرف انها صدمة عنيفة لك ، ونحن نتحمل مسئولية هذا المنزل . ظننت ان في استطاعتي الحصول على عمل آخر ، ولكن كان هذا مستحيلا . لقد قضيت ثلاثة اشهر وانا ابحث وانا اعرف الآن تماما انه لا جدوى من البحث . لم يبـــق لي الآن يااليزابث سوى ان الجأ الى مكتب مساعدة العاطلين.

اليزابث : كلا ! كلا !... يجب ان تجد عملا ، يجب !

جيمس : ليس هناك امل يا اليزابث ! لا امل !

اليزابث : ولكن يجب ان تحصـــــل على ايراد ثابت ! ستتحطم حياتنا اذا لم تحصل على عمل . فكر في اوليف ! فكر في ! ماذا يقول الجيران عنا بعد ؟!

جيمس : اني آسف يا اليزابيث . اني اعرف عاقبة هذا علينا جميعا ، ولكني لا أستطيع ان أفعل شيئا . اني رجل عجوز ... آه ... رأسي ! رأسي سينفجر !

اليزابث : جيمس ، يجب ان تذهب الى مستر ستارك وترجوه .

جيمس : كلا ! كلا ! اذا عدت اليه ... فسأقتله !

اليزابث : يجب ان تعود اليه . يجب ان تطلعه على حالنا .

جيمس : لقد رجوته . لقد قلت له كل شيء . ولكنه رد على قائلا ، « كان يجب عليك ان تتذكر كل هـذا وتكون اكثر انتبـــــاها في عملك » كذب يا اليزابث ! كذب جريء قذر !

اليزابث : اني لا اصدق هذا جيمس ! لا اصدق انك لا تستطيع الحصول على عمل . غدا ، ستبحث مرة اخرى ، واذا لم تجد عملا قبل نهاية الأسبوع ...

جيمس : (**في هدوء**) نعم ؟!

اليزابث : سنناقش ذلك في حينه .

جيمس : اليزابث ، اني راحل الآن .

اليزابث : راحل ؟! الى اين ؟

جيمس : لا اعرف ... الى اي مكان ... الى الملجأ غالبا .

اليزابث : امعتوه انت ؟

جيمس : كلا ، يا اليزابث . لقد فكرت في هذا آلاف المرات . انك سوف ترسلينني لابحث عن عمل يوما بعد يوم ، وستلومينني وتؤنبينني عندما اعود في المساء . سأحيا معك حياة احقر من الكلب وانا لا اقوى على احتمال ذلك ، ولهذا سأرحل . ليس هناك من حل يا اليزابث استطيع ان القي بنفسي في النهر ، ولكني لن أفعـل هذا . في يوم من الايام قد احصل على عمل ما . لقد قالوا لي انه يمكنني ان اعمل في الملجأ مقابل طعامي وهذا يكفيني .

اليزابث : ولكن نحن ... ماذا يحدث لنا بعد ؟!

جيمس : اني مجهد لا استطيع التفكير يا عزيزتي ، اني مجهد للغاية . اذا كان جيم ماكسويل يهتم حقا باوليف ـ وفي رأيي انه شاب طيب ـ فقد يساعدكم . أما انا فلا أستطيع ان افعل شيئا بالذات ـ لا أستطيع ان افعـل شيئا . انك لن ترضى بأن ابقى هنـا ويراني الجيران أذهب الى مكتب مساعدة العاطلين .

اليزابث : كلا ، الف مرة كلا .

جيمس : اذن ، فسأخرج من حياتكم . أعدك بالا تروني مـرة اخرى (**يتنهد بقوة**) شكرا لله ، لقد انتهى كل شيء. لقد كان جحيما ... جحيما .

اليزابث : انك تسخر مني . لابد انك تسخر مني .

جيمس : كلا ! يا اليزابث ، انها الحقيقة . وسأرحل الآن .

اليزابث : انت مصمم على الرحيل ؟

جيمس : وماذا استطيع ان افعل غير هذا ؟

اليزابث : اعمل ما يحلو لك ، ولكني اعرف ما سيحدث . ستبقى بعيدا ليلة واحدة ثم تعود . ولكني لن اقبلك مـرة اخرى . ان امثالك من الرجال في حاجة الى درس قاس . وقبل ان تفكر في العودة ، تأكد اولا انك قد حصلت على عمل .

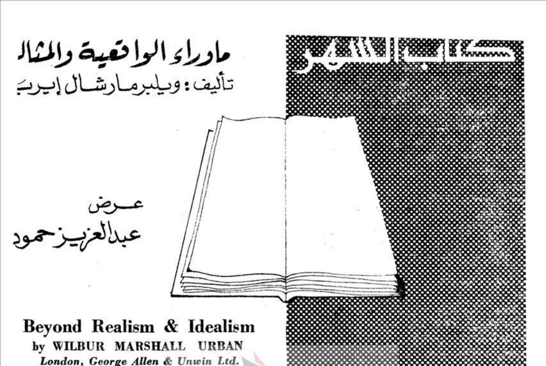
جيمس : سأتذكر ذلك جيدا . وسأودع لك الآن هذه الزجاجة .

اليزابث : زجاجة سم ؟ ماذا كنت تفعل بها ؟

جيمس : لقد اخرجت هذه الزجاجة خمسين مرة يا اليزابث، ولكني مسرور الآن باني لم العب دور الجبان . اني اعلم انه اسهل طريق للخـــلاص ، ولكني فقدت كل كبريائي يا عزيزتي . ان الدولة يمكنها ان ترعاني . لقـــــد أديت واجبي ، وعلى الدولة الآن ان تؤدي واجبها . آه ! ما أعذب الحرية ! ما أعذب الحرية .

(**يخـــــرج**)

اليزابث : خرج ! لم يعد له عمل ... بعد كل هذه السنين ؟!



« ان التناقض بين الواقعية والمثالية لا اهمية له :فليست تعبيرات الذاتية والموضوعية ، الواقعية والمثالية الا تجريدات عامة » .

كانت هذه الكلمات التى قراها المؤلف (١) فى بدايةحياته فى كتاب « فلسفة الدين » لهيجل هى التى أثرت فى اتجاهه الفكرى ، وجعلته لا يقبل أن يقال عنه انه واقعى صرف أو مثالى صرف .

لهذا يعبر المؤلف فى أكثر من موضع من كتابه عن مخاوفه من خطورة ذلك الانفصال بين مايسمىبالواقعية والمثالية ، تلك الخطورة هى التى دفعته الى تسمية هذا الكتاب « ما وراء الواقعية والمثالية » . وهو يؤمن بأن ذلك الانفصال مفروض على العقول الناضجة التى تشترك فىكثير من الاتجاهات والميول الفلسفية رغم الاختلاف والتباين الظاهر والذى يغرى بذلك الفرض هو ذاته . ولقد كان ذلك الاحساس بأن التناقض والانفصال يفتقدان أبسط الجذور الفكرية سببا فى حالة بؤس فكرى عميق دفعت المؤلف الى نشر هذه الدراسة ليفضح ذلك الوهم الذى يعرقل التيارات الفكرية الجذرية .

ولقد ظل « ايربان « طول الوقت (٢) يردد لنفسه هذين السؤالين :

أولا : كيف نشأ مثل ذلك التضارب الخطير ؟

ثانيا : كيف يمضى الجدل حوله هكذا ، بلا نهاية ، ودون يقتنع أحد الطرفين .

ويجيب « ايربان » على السؤال الأول قائلا بأن الصراع أصبح ظاهرة مميزة للعصر الحديث ، خاصة بعد التفسير السيكولوجى لنظرية المعرفة عند « لوك » و « هيوم » ، ثم ان ذلك التعارض الذى نراه الآن لم يكن موجودا فى الفلسفة الأوربية القديمة .

أما السبب فى صفة اللانهائية التى اكتسبتها المعركة فيرجع ، من وجهة نظر المؤلف على الأقل ، الى أن الجدل العميق الذى تميزت به العقود الأولى للقرن العشرين انتهى الى مايمكن أن يسمى بالسلام من غير انتصار ، سلام مرده الاجهاد ، الذى يتسم بالركود . وفى مثل هذه الحال من الركود لا يستطيع أحد الطرفين أن يثبت خطأ الآخر ، أو يؤكد صحة رأيه هو .

وينقسم كتاب « ايربان » الى قسمين . فى القسم الأول يحاول المؤلف أن ينحى التعارض جانبا وأن يستعلى عليه . يريد فى هذا القسم أن يبرهن أنه ليس من المستطاع اثبات أى من الطرفين منطقيا أو واقعيا . ثم اننا سوف نكتشف فى النهاية ، بعد أن نتفهم طبيعة ذلك التناقض ، أن الموقفين فى حقيقة الأمر لايتعارضان ، بل انهما يكملان بعضهما بعضا .

ففى الفصل الأول ، وهو تحت عنوان « نظرية المعرفة بصفة عامة ، والتناقض بين الواقعية والمثالية » لا يتفق مؤلفنا مع الفلاسفة الذين يهاجمون نظرية المعرفة لذاتها ويتهمونها بالسخف والعقم على أساس انها مجرد تفكير لا طائل بعده . أما « ايربان » فيقول اننا يجب أن « نفكر فى الفكر » ، اذ أن نتاج ذلك التفكير من معرفة بل حتى من علم سوفيكتسب معنى هاما فى نظرنا . ثم « ان مجرد وجود المعرفة والعلم فى الروح البشرية ، هذه الحقيقة وحدها تزيد فى مغزاها الفلسفى على الحقائق الأخرى سواء حول الانسان أو الطبيعة، والتى يكتسبها عن طريق دراسة العلوم الطبيعية » .

---

(١) ويلبر مرشال ابربان ، فيلسوف انجليزى حديث .

(٢) بعد نشر Beyond Realism and Idealism The Philosophical Review, vol. XXIV, No. 2, 1917.

وهناك أناس ينكرون وجود ما يسمى بمشكلة المعرفة أساسا . فبينما يمكن الشك فى اى وقت فى عقيدة أو نتيجة فكرية ، فاننا لايمكننا ان نشك فى الأشياء التى لدينا أو الأشياء الموجودة حقا . فاذا قلنا أن فلانا مريض بالجدرى مثلا ، يمكننا أن نشك فى كلمة الجدرى باعتبارها تصورا عقليا ، ولكن هل يمكننا ان نشك فى وجود ذلك الشىء الذى اصطلحنا على أنه الجدرى وأعطيناه هذا الاسم ؟ وفى هذا يقول « جون ديوى » (١) : « قد يشك المرء فيما اذا كان مصابا بالحصبة أم لا ، لأن الحصبة لفظ مجرد ، تخصيص ، ولكنه لا يستطيع أن يشك فيما لديه بالخبرة ـ لا لأنه اكتسب معرفة مباشرة بها ، كما يؤكد الكثيرون فى أكثر من موضع ـ بل لانها ليست مسألة فكرية على الاطلاق ، ليست مسألة صحة أو زيف ، يقين أو شك، ولكنها مسألة وجود » .

ويرد « ايربان » على ذلك قائلا ان امتلاكنا لشىء نسميه المعرفة ليس ضمانا بان يكون ذلك الشىء هو ما نعتقده ، ليس ضمانا بانه لن يكون مجرد شكل من أشكال السلوك الحيوانى . أى انه من المستحيل أن نشك فى تملكنا لهذا الذى نسميه معرفة، ولكن الشك ممكن الى حد كبير حول مغزى وأهمية هذه المعرفة.

واذا سلمنا فى نهاية الأمر بضرورة المعرفة ، « واننا لا بد أن نعرف » لوجدنا التفسير والتبرير اللازمين لحركتى الفكر المتناقضتين : الواقعية والمثالية . اذ انهما تمثلان اصرارا على التفكير فى الفكر ، ثم انهما تمثلان تقييما متباينا للمعرفة .

ونسأل انفسنا : أين ينشأ ذلك التعارض بين الاتجاهين ؟ ان كلا من الواقعية والمثالية تسلمان اساسا بوجود المعرفة ولكن المشكلة التى يختلفان حولها هى صحة هذه المعرفة . وهماحينما يختلفان يكون اختلافهما حول قيمة المعرفة ، مما يتضح معه ان المشكلة فى جوهرها مشكلة قيمة . والمأساة ، أو قل الملهاة ، فى هذا ان كلا من الطرفين ينحو منحى يجعل المعرفة الحقة ضربا من المحال . فالفيلسوف الواقعى يرى أن مغزى المعرفة ـ قيمتها ـ ينعدم اذا لم نعتبر المعرفة شيئا منفصلا مستقلا عن العارف. أما من وجهة نظر الفيلسوف المثالى فان قيمة المعرفة تنعدم اذا لم نعتبر موضوع المعرفة متعلقا بالعقل العارف ومعتمدا عليه .

وينتقل ايربان بعد هذا مستعرضا المثالية والواقعية فى تاريخ الفلسفة متناولا المشكلة فى فترتيها القديمة والحديثة . وفى رأيه أن مشكلة المعرفة قديمة قدم الفكر الفلسفى ، وأن التعارض بين الواقعية والمثالية موجود منذ البداية . ومع هذا فان المشكلة بصفة عامة وذلك التعارض بصفة خاصة من نتاج العصر الحديث .

لقد كانت الفلسفة الأوربية الى ماقبل « لوك » تقوم على مبدأ أساسى وهو الثقة فى العقل الانسانى . ثم جاء « لوك » بنظريته عن فسيولجية المعرفة وماتبعها من الشك الهدام .وكان هذا بداية لظهور مشكلة المعرفة بمفهومها الحديث . وينطبق نفس الشىء على التعارض بين الواقعية والمثالية . فمع أننا يمكننا القول بأن افلاطون كان مثاليا وأن أرسطو كان واقعيا الا أن التعارض حديث كلية ، نشأ عن اسباب وظروف تاريخية محددة .

ظهرت الكلمتان أول ماظهرتا فى نهاية القرن السابع عشر ، اذ استعمل لايبنز لفظة « المثالى » على أنها عكس « المادى » ، أى « الشكل » ضد « المادة » . والغريب أن تفسير اللفظة فى ذلك الوقت بهذا المعنى كان آخذا فى الاختفاء بسرعة ملحوظة ، لأنها كان عليها أن تكيف نفسها مع التغيرات التى جاءت مع فلسفة «ديكارت» و «لوك» ، وأصبحت الكلمة بعد هذا تعنى الاتجاه الذى لايعترف بحقيقة خارج عالم الفكر أو العقل . ولما كان « باركلى » هو أول فيلسوف استعملها فى هذا المعنى ، فقد أصبحت الكلمة فى معناها الجديد لاتذكر الا مرتبطة باسمه . وكان ذلك المفهوم للمثالية هو الذى أدى الى ظهور الواقعية مؤكدة وجود عالم حسى خارجى مستقل عن عالم العقل .

(١) Experience and Nature. p. 21.

ويأتى « كانت » ليرى الموقف كما يلى : « باركلى ،وولف Wolff » من ناحية ، يؤكدان بمثاليتهما انه لا وجود الا لكائنات مفكرة ، وأن الأشياء الأخرى التى نعتقد أننا نحسها ليست الا مجرد أفكار فى عقول هذه الكائنات المفكرة » .والاتجاه الواقعى المناهض من ناحية أخرى .. يأتى « كانت » ليرسى أسس نظريته « المثالية المتعالية » (١) التى تقوم فى جوهرها على رفض المثالية الجامدة عند « باركلى » والمثالية الجدلية عند « ديكارت » . ورغم هذا فما لبث اسم « كانت « أن ارتبط بمفهوم المثالية بصفة عامة . وبعد « كانت » و « هيجل » تكتسب اللفظة تغييرات جوهرية ليس هذا مجال سردها .

واذا كانت المثالية قد اضطرت أن تكيف نفسها مع التغيرات الجديدة ، كما سبق أن ذكرنا ، فقد اضطرت الواقعية أن تفعل نفس الشىء ، اذ كان عليها هى الأخرى أن تكيف نفسها مع الظروف الجديدة . . وكانت نتيجة ذلك ان اكتسبت كلمة الواقعية ألوانا وشروحا شتى ، الى حد القول بان لدينا ضروبا من الواقعية تتعارض فيما بينها تماما كما تتعارض الواقعية ـ ككل ـ مع المثالية .

فاذا أردنا ان نستخلص من هذه النظرة التاريخية شيئا ، فاننا نخرج بشىء واحد ، وهو أن المشكلة ليس أساسها افتقار اللفظتين الى المعنى أو ضيقه ، بل ان أساسها امتداد ذلك المعنى وغناه . اى بعبارة اخرى اننا لانستطيع أن نصل الى تعريفات محددة ينتهى اليها كل اصطلاح فى ظلاله المختلفة ، أو أننا اذا أردنا ان نصل الى مثل هذه التعريفات فلن نستطيع ذلك دون الرجوع الى عاملى الزمان والمكان وظروفهما ، لهذا ، اذا أمكننا أن نتصور اللفظتين على أنهما قطبان ، فان مابينهما لم يكن دائما فراغا مليئا بحركة التضاد والتنافر . فقد مرت المثالية من مرحلة المثالية الذهنية الى المثالية المتعالية ومنها الى المثالية الموضوعية التى يمكن أن نعتبرها واقعية روحية . ومن الناحية الأخرى مرت الواقعية من واقعية حسية الى أنماط متعددة من الواقعية النقدية حتى وصلت الى الواقعية المنطقية التى تختلف قليلا عن المثالية . اذن فلم تكن المسافة بين القطبين فراغا أو طاقة تنافر محض ، بل اننا فى بعض الأحيان لانفرق بين الاتجاهين الا بكلمة .

ورغم هذا التباين بين الاتجاهين العامين للواقعية والمثالية ورغم التغيرات التى تطرأ على كل منهما فاننا لا نستطيع ان ننكر وجود مايسمى دوافع ابستمولوجية (٢) متغلغلة فى الاتجاهين على السواء ، واضحة حتى مع التغيرات التاريخية التى يمران بها. ونستطيع أن نسمى هذه « بالقوة الدافعة للمثالية » وقدرة الواقعية على المقاومة . والمثالية ذاتها هى القوة الدافعة لكل الثقافات الحية ، فهى تخلق وتحيى وتصلح . واذا كانت المثالية هى القوة الواقعة للحياة فانها ايضا القوة الدافعة للمعرفة والفلسفة . وربما استطعنا أن نرجع الى افلاطون ومنطقه التأملى الاحساس بأن الحقيقة لا توجد فى عالم الحواس الذى يخضع للتغيير الدائم ، ولكنها توجد فى عالم اللاحس ، فى عالم الافكار الذى يعطى الظواهر الحسية وجودها الدائم. وأمام هذه القوة الدافعة للمثالية كانت تظهر دائما مقاومة الواقعية التى تحاول تسفيه ما تنادى به المثالية على أساس تحقيق تكيف أولى ، بل حتى عضوى مع العالم الخارجى .

وقبل أن ننتقل الى المذهبين نتناولهما بالتفصيل ، بقيت كلمة عن طبيعة التعارض بينهما . ماهو الطابع الذى تتسم به هذه المعركة بين الاتجاهين الفكريين ؟ يقول كثير من الفلاسفة بأن المعركة جدلية الطابع ، على أساس أن أى مناقشة لنظرية المعرفة تعنى الخروج من نطاق الوجود الى حيز الجدل ، وأن نظرية المعرفة بصورة عامة تعنى « الانتقال التام من عالم الاشياء الى عالم الجدل والمعانى » (٣)

(١) Transcendental Idealism.
(٢) Epistemological Intentions.
(٣) John Dewey, Experience and Nature p. 140.

فلنطبق هذا الكلام على المشكلة بصفتها العامة ، ثم ننتقل بعد ذلك الى الجانب الخاص . اذا تناولنا جدلا حول نظرية المعرفة ، لرأينا فى سهولة ان الجدل لا يدور حول الاشياء على الاطلاق ، بل يدور حول معنى وقيمة مانسميه بالمعرفة . وهذا مايتضح بصورة أقوى فى أى جدل حول حقيقة المثالية والواقعية .. فمثل هذا الجدل لايدور حول وجود الأشياء أو عدم وجودها .. لايقوم حول صحة أو زيف الافتراضات التى تستخدم لتفسير الاشياء ، ولكنه يدور دائما حول معنى المعرفة. فصاحب المذهب الواقعى يعتقد أن المعرفة الحقة محال الا اذا كان الشىء المعروف مستقلا عن العارف ، فى حين يعتقد صاحب المذهب المثالى أن المعرفة غير ممكنة اذا كانت مستقلة تماما ، أى الا اذا كان هناك اتحاد بين العارف والمعروف . وكل هذا الجدل كما نرى لايتصل بالأشياء ذاتها بقدر مايتصل بعالم الجدل والنقاش. وهنا يدخل المناطقة الوضعيون .

فحدوث ذلك الانتقال من عالم الأشياء الى عالم المعانى دعا المناطقة الوضعيين الى اعتبار المشكلة برمتها لامعنى لها . فهم يرون أنه لاوجود للمقياس الحسى الذى يمكننا أن نعاير به ذلك السؤال الميتافيزيقى . ويتفق معهم « ايربان » حول هذه النقطة ، ولكنه لايرى معهم مايرون من أن السؤال لامعنى له . فليس هناك ضرورة تحتم هذا لمجرد أن انعدام المحك الحسى ، لسبب بسيط وهو ان المشكلة لاتدور حول « أشياء » ، حول صورة نريد أن نتأكد من صحتها ، أو حادثة تاريخية نريد أن نرجعها لتاريخها الصحيح ، أو اكتشاف علمى أو غير ذلك . ولكن المشكلة تقع داخل نطاق الجدل والمعنى . ومن هنا تبرز اهمية المشكلة .

بعد هذا ينتقل المؤلف ليتناول المذهبين كلا على حدة ، يناقش ماهية كل اتجاه ، أين يقف وعلى أى اساس والى أى شىء يرمى ؟ وأين يتفق أو يختلف مع الاتجاه الآخر .

● القوة الدافعة للمثالية : الاتجاه المثالى

سبق ان أشرنا الى انه ليس من اليسير أن نضع أيدينا على تعريف بسيط مناسب لأى من الاتجاهين . فما هى المثالية مثلا ؟ لو أردنا تعريفا مناسبا لما استطعنا الوصول اليه ،ولكننا نستطيع أن نحدد ، بقدر المستطاع ، الاتجاه العام للفكرة المثالية عبر تغيراتها التاريخية ، أى نحدد الخط المشترك الذى يمتد عبر هذه التغيرات . واذا كان الأمر كذلك ، واذا كان من العسير الوصول الى التعريف البسيط ، فالأفضل ان ندع أتباع المذهب انفسهم ليحددوا لنا هذا الخط المشترك . هناك القائل بأن المثالية هى النظرية القائلة بأن العالم موجود فى العقل . ولما كان العقل لا ينفصل عن القيمة ، اذن فقد كان « دين انج » محقا من ناحية المبدأ حينما قال ان المثالية هى (تفسير العالم حسب معيار القيمة ، أو على حد قول أفلاطون فكرة الخير) ومن هذه المقتطفات تتضح لنا المثالية الميتافيزيقية التى كانت تلون الفكر الاوربى منذ البداية .

تلك اذن هى الخطوط العريضة للاتجاه المثالى . ولكننا لكى نتفهم ذلك الاتجاه على حقيقته يجب أن ننحى جانبا تلك الفكرة الخاطئة القائلة بأن الواقعية هى السلوك « الطبيعى » للانسان ، فى حين ان المثالية هى « النقد الحديث » للمعرفة الانسانية .

فالحقيقة ان الانسان مثالى واقعى فى نفس الوقت . اذ أن العالم الذى يعيش فيه ذلك الانسان ملىء باعداد من الأشياء الحسية ، ولكنه أيضا ملىء بأشياء لاتوجد الا على المستوى الفكرى . خذ مثلا : الله ، الحب ، المجد ، الشهرة ، العدالة ، كلها تتصل بعالم المثل المتعالى . ولكن استعداد الانسان للقتال والمعاناة والموت من أجلها يضفى عليها صبغة أخرى . فهذه الأشياء ذاتها ، فى لحظات التجربة ، تصبح أكثر الأشياء«واقعية» بالنسبة لنا . هذا جانب واحد من جوانب النظرية المثالية تصبح الأشياء مثالية وواقعية فى نفس الوقت .

أما الجانب الآخر فهو الاعتقاد بأن عالم الحواس ليس عالما واقعيا . لهذا يحاول المذهب المثالى التدرج من الأشياء الموجودة فى العقل الى الأفكار . وان أعظم اللحظات فى التاريخ الفكرى لأى انسان حينما يكتشف خداع حواسه ، بل أكثر من هذا حينما يكتشف خداع الأفكار وتناقضها .

● المذهب المثالى فى التراث الفكرى الأوربى

اذا غضضنا الطرف عن تشابه الفكر الاغريقى والفكر الشرقى ، وجدنا أن المذهب الأفلاطونى يحمل فى طياته بذور المثالية الطبيعية . فعالم الحواس عند أفلاطون ليس هو عالم الواقع ، والواقع فى نظره هو مانسميه بالأفكار . وأفلاطون لا يرجع الحقيقة الى عالم الحس المتغير ، بل أن الوجود الحق فى الأفكار التى تضفى على الظواهر ماتتسم به من وجود دائم .. فالأشياء الحقيقية موجودة فى عالم فوق الحس ، عالم المثل . وعن مذهب أفلاطون نشأت المثالية فى الفكر الأوربى ، مايتصل منها بالميتافيزيقا ومايتصل منها بالمعرفة .

ويأتى أرسطو ليحمل مشعل المثالية بعد أفلاطون . ولكننا نحس وجود قوة جديدة فى فلسفة ارسطو ، وهى قوة المقاومة التى تبديها الواقعية . من هنا ينشأ الازدواج الفكرى عند ارسطو بصورة لم تكن موجودة عند أفلاطون . ولكن الخط الأساسى للفكرة المثالية موجود ، فالمعرفة عنده ممكنة ما دامت فى الأفكار ، وخاصة فكرة الخير . ويستمر نفس الخط ظاهرا فى الفلسفة المسيحية والمدرسية التى تلتها مع بعض التعديلات التى تتطلبها الأفكار الدينية الجديدة .

ويستمر الاتجاه المثالى حتى نصل الى العصر الحديث . ولقد قيل عن «ديكارت» و «ليبنز» انهما مثاليان ، وقيل عنهما أيضا أنهما واقعيان : فكلاهما يؤمن بوجود عالم مستقل عن العقل ، ومع هذا فاللون المثالى فى تفكيرهما قوى الى حد ملحوظ .

واذا كان التيار المثالى قد استمر ملونا كل التراث الفكرى لاوربا فاننا نجد اختلافا بين المثالية حتى ماقبل ليبنز والمثالية بعده الى حد دعا بعض المفكرين الى القول بأن المثالية حتى عند «ديكارت» و «لوك» هى المثالية الحقيقية ، أما المثالية التى جاءت بعدهما فهى المثالية الزائفة ، والواقع أن المثالية كان عليها أن تكيف نفسها مع الظروف التاريخية الجديدة ، ولا أدل على ذلك التغيير أكثر من تغير مفهوم « الفكرة » ذاتها . فلقد أصبحت لفظة « الفكرة » تدل على الانطباعات الحسية وترابطها لتكوين أفكار عامة . واستتبع هذا تغير جوهرى فى مفهوم المذهب المثالى كله ، ذلك التغيير الذى يرتبط عادة باسم باركلى .

واذا تتبعنا تطور المثالية بعد ذلك وجدنا أنها مرت بمراحل أربع :

أولا : المثالية الذاتية ، أو الذهنية :

كان باركلى ، كما سبق أن أشرنا ، الفيلسوف الأول الذى ساعد فى احداث التغيير الجوهرى لمفهوم المثالية . والى ذلك التغيير يرجع ظهور المثالية الذاتية . فباركلى لايتفق مع هؤلاء الذين يرون وجود أشياء مثل الأنهار والجبال والمنازل مستقلة عن ادراك العقل ، اذ يعتقد أن هذا مناف لتفكيرنا ، وأنه يجب الا يكون هناك عالمان مستقلان ، واحد يمثل عالم العقل ، والآخر يمثل عالم الحواس . وعلى هذا الأساس أيضا يهاجم باركلى نظرية النسخة الاخرى أو المثالية التمثيلية .

وفى رأى كثير من الفلاسفة أن باركلى لم يخدم المثالية كثيرا ، فهم يرون أننا لايمكن أن نتبع تيار الذاتية الذى ينحو اليه . ثم ان المثالية ذاتها فى رأيهم لاتتطلب بالضرورة اعتماد عالم الحواس على العقل . والنقد الموجه لنظرية باركلى يتركز بصورة عامة حول الذهنية التى يتسم بها .

ثانيا : المثالية النقدية أو المتعالية :

وقد حمل لواءها الفيلسوف الألمانى « كانت » . والملاحظ أننا كلما تمعنا فى هذا الاتجاه وجدناه يتفق ويختلف الى حد كبير مع الاتجاه العام للمثالية . « فكانت » نفسه مع اتجاهه يحيط به الابهام والغموض . أى لانستطيع أن نحدد موقفه فى شىء من الدقة . فمثلا أطلق عليه لقب « شاهد ــ ان كان شاهدا على الاطلاق ــ المثالية المتردد » . كان مترددا لانه كان يشعر فى

بعض الأحيان بقوة حجة المذهب الواقعى . وربمـا كان ذلك السبب فى اعتباره فى أكثر من مجال ناقد المثالية الواقعى .

ويقوم مذهب « كانت » على رفضه لمثالية باركلى الجامدة التى تقول بأن المعرفة تبدأ من الأفكار الموجودة فى العقل . ثم على رفضه لمثالية ديكارت التى تبدأ بالذات . « فكانت » يرى ان فكرة الذات نفسها تقوم على تعارض بين شىء داخلى وشىء خارجى ، ويساعد فى احداث ذلك التعارض وجود شىء خارجى مستقل ، ولا يصبح فى امكان الذات ادراك حالتها المتغيرة الا اذا أرجعتها الى شىء دائم فى مكان ، أو بعبارة أخرى فان الحدس المكانى يحمل فى ذاته الاشارة الحتمية الى وجود موضوعى ، اى الى حقيقة فى مكان .

من هنا يتضح لنا مذهب « كانت » . فهو يقول انهلاوجود لنظرية لاتعترف بوجود أشـيـاء مـسـتقلة عن العقل ، وفى نفس الوقت لا وجود لنظرية لاتعترف بوجود أشياء مرتبطة بالعقـل ومعتمدة عليه . أى أننا لانستطيع أن نسمى المثالية نقدية الا اذا اعترفت بوجود أشياء مستقلة عن العقل ، ولا نستطيع فى نفس الوقت أن نسمى الواقعية نقدية الا اذا اعترفت بوجود أشياء مرتبطة بالعقل .

كان هذا هو جانب اختلاف نظرية « كانت » مع التيـار العام للاتجاه المثالى . أما كيف يتفق « كانت » مع المثاليـة بصفة عامة ، ومع باركلى بصفة خاصة فهذا يرجع الى وجـود العوامل الثلاثة التى تميز مثالية باركلى عند « كانت » أيضا . وهذه العوامل هى :

(ا) القول بأن عالم الظواهر الحسية ليس هو عـالم الواقع .

(ب) أن عالم المثل أو الروح هو عالم الواقع ، وخاصـة فكرة الخير .

(ج) أن المعرفة الحقة تعنى اتحاد العارف والمعروف .

ثالثا : المثالية المطلقة

لم يعد للفلسفة الذهنية وجود بعد ظهور « كانت » . ثم جاءت تيارات فكرية مختلفة كانت فى معظمها تحاول الاقتراب من « كانت « ومنحاه الفكرى ، ومنها تيار يعتقد أنه ذهب الىماوراء المثالية النقدية عند « كانت » وهو تيار المثالية المطلقة .

ويرى « هيجل » ، رسول ذلك الاتجاه ، أن « كانت » قاد الفكرة المثالية حتى منتصف الطريق ، وأنه لم يحقق الا هدفا ناقصا . بل أكثر من هذا ينظر هيجل فى فلسفـة « كانت » فيراها مليئة بالمتناقضات .

فباركلى يرى أن المعرفة الأصيلة محال الا اذا تشـابه المعروف والعارف ، أو كان فكرة فى العقل ، و « كانت » يرى أن هذه المعرفة محال الا اذا كان الشىء المعروف يكونه العقـل ويصوره الى حد ما . أما مع هيجل ومثاليته المطلقة فالمشكلة تختلف ، فليس الامر كيف يلتقى الشىء بالعقل فى ظل المعرفة ، ولكن السؤال ماذا يجب أن تكون طبيعة موضوع المعرفة ان كانت هذه المعرفة ممكنة على الاطلاق ؟ والمعرفة الاصيلة فى رايه لا تكون الا معرفة بالكل ، وصفة الكل لاتوجد الا فى العقل . اذ اننا فى ميدان لانجد الوحدة ، اللهم الا اذا فسرت الحياة على أسس روحية ، أى نقلناها الى مدار العقل . ويتبع هذا ماينادى به من فكرة الكثير فى الواحد ووحدة التناقض . ولكن المهم أن الحقيقة فى « الـكل » .

رابعا : المثالية الحديثة :

ويقوم هذا الاتجاه المثالى الاخير بعد أن تنهار معظـم التيارات المثالية السابقة ، بل فى الحقيقة « انه يتوهج على أشلائها » ويسمى ذلك الاتجاه بمثالية القيم . وقد ظهر ذلك التيار عنـد كثيرينمن أتباع « كانـت » و « هيجـل » و « فيخت » « وفى الكتابات المتأخـرة لبوزانكيه ورويس ...

ويحدد احد فلاسفة ذلك الاتجاه مبادئه قائلا « اننا لانستطيع أن نعتبر الطبيعة موجودة فى ذاتها ، بل يجب أن نعتبرها عنصرا فى كل لايمكن التعبير عنه الا على ضوء القيم ... ولما كنا قد تعودنا القيم فى تجاربنا ذاتها ، فاننا نحس بأنه من المستحيل أن ننظر الى شىء مجرد من القيمة باعتباره حقيقة أو مستقلا بذاته ، أو بعبارة أخرى ، باعتباره كلا reo Completa (1)

وفى راى اتباع ذلك الاتجاه ان القوة الدافعة للقضية المثالية هى هذه الاستحالة الخلقية ، أكثر من اى تناقض تاملى ، بوجود عالم غير معروف تماما . اذن فالمعرفة المنفصلة عن القيمة ضرب من المحال فى نظر هؤلاء الفلاسفة . وهذا يرجعنا الى ما سبق أن أشرنا اليه من أن القوة الدافعة الأساسية للمذهب المثالى هى ارتباطه بالقيمة .

● المذهب الواقعى

وأمام هذا يقف الفيلسوف الواقعى ليدافع عن « عالم الرجل العادى » ضد رومانسية المثاليين . وفى بعض الأحيان يتسم دفاع الواقعى بنغمات من الغضب والثورة .

لكن ، ماهى الواقعية ومامفهومها وجذورها ؟ وكما هوالحال مع المثالية فاننا هنا أيضا لانستطيع أن نعطى تعريفا واضحـا للواقعية يحدد طاقاتها بصفة عامة ، وطاقتهـا فى أشـكالها المتغيرة .

وهنا أيضا ، سوف نترك الداعين للواقعية يتحدثون هم أنفسهم عن مذهبهم ، وان كنا نجد صعوبة لم تظهر فى تناولنا للمذهب المثالى . فالمثالية هى العنصر الخلاق فى الفلسفة بينما تمثل الواقعية جبهة المعارضة . المثالية تبدأ الهجوم ، بينمـا الواقعية تقوم بالرد على هجمات المثالية بالنفى ، بل أكثر من هذا نجد أن كل شكل من أشكال الواقعية تحدده وتتحكم فيه التهم التى توجهها اليه المثالية فى أشكالها المختلفة .

وهنا أيضا يجرى الخط الأساسى نفسه فى كل أشـكال الاتجاه الواقعى ، وهو الدافع الابستمولوجى ونسأل انفسنـا ماهو ذلك الاتجاه العام المشترك ؟ وهنا أيضا نفس الغموض واللبس وصعوبة اعطاء اجابات محددة واضحة . ولـكننا نستطيع ان نسوق راى أحد الفلاسفة الواقعيين فى هـذا المضمار (٢) « ان الواقعية بصورة عامة تقوم على الاعتقاد بأن الحقيقة سابقة على معرفتها » . ويتبع هذا الا نعتبر العقل محورا تدور حوله معرفتنا ومدركاتنا ، بل انه يأتى فى مرتبة تلى الحقيقة . ومن الخطأ هنا أن نعتقد بأن القول بأولوية الحقيقة يعنى أنها مستقلة عن معرفتها ، لأن أى فلسفة ، اذا كانتفلسفة لابد أن تعترف بوجود علاقة بين العارف والمعروف . ان الواقعية لاتعنى مجرد انفصال العارف عن المعروف ، ولكنها تعنى تحرير الوجود من سلطة المعرفة ، وشتان بين المعنيين .

● الواقعية فى تطورها

وأول صور المذهب الواقعى هو « واقعية السليقـة »

وينادى هذا الاتجاه بأن العالم الطبيعى موجود ، سـواء ركزت عليه حواسنا ، أم حولناها عنه . فالمتأمل فى جمال الليل يأمل أن يستمر النجم متلألئا فوقه بعد أن يغفـو ، وأن الانغام والروائح التى لا تسمع أو تشم سوف تستمر منسجمة وعطـرة من بعد كما كانت من قبل » (٣)

وتمضى واقعية السليقة قائلة بأن الانطباعات الحسية التى تعتبر دليلا على وجود الشىء الحسى هى ذاتها اجـزاء من ذلك الشىء الحسى ممتدة فى زمان ومكان ، ثم أن الاجـزاء الاخرى التى لم تدخل فى دائرة الحواس ، أى التى لم تلمس أو تشم ، تشترك فى الخصائص نفسها التى نجدها فى الأجزاء التى وقعت فى دائرة الحس . فحينما أتذوق قطعة من تفاحة افترض طبعا أن بقية أجزاء التفاحة ـ حتى لو لم أتذوقها ـ تشترك فى نفس الطعم وبقية الخصائص الحسية .

---

(١) Pringle Pattison : The Idea of God in the Light of Recent Philosophy p. 200.

(٢) I. Lowenberg, «Problematical Realism,» Contem porary American Philosophy vol. II., pp. 55, 56.

(٣) Lotze, Microcosm.

ثانيا : الواقعية التمثيلية Representative Realism.

ماتت الصورة الأولى من صور الواقعية بسبب بساطتها وبراءتها وتعذر التأكد من حقيقة ماتأتى به الحواس . ولكنها قبل أن تموت أدت الى ظهور تيار جديد وهو تيار الواقعية التمثيلية .

لقد قلت أن الواقعية نشأت أول ما نشأت فى صورة مقاومة للذهنية التى اتسمت بها المثالية عند باركلى ، مقاومة لوجهة النظر القائلة باعتماد الحقيقة على العقل . أى انها لا تسلم بوحدة العارف والمعروف . وهذا يؤدى بالطبع الى تسليمها بفكرة الازدواج التى أمكن أن تؤدى فى سهولة ويسر الى اعتبار المعرفة نسخة اخرى لشىء آخر ، وأن وظيفة المعرفة وظيفة تمثيلية . ولكن سرعان ماواجه رجال مثل « ديكارت » و «لوك» و « ليبنز » مثل هذه الأسئلة : كيف نعرف مثلا أن هناك عالما مستقلا عنا ؟ وكيف نعرف أن افكارنا تعطينا معرفة صحيحة بهذا العالم ؟ كيف نتأكد من ان هذه الافكار نسخ صحيحة للأشياء المستقلة ؟

وتلقت هذه الأسئلة اجابات مختلفة . فايمان ديكارت مثلا بالواقعية كان يقوم على ايمانه بالخير عند الله . فأنا قد اعترفت بوجود الله ، وأنا أدرك أن الله لا يخدع ولا يحتال ، ويترتب على هذا ايمانى بأن معرفتى لايمكن ان تكون زائفة .

أما فيلسوف مثل ليبنز فكان يعترف بوجود عالم خارجى، ولكنه اعترف بأنه « لا يوجد دليل قاطع على أن الأشياء المحسوسة موجودة خارجيا » . ويصر على أن وجود العالم الخارجى يقوم على يقين خلقى .

ثالثا : الواقعية النقدية

ان الواقعية النقدية ثورة وخروج على واقعية السليقة والواقعية التمثيلية . فالمعرفة عند اتباع هذا المذهب مسألة حكم أو ارجاع الى حكم ، فهى ليست مسألة ايمان بموضوعية صورة العالم العادى ، وليست مسألة ايمان خلقى كما يبدو عند التمثيليين ، ولكنها مسألة ايمان عاقل او واقعية عاقلة كما يسميها لويس .

رابعا : الواقعية الحديثة

نشأ ذلك الاتجاه مع الفلسفة الألمانية والانجلو ـ أمريكية الحديثة . وينظر ذلك الاتجاه فى المذهب الواقعى الى مثالية باركلى باعتبارها خصما يجب أن يحاربه ، الا أن عدوه الأول هو المثالية المنطقية عند « هيجل » ، ثم عند « برادلى » بعد ذلك . والفرض الأساسى لهذا الاتجاه الجديد هو أن كل معرفة تعنى وجود شىء يعرف ، أى أن عملية المعرفة ذاتها تعنى وجود شىء يعرف . ففى كل المعانى التى نقولها ، وفى كل تفكيرنا نشير الى موضوع للتفكير باعتباره مختلفا عن التفكير ذاته . وكل هذا يشكل عالما للحقيقة لانخلقه وانما نكتشفه . لهذا فهو عالم موضوعى محض يختلف عن عالم باركلى الذاتى الخالص . اذن فالذى يحدث هنا أن الواقعية فى ثوبها الجديد تذيب الذات فى الموضوع متجهة فى النهاية الى الايمان بذلك الموضوع على عكس مايحدث فى المثالية المتطرفة عند باركلى حينما يذيب الموضوع فى الذات متجهة الى الايمان بالذات .

● التعالى على الواقعية والمثالية وشروطه .

لقد توصل معظم الفلاسفة الى أن كلا من الاتجاهين المثالى والواقعى لايمكن القضاء عليه أو ابادته . ولقد شاهدنا التباين والتعارض بين الطرفين . ولكن الحياة سنتها خلق المعارضة ثم مصالحتها بعد ذلك . وهذا هو الحال هنا . فنحن لا يمكن أن نستغنى عن الواقعية أو المثالية ، انهما معا ، بتضادهما وتعارضهما ، ضروريان لبقاء الحياة الانسانية فكريا واجتماعيا .. هما متعارضتان ، هذه حقيقة ، ولكنها حقيقة لاتنفى امكانية التوفيق . وحتى يمكن تحقيق ذلك التوفيق لابد أن نفهم حقيقة التعارض ، والشرائط اللازمة للاستعلاء عليه ، وهذه الشروط هى :

أولا : التسليم باستحالة القضاء على أى من الطرفين أو استبعاده .

ثانيا : استحالة تأكيد هذين الاتجاهين أو نفيهما .

ثالثا : التسليم بأن الصراع بينهما لايمكن انهاءه بالوسائل التى يتبعانها . ومايلى ذلك من ضرورة تغيير اتجاههما .

● ماوراء الواقعية والمثالية : التوفيق بينهما

سبق أن قلنا انه لايمكن الاستغناء عن أى من الاتجاهين ، وانهما ضروريان لحركة الحياة الانسانية فكريا واجتماعيا ،وأن الحياة تخلق المعارضة ثم تصالحها . أى ان التوفيق بين المذهبين ممكن نظريا وعمليا . وسوف نحاول تحقيق ذلك التوفيق على مستويات ثلاثة .

***

أولا : المستوى النفسى :

ينظر فيلسوف مثل يونج الى المشكلة قائلا اننا اذا دققنا النظر رأينا موجات من مذهب معين تتغلب على موجات مضادة للمذهب الاخر ، أو على تياره بصفة عامة . وليس السبب فى ذلك هو اقتناع اتباع المذهب الثانى بحجة المذهب الاول ، بل أن السبب هو تغير الظروف النفسية المحيطة بكل من المذهبين . ويمضى قائلا ان ذلك الصراع الابدى بين المذهبين يرجع الى وجود نمطين من العقول : العقل المنبسط والعقل المنطوى. فالعقل الاول يحاول أن يذيب العارف فى المعروف ، الذات فى الموضوع . أما العقل الاخر فيحاول أن يذيب المعروف فى العارف ، الموضوع فى الذات ، ثم أن الصراع ينشأ فى أعماق اللاشعور . لهذا فان اى محاولة لحل هذه المشكلة على مستوى المنطق او الشعور تبوء بالفشل .. ان التوفيق لا يصبح ممكنا الا اذا نقلناه للمستوى النفسى .

لكن علم النفس لايستطيع أن يساعدنا الا فى توضيح أسباب ذلك الصراع ونشأته . من هنا تظهر امكانية حل آخر .

ثانيا : المستوى البرجماتى :

يرى « ويليام جيمس » أن الصراع بين المثالية والواقعية لا أهمية له وأنه يقوم على تحيز أو تعصب أساسى وهو أن المعرفة تعتمد على وجود حقيقة سابقة ، ويرى « جيمس » أننا لو نحينا هذه الفكرة جانبا لانهى الصراع نفسه بنفسه ... والموقف البرجماتى هنا يقترب الى حد كبير من موقف المناطقة الوضعيين الذين لايرون أهمية لهذا الصراع .

لكن البرجماتية بوضعها الراهن لاتعطينا حلا مناسبا ، فهى لاتعطينا حلا كاملا بل شبه حل . وعلى كل حال فقد تساعدنا وجهة النظر النفسية فى الوصول الى أعماق المشكلة ومصادرها وأسباب الصراع بين الطرفين ، وقد تساعدنا وجهة النظر البرجماتية فى معرفة المغزى الاجتماعى والثقافى لهذا الانشقاق ، ولكن التوفيق الكامل يحتاج الى شىء اعمق من كل من علم النفس والنظرة البرجماتية .

ثالثا : المستوى الفكرى المنطقى :

وعلى هذا المستوى نستطيع ، رغم معارضة يونج وفلاسفة آخرين ، أن نصل الى تحقيق ذلك التوفيق الكامل بين الاتجاهين. فهو يعنى تفهم المعارضة التى سماها يونج نفسية ، وتفهم الاعتبارات التى يسميها البرجماتية عملية ، وماعلى الفيلسوف الا أن يستعلى على المشكلة بتفهمها .

لقد سبق أن قلنا أن المشكلة أساسا جدلية محضة ، ولا يمكن أن يقوم التوفيق بين الاتجاهين المتخاصمين الا على أساس جدلى محض أيضا .

فى تحقيـــق التـــراث



تحقيـــق : حسن كامل الصيرفي

نقد وتعليق : عبد السلام هـارون

– ٤ –

٨٧ – ص ٢٥٧ البيت ١٧ :

مُلِظٌّ بالطريق وليس يُصغِى
لأنجية الطريق ولا يُجيبُ

جاء فى تفسيره : «ملظ من ألظ قبره ، أى لزقه بالأرض» . وهذا التفسير من القاموس ، وصواب نصه «ألزقه» . وإذا صح هذا المعنى مرادا للبحترى يجب أن يضبط «ملظّ» بفتح اللام لا بكسرها . على أننى أخشى أن يكون فى بعض نسخ الديوان «مُلِظّ» من الإلظاظ ، وهو اللزوم والإقامة . يقال : ألظّ بالمكان وألظّ عليه : أقام . وكثيرا ما توصف القبور وسكّانها بالإقامة ، لأنها لا تفارق مكانها . ومن ذلك قول متمم بن نويرة :

فقال أتبكى كل قبرٍ رأيته
لقبرٍ ثَوى بين اللِّوى والدكادكِ

وقول بعض بنى أسد فى الحماسه ٨٦٥ بشرح المرزوقى :

بكّى على قتلى العِدانِ فإنّهم
طالت إقامتُهم ببطن برَامِ

وقول النابغة فى الحماسة بشرح المرزوقى ٩٠ :

بعد ابن عاتكة الثاوى على أبَوَى
أمسى ببلدةِ لا عمٌّ ولا خالِ

وقول قُراد بن غُوَيّة فى الحماسة ١٠٠٥ :

ودُلّيت فى زوراء يُسقَى تُرابُها
علىَّ ، طويلًا فى ثراها إقامتى

٨٨ – ص ٢٦٠ البيت ٤ :

نشـدتكما اللهَ أن تدفعا
ذِمامى ، وأن تنسيا واجبى

وفسّره الشارح بقوله : «وأن تنسيا بمعنى ألّا ، إذْ يجوز حذف لا» . وهذا تفسير صحيح وواجب ، ولكن كان من الأولى أن يوجّه هذا التفسير إلى قوله «أن تدفعا» ، لأنها هى السابقة ، ومعناها على حذف «لا» أيضا ، أى أن لا تدفعا ذمامى . ويكون فى تفسيرها اكتفاء عن تفسير تاليتها ؛ لأن المعطوف يتبع المعطوف عليه لا العكس .

وذكر صاحب المغنى ٢ : ١٧١ أن حذف «لا النافية» يطرد فى جواب القسم إذا كان المنفى مضارعا نحو «تالله تفتؤ تذكر يوسف» ؛ ويقل مع الماضى . ونشدتك هنا بمعنى سألتك بالله واستحلفتك به .

٨٩ – ص ٢٦١ البيت ٢ :

وأيامُ الشَّـــــباب معقَّباتٌ
على إبداء آثام المشيب

وقبلــه :

أمردودٌ لنـــا زمَنُ الكثيب
وغُرَّة ذلك الرَّشـــأ الربيبِ

وصوابه «معقِّباتٍ» بالنصب على الحال وبكسر القاف المشددة لا فتحها ؛ فليس «أيام الشباب معقبات» كلامًا مستأنفا ، وإنما «أيام» معطوفة بالرفع على «غُرَّة» ، و «معقِّباتٍ» فى موضع الحال منها لامرفوعة على الخبر .

والمعقِّبات ، بكسر القاف المشدَّدة : التاليات . يقال : ذهب فلانٌ وعقَّب فلانٌ بعده ، كما يقال عقَّبَ عليه : كرَّ ورجع . وفى التنزيل العزيز : «ولَّى مُدْبِرًا ولم يعقِّب» وعقب تعقيبا ، إذا أُغير عليه فحُرِب – أى سُلب ماله – فأغار على الذى كان أغار عليه فاستردَّ ماله .

فهذا هذا . وأما «إبداء» فصوابها «أبداء» بفتح الهمزة ، وهو جمع بدء . وأبداءُ من لغة البحترى ، انظره يقول فى ديوانه ٢٧٩ :

مثل ابن بسطام الذى شرُفَت
أبداؤه ثم تُمِّمت عُقَبُــــه

والأبداءُ : الأوائل كما رأيت ، يعنى جدوده . وآثام المشيب ، منها بياض الرأس ، والضعف ، ووهن الجسد .

٩٠ – ص ٢٦١ البيت ٣ :

إذا ابتسمَتْ تألَّق عارضاها
على ضَرَبٍ يُصفَّق فى ضَريبِ

وقال الشارح : «يصفق : يحول الشراب من إناء إلى غيره ليصفوَ» . وهذا التفسير هو الذى اقتصر عليه صاحب القاموس . ولكن المراد بالتصفيق هنا المزْج ، كما فى اللسان . وبه فسِّر قول حسان المشهورُ :

يَسْقُون من وَردَ البَريص عليهمُ
بَرَدى يصفَّق بالرحيقِ السَّلسلِ

ونحوه قول المرَّار فى المفضليات ص ٩٠ :

لو تطعمَّتَ به شَبَّهتَـــــهُ
عَسَـلاً شيبَ به ثلجٌ خَصِرْ

وليس يصح معنى التحويل فى مثل قول حسان ومثل قول البحترى . فالمراد فى قول البحترى أن رضا بها كأنه العسل ممزوجًا بالضريب ، أى الثلج . وفى قول حسان : يسقونهم ماء بردى ممزوجا بالرحيق السلسل . ولا تحويل من إناء إلى إناء فيهما كما رأيت .

٩١ – ص ٢٦١ البيت ٤ :

مَتى يُوشكْ غروبُ الشمس يُردَدْ
سناها من سنا تلك الغروبِ

وقبله :

إذا ابتسمت تألَّق عارضاها
على ضَرَبٍ يصفَّق فى ضريب

فسِّرت «الغروب» الأخيرة بأنها الدموع ، مع أنه لم يسبق لها ذكر ، كما أن الجو كلّه جوّ ابتسام وفرح وبشر . ولم نجد من شعراء العرب من يجعل الدموع مثلًا فى الإضاءة والإشراق . وإنما الغروب ها هنا غروب الأسنان ، وهى ماؤها ولمعانها ، وهو المثل المعروف فى الإضاءة والإشراق . ومنه قول سُويد بن أبى كاهل فى المفضليات ١٩١ :

حُرَّة تجلو شتيتًا واضحا
كشُعاع الشمس فى الغيم سطعْ

يعنى ثغرها تجلوه بالسواك . وقال آخر :

أحاذِر فى الظَّلماء أن يستشفَّنى
عُيونُ السَّيارَى فى ومِيض المَضاحِكِ

وقال غيره :

كأنَّ ابتسام البرقِ بينى وبينها
إذا لاحَ فى بعض البيوتِ ابتسامُها

٩٢ – ص ٢٦٢ البيت ١١ :

إلى ابن أبى محمد استقلَّت
بنا قَصْدَ السُّرى ، مَيْلُ السُّروبِ

وفى تفسيره : «السروب : ذهاب الرجل على وجهه وتوجه الإبل للرعى» ، وصوابه «مِيلُ السُّروبِ» ، بدليل قوله «استقلت» ، أى ارتحلَت . والميل ، بالكسر : جمع أَمْيل وميلاء . والميلاء من الإبل : المائلة السنام ، كما فى اللسان . والسُّروب : جمع سرب بالفتح ، وهى الإبل . وفى اللسان : «السرب : المال الراعى ، أعنى بالمال الإبل . وقال ابن الأعرابى : السَّرب الماشية كلُّها . وجمع كل ذلك سُروب» . وفى القاموس : «السَّرب : الماشية كلها» . فالمراد بالقصد الإرادة ، وإن كان ظاهر لفظها يوحى بالقصد بمعنى الاستقامة ، ليشاكل فى الصنعة بين الاستقامة والميل .

٩٣ – ص ٢٦٢ البيت ١٥ ، ١٦ :

وكان ، وكنتُ ، والحالان شتَّى
بمثنٍ بالإثابة أو منيبِ
غريبُ سجيةٍ ، وغريبُ أرض
فما أكدى الغريبُ على الغريبِ

وصواب «مُنيب» هو «مثيب» كما هو ظاهر . فالمثنِى بالإثابة هو البحترىّ ، والمثيب الذى أثنى عليه هو الممدوح . وصواب ضبط «غريبُ» هو «غريبَ» بالنصب فى الموضعين على الخبر لكان وكنت فى البيت قبله . فكان الممدوح غريبا فى سجاياه التى لا يدانيه فيها غيره فى كرمه وجوده ، وكان الممدوح غريبا عن أرضه وأهله .

٩٤ - ص ٢٦٣ البيت ٢٤ :

له فى مارج النار انتسابٌ
بأُمَّات نقيات الجُيوب
سراةُ الإنس والجِنَّانِ أدَّتْ
إلى «جُوذَرزَ» نجدَتُها و «بِيب»

و «جوذرز» و «بيب» : جدَّان من أجداد الممدوح . وصواب «نجدتها» هو «نجدتَها» بالنصب ، أى أدّت إليهما النجدة والشجاعة والمضى ، أى أورثتهما منهما ذاك .

٩٥ - ص ٢٦٤ البيت ٣ يقوله لصديق له جفاه وتغيّر عليه :

زرت رِفهًا فأخلق الوصلُ بالوصـ
ـلِ كما يُخلق الرداءَ القشيبُ

وفسّر «الرفه» بأنه «لين العيش وطيبه» وأى معنًى فى هذا يناسب الجفاء والتغيّر والاستغناء ؟ ! وإنما تستوجب الصداقة طولَ الزيارة والحرصَ على المطاوله فيها . وأصل الرفْه أقصر الوِرد وأسرعُه ، يقال : شربت الإبلُ رفهًا ، أى شربا قصيرا ، قال لبيد يصف نخلا نابتة على الماء :

يشربن رِفهًا عراكا غير صادية
فكلها كارعٌ فى الماء مغتمرُ

أى يشربن قليلا قليلا لاستغنائهن عن الماء لنباتها عليه . وجاء فى قول البحترى فى سينيته المشهورة :

وبعيدٌ ما بين واردِ رِفْـهٍ
عَلَلٍ شُربُه ووارِدِ خِمسِ

ووارد الخِمس يشرب كثيرا لشدّة عطشه بعد أيامه الثلاثة التى انقضت بعد شرب اليوم الأول ، وليتزوّد فى يومه الخامس لما يَستقبِل من الأيام .

٩٦ - ص ٢٦٦ البيت ٧ فى مدح رجل :

أبيض لا قوله بمقتعد فينا ولا نِعله بمجنوبِ

جاء فى تفسيره : «المقتعد : المحتبس . والمجنوب : المبعد» . وليس أحد هذين المعنيين مرادا ، وإنما المقتعد المركوب ، يقال اقتعد الدابة ونحوها : اتخذها مركبًا له . وأما المجنوب فهو الدابة التى تساق إلى جنب الراكب . وهذا كناية بارعة عن سرعة قول الممدوح وفعله ، بحيث لايستطاع اللحاق بهما فيُركبا أو يُجنبا .

٩ - ص ٢٦٨ فى ديباجة القصيدة رقم ٩٠ :

«وقال يمازح أبا عمران الحلبى ، وكان ممضيا إلى رجل من المراوزة فى قطيعة الربيع فاحتبسهما» .

صوابه «وكانا مضَيا» .

٩٨ - ص ٢٧٥ البيت ١٣ :

فداؤك مُقـرِفٌ من آل زيدٍ
مُوَلِّى الخير مُقتَبلَ الشبابِ

ووجهه «مقتبلُ الشباب» بالرفع ، لتتم المقابلة بين التولّى والإقبال . والنصب على

الظرفيّة ، أى فى اقتبال شبابه لا بأس به أيضا ، فالأولى أن يضبط بالوجهين أو يهمل الضبط ، دفعًا للتحكم فى النص .

١٠٠ – ص ٢٧٥ البيت ١٥ وهو بيت فيه فحش أضربت عن إيراده هنا ، ولكن جاء فى تفسير «الترائب» فيه أن التريبة «العظمة من الصدر وأعلاه» . ولم ترد «العظمة» بمعنى الواحدة من العظم فى معاجم اللغة صغيرها وكبيرها ، قديمها ومحدثها ، وإنما يقال «العظم» للواحد والجمع ، فهو اسم جنس كالتراب لا يقال فى واحده ترابة . وانظر المعجم الوسيط .

١٠١ – ص ٢٧٦ البيت الثانى . وردت الكلمة الأولى فيه ناقصة النون المفتوحة فى أولها !!

١٠٢ – ص ٢٧٩ البيت ٢٦ :

ينقاد طوعًا له إذا حشَدت
عليه تلك الأشياهُ تَجتذِبُه

ولا أدرى معنًى للأشياه . وجاء فى الحاشية أنها فى نسخة «الأشباه» . وهذا هو المتعين فى النص ، كما فى طبعة مصر .

١٠٣ – ص ٢٧٩ البيت ٢٩ :

من يتصرَّع فى إثر مكرمة
فدأبه فى ابتغائها دأبُه

وفى التفسير : «يتصرع : يتواضع» . وصواب لفظهما «يتضرع» بالضاد المعجمة . وتفسير التضرع بالتواضع لم يقل به أحد ، وإنما التضرع التذلل والتعرض لطلب الحاجة ، والمبالغة فى السؤال والرغبة ، كما فى اللسان والقاموس . وفى الكتاب العزيز : «ادعوا ربكم تضرعا وخفية» وفى الحديث : «خرج متبذلا متضرعا» .

١٠٤ – ص ٢٨١ البيت ٤٩ :

يتْبَعُ تأميلَه الثراءُ كما
أتبعَ غُزْرًا من ديمةٍ عُشُبُه

فالعشب الناجم عن غُزر الديمة وكثرة وبْلها مقابل للثراء الناجم عن تأميل الممدوح ، فغزر الديمة وتأميل الممدوح كلاهما سريع فى إحداث أثره . وفى الكتاب العزيز من صورة ذلك : «فإذا انزلنا عليها الماء اهتزّت وربَت وأنبتت من كل زوج بهيج» . فكان ينبغى توحيد الفعلين فى الضبط ، فيقال فى الأول «يُتبع» من أتْبعه بمعنى تبعه وأدركه وليس هذا الضبط بغريب على لغة العرب ، فهو ظاهرٌ فى عجز بيت البحترى نفسه ، ومنه قوله تعالى : «فأتبعه شهابٌ ثاقب» ، أى تبعه فأدركه ، ومثله «ثم أَتْبَعَ سببًا»

١٠٥ – ص ٢٨٢ فى ديباجة القصيدة «يمدح أبو صالح» وهى «أبا صالح» .

١٠٦ – ص ٢٩٠ البيت ١٢ :

غضبان تجْلِى عن وقائع سيفه
عكَراتُ حُمْسٍ فى الحديد غضابِ

أما « تجلى » فصوابها « تُجْلَى » من الإجلاء .
وقد فسِّرت « العكرات » بأنها « الكرّات فى الحرب بعد الفرار » . والأوفق أن تفسّر العكرات بالجماعات العظيمة . وأصل العكَرة القطيع الضخم من الإبل ، والعرب تشبّه الأبطال بالفحول ، ومنه قول ربيعة بن مقروم فى المفضليات ١٨٣ :

بنو الحرب يومًا إذا استلأَموا
حسبتهم فى الحديد القروما

جمع قرم ، وهو الفحل من الإبل . وقول عمرو بن الأسود فى الأصمعيات ٧٩ :

والجمع من ذُهْلٍ كأَنَّ زُهاءهم
جُربُ الجمال يقودها ابنا شِمَّم

وفى حديث الحارث بن الصمّة : « وعليه عَكَر من المشركين » قال فى اللسان : « أى جماعة » .

و « حُمِيس » صوابها « حُمْسٍ » بالتنوين .

١٠٧ – ص ٢٩١ البيت ١٩ :

وأبيتَ إعطاءَ الدنيئةِ دونهم
إنَّ الأَبِيَّ لأَن يُعيَّر آبِ

والمألوف فى « الدنيئة » أن تقال بالتسهيل ، أى « الدنيّة » ، ولم تقع عينى عليها فيما قرأت فى مثل هذا الأسلوب إلا مسهَّلة ، ومن أقدم نصوصها حديث الحديبية : « علام نعطى الدنيّةَ فى ديننا » ، أى الخصلة المذمومة . على أنها وردت بالتسهيل فى طبعة مصر من الديوان . وكان ينبغى أن ينبَّه على روايتها فى نسخ الديوان .

١٠٨ – ص ٢٩٢ البيت ٣٠ :

شهِدتْه يومَ الهُنْدُوان ولم تكن
لتبيعه باليوم فى دولابِ

وجاء فى تفسيره : « الهندوان : السيف الهندوانى المنسوب إلى الهند ، وهى نسبة شاذة . والهندوان : نهر بين خوزستان وأرجان » .

ولم أجد أحدًا يقول إن الهندوان هو السيف الهندوانى ؛ ولا علاقة بين الكلمتين ، كما أنه لا وجه لإثبات صدر هذا الكلام على افتراض صحته ، لأن كلمة « الهندوان » فى بيت البحترى لا تَعنى إلا هذا النهر الذى بين خوزستان وأرجان . ثم إن الأصح فى ضبط اسم هذا النهر هو « هِنْدُوان » بكسر الهاء لا بضمها كما ذكر صاحب القاموس ، فإنَّ ياقوتًا ، وهو البُلدانىّ الحجّة ، أوردها بعد « هِندمَند » التى نص على كسر هائها ، ثم أورد « هِندوان » وقال « بضم الدال وآخره نون » فاكتفى بضبط الهاء فى السابقة عن ضبطها فى اللاحقة ، كما هو دأبه ، ثم أورد بعدهما « هِنديجان » و « هِنزيط » كلاهما بكسر الهاء .

١٠٩ – ص ٢٩٤ البيت ٧ :

رفعتْ من السّجف المُنيفِ ، وسلَّمَتْ
بأَنامل فيهنَّ درْسُ خِضابِ

جاء فى تفسيره : «الدرس : الطريق الخفىّ» . وليس من هذا مأخذه ، وإنما أصله من الدَّرس والدِّرس ، بمعنى الثوب الخَلَق . أى سلّمت بأنامل فيهن بقايا خضاب قد درس وأخلق كما يخلق الثوب ، وهو كما يقولون من إضافة الصفة إلى الموصوف .

١١٠ – ص٢٩٥ البيت ١٧ :

نَصَر السَّماح على التـلاد ولم يقف
دون المَكارمِ وَقْفَـة المرتابِ

ووجه ضبطه «وِقْفة المرتاب» بكسر الواو على إرادة الهيئة لا المرَّة .

١١١ – ص٢٩٧ البيت ٣٢ :

فكأنَّما البحـرُ استجاشَ يمينَـه
فقضى بها أربًا الآراب

وواضح سقوط : «من» قبل «الاراب» .

١١٢ – ص٣٠١ البيت الأول :

يا أُمَّتـا أبصـرنى راكبُ
يسير فى مُسحنفِرٍ لاحبِ

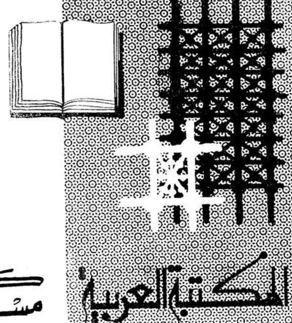
ولست أذكر هذا البيت لأنص على خطأ فيه ، بل لأعزز صواب ضبطه ، أعنى ضبط «راكبُ» بمنع التنوين ، بناء على أن البيت مصرَّع تبعت فيه العروض الضرب . والتصريع : جعل عروض البيت فى مثل وزن ضربه وقافيته . ويقع فيه من الإقواء والإكفاء والإيطاء والسناد والتضمين مايقع فى القافية ، كما فى العمدة لابن رشيق ١ : ١١٦ . ويجب فى عروض البيت المصرع أن تمنع من التنوين ، كما فى قول امرئ القيس :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزلِ
بسقط اللوى بين الدخول فحومَلِ

وبيت البحترى هذا فيـه مع التصريع إقواء باختلاف الحركات ، ونظيره من المصرع الذى فيـه إقواء ما أنشده الزجاجى من قول بعضهم :

ما بال عينك منها الدمع مُهراقُ
سحًّا فلا غارب منهـا ولا راقِى

(للنقد والتعليق بقية)



كارل ياسبر
مستقبل الإنسان
ترجمة وتقديم د. عثمان أم

لقد كان الفيلسوف الأمريكى وليم جيمس يعد الفلسفة مسالة مزاج شخصى ، فكان يقسم الفلاسفة الى طائفتين : طائفة تتمتع بمزاج رقيق ، واصحابها هم ذوو الرءوس اللينة ، واخرى تتمتع بمزاج خشن ، واصحابها هم ذوو الرءوس اليابسة والطائفة الأولى من الفلاسفة تميل الى القول بالمثالية، والروحية، والتاليه ، والواحدية ، والقطعية ، والحرية ، والتفاؤل ، فى حين تنزع الطائفة الثانية نحو الأخذ بالواقعية ، والمادية ، والالحاد والتعدد ، والشك ، والجبرية ، والتشاؤم . وقد أطلق الدكتور عثمان امين على الاتجاه الأول منهما اسم « النزعة الجوانية ». بينما سمى الاتجاه الثانى باسم « النزعة البرانية » . وهذه التسمية تستند أساسا الى تفرقة جوهرية بين « الباطن » و « الظاهر » ، أو بين « الجوهر » و « العرض » ، فهى تطلق على الفيلسوف الذى ينظر الى الناس والموضوعات بعيون الروح، اعنى ذلك الذى يشارك فيها ويعاينها من الداخل ، اسم « الفيلسوف الجوانى » ، بينما تطلق على الفيلسوف الذى يقتصر على النظر الى الناس والموضوعات بعيون الجسم فيشاهدها من الخارج ، وكأنه يتفرج عليها ، اسم « الفيلسوف البرانى » . ولم يكن بدعا ان يتجه الدكتور عثمان امين ـ وهو الداعية الأول للجوانية عندنا فى الشرق العربى ـ نحو أصحاب المزاج الرقيق من فلاسفة الغرب ، فكان من ذلك اهتمامه بافلاطون والفارابى والغزالى وديكارت وكانط ونشته وبرجسون ، ومحمد اقبال ، ومحمد عبده ، وكارل يسبرز ... الخ .

ولئن كان كتاب يسبرز الذى يقدمه اليوم لقراء العربية رائد « الجوانية » فى الجمهورية العربية المتحدة ، هو مجرد رسالة صغيرة كانت فى الأصل محاضرة عامة القاها يسبرز فى المانيا سنة ١٩٥٧ ، الا أن الدكتور عثمان امين قد قدم لهذه الرسالة بدراسة قيمة عن فلسفة يسبرز وتطوره الفكرى ، كما قدم لها أيضا بترجمة أخرى لفصل هام من فصول كتاب يسبرز المسمى باسم « الايمان الفلسفى » . وحبذا لو أتبع الدكتور عثمان امين هذه الترجمة التى قام بها لرسالة يسبرز عن «مستقبل الانسانية» (١) بترجمة أخرى لكتابه « الايمان الفلسفى » ، أو « المدخل الى الفلسفة » أو غيرهما من روائع انتاج الفيلسوف الألمانى الكبير. ويكفى أن يقرأ المرء هذه الترجمة المشرقة السلسة التى وضعها بين أيدينا الدكتور عثمان امين لكتابات يسبرز العسيرة المعقدة ، لكى يطمع فى ان يجود علينا الأستاذ المترجم بترجمات اخرى ليسبرز فى مثل هذه النصاعة والرصانة والاشراق . ونحن على ثقة من أن الدكتور عثمان امين سوف يحمل هذه الأمانة ، بما عرف عنه من دقة ونزاهة وأمانة علمية .

وقد استهل الأستاذ المترجم تقديمه للكتاب بكلمة قصيرة عن يسبرز قال فيها : « ان كارل يسبرز رسول من رسل الوعى الانسانى ، ومفكر من مفكرى الجوانية المفتوحة ، ورائد من رواد الحرية المستنيرة ، وقف فى وجه الطغيان ذائدا عن كرامة الانسان ، منددا بضلال العصر ، مجاهدا فى سبيل السلام . » (ص ٧) . وهذه الأوصاف العديدة التى ينسبها الاستاذ المترجم الى كارل يسبرز انما تلخص على احسن وجه شتى السمات الروحية التى اتسم بها صاحب الكتاب ، فان فلسفة يسبرز هى بحق « فلسفة حرية ، وانسانية ، ووعى أصيل » . والدكتور عثمان امين حريص كل الحرص على الكشف عما فى فلسفة يسبرز

(١) ملتزم النشر « الدار القومية للطباعة والنشر » ١٩٦٣ ١٣٥ صفحة من القطع الصغير .

من طابع «مفتوح» ، فنراه يدرجها فى عداد الفلسفات «المفتوحة» على المعنى الذى عناه برجسون ، وذلك لانه قد لاحظ أن قوام هذه الفلسفة هو الافكار النامية والفروض المتغيرة ، فى حين أن موضوعها هو الأحداث الجارية والتجارب الواقعة . ولئن كان يسبرز لم يصرح باية نزعة دينية واضحة المعالم ، الا أن الدكتور المترجم يرى فى فلسفته ارهاصا لفلسفة دينية متميزة ، تعتمد على تجربة روحية زاخرة ، وتفضى الى الايمان بحرية الانسان ، وقدرته على أن يواجه مآسى الحياة فى أمل واشراق . وليس معنى هذا أن الأستاذ المترجم يجهل أن كارل يسبرز قدرفض الخضوع للنقل او الاذعان لسلطة الكنيسة ، وانما كل ما هنالك أنه يرى فى هذا الايمان الفلسفى الذى اعتنقه يسبرز أعلى صورة من صور التجربة الدينية .

ويحاول الدكتور عثمان أمين أن يبرز لنا الجانب الدينى من جوانب تفكير كارل يسبرز ، فنراه يقول ان فيلسوفنا لم يقف عند « الوجود العيانى » ـ كما فعل غيره من الوجوديين المعاصرين ـ بل هو قد امتد نحو وجود آخر متمايز عن هذا الوجود العيانى كل التمايز ، فاكد أن هناك حقيقة متعالية مجاوزة له تمـــــام المجاوزة ، وتلك هى ما سماه يسبرز نفسه باسم « المتعـــالى » (أى الله سبحانه) . واذا كان يسبرز قد ثار على فلاسفة من أمثال كارل ماركس وغيره من الماديين ، فذلك لأن هؤلاء الفلاسفة قد أغلقوا الأفق الانسانى على نفســـــــه ، دون أن يفتحوا أمام الانسان ثغرة لمجاوزة هذا الوجود العيانى . وأما هو فانه يدعونا الى تجاوز « الزمانى » للتطلع نحو « الابدى » ، كما يهيب بنا أن نثق بالعقل ونؤمن بالغيب ، وهو حين يتحدث عن « تانيس » الانسان ، فانه يعنى بذلك تلطيف سره ، وتفريج كربه ، وتحويل مقامه من « الغربة » الى « الخلوة » ، ومن الوجود الزائف الى الوجود الأصيل . وهذاما عبر عنه يسبرز نفسه فى كتابه الايمان الفلسفى عندما راح يقول : « اننا نريد أن نستوثق من بقاء شىء ابدى ، حتى فى أبشع ضروب الياس والدمار .. وفى الباساء والضراء ، نريد أن نتامل أصل الانسان » . وربما كان من بين الأسباب التى حدت بكارل يسبرز الى الاعتراض على تسمية فلسفته باسم « الوجودية » ، حرصه على التمييز بين نزعته الروحية المتفتحة ، وبين شتى النزعات الالحادية الضيقة التى تعصب لها بعض دعاة الوجودية فى المانيا وفرنسا على السواء .

ثم يحاول الدكتور عثمان امين أن يكشف لنا عن معـــــالم الجوانية فى فلسفة كارل يســـبرز ، فنراه يهتم بتحديد موقف الفيلسوف الالمانى الكبير من كل من ماركس وفرويد ، حتى يبين لناكيف ان الذات الانســـانية فى نظره هى شىء أكثر من مجرد « موضوع » ، وكيف ان ثمة حقيقة عليا فوق الانسان تعلو على المجتمع والتاريخ نفســـــه . والواقع ان النزعتين الماركسية الفرويدية قد استبعدتا من العالم كل ما هو « غيبى » ، كما أنهما اغفلتاشتى القيم الروحية التى ينزع نحوها الانسان . ولعل هذا ما عبرعنه يسبرز حينما كتب يقول : « فى عالم محروم من الله ، ظهر كارس ماركس نبيا ، واتخذالقوالب التى يستطيع هذاالعالم ان يقنع بها وان يهلل بها . ونصب ماركس نفسه بشيرا بعلم ليس هو بالعلم ، وحاكما بامره ، لا يتكلم باسم الله ، بل باسم التاريخ كماوقف عليه . » وعلى الرغم من أن كارل يسبرز قد اشتغل بالعلاج النفسانى حينا من الزمن ، فضلاعن أنه قد قدم لنا كتابا ممتازا فى « علم النفس المرضى العام » ظهر سنة ١٩١٣ ، الا أننا نراه يحكم على النزعة الفرويدية باسم القيم الانسانية الروحية

فيقول : « من الممكن أن نلاحظ ان الناس ـ فى عالمنا المقلوب هذا ـ قد أحسوا حاجة شديدة الى التحرر . وجاء التحليل النفسانى فزودهم بذلك الوهم ، وكان مخادعا خداع ذلك العالم ذاته ... اننا ها هنا بصدد عملية جبارة من عمليات الاستهواء الذاتى ، الذى هو نتاج صادق لهذا العصر المفتون ، والذى يسير جنبا الى جنب مع أساليب السحر والتعاويذ التى استولت على عقـــول الناس ... » . وربما كان السبب فى حملة يسبرز على كل من الماركسية والفرويدوية ـ فيما يقول الدكتور عثمان أمين ـ اهتمامه بالعودة الى النظر الجوانى ، أو حرصه على تجاوز كل معـــرفة موضوعية ، من أجل الارتداد الى تلك الحقيقة الاصلية التى تنبع منها افكارنا وأفعالنا على السواء ، ألا وهى تلك الحرية الوجودية التى تفلت بالضرورة من طائلة كل معرفة موضوعية • وقد اتخذ يسبرز موقفه من كل من النزعتين الماركسية والفرويدية حينمـــا كتب يقول : « ان ما ندركه فى التامل الميتافيزيقى والخـــلوة الروحية ، تلك التى ترفعنا فوق أنفسنا فى معيشـــتنا اليومية ، لا ينبغى ان يتهافت أو يتضاءل ، كما أنه لا ينبغى أن ياخذ أهميـــة المعرفة التجريبية حين يضطرنا العقل الى امتحان قيمتـــه ... وينبغى أن يظل مطلبنا الأساسى ان نتبين هل أضأنا فى أنفسنا منائر الحرية أو أطفأناها ، وهل زكينا فى حيــــاتنا كنوز الجوانية أو بددناها . » (ص ١٥ من الترجمة العربية) . وهـــكذا نرى أن « خلاص » الانسان رهن برغبته الصادقة فى اعادة الحياة الى ذلك الينبوع الحى الذى يكمن فى اعماق وجوده ، ألا وهو « أصله الروحى » الذى تعبر عنه تلك الحرية الوجودية .. ولن يتسنى لنا أن نصبغ حياتنا بصبغة روحية ، اللهم الا اذا اخذنا على عاتقنا ان نضع حدا لما فى وجودنا من تشتت ، وتوزع ، وغفلة ، لكى نرتد الى ذواتنا من اجل تحقيــــــق عملية « الاستجماع الذاتى » ، واضعين نصب اعيننا أن نتعمق ذواتنا ، وأن نسبر غور امكانياتنا ، وأن نكتشف فى أنفسنا ذلك « المتعالى » الذى نحن فى حوار مستمر معه .

ثم يمضى الدكتور عثمان امين فى الحديث عن الســـــمات الجوانية المتميزة لفلسفة يسبرز ، فنراه يقول ان المضمون الروحى هو « العامل الفيصل » فى كل مجال من مجالات النشاط الانسانى ، اجتماعيا كان أم اقتصاديا أم قانونيـــا أم سياسيا أم غير ذلك . ويضرب يسبرز مثلا لذلك فيقول انه لا سبيل لنا الى حل مشكلة العلاقة بين الحرية والسلطة ، اللهم الا اذا نظرنا الى هذه المشكلة نظرة جوانية عميقة ، بحيث نتجاوز المعنى السطحى الظاهرى لكل من الحرية والسلطة ، من أجل النفاذ الى حقيقتهما الوجودية الجوهرية . ثم يعرج الدكتور عثمان أمين على موقف يسبرز من العلم ، فيقول ان فيلسوفنا ليس من المناوئين للعلم او المشككين فى قيمته ، خصوصا وأنه هو نفسه قد شارك فى العلم مشاركة فعالة قبل الاشتغال بالفلسفة . ولكن يسبرز مع ذلك قد نصب نفسه خصما لتلك « الخرافة العلمية » التى اشـــاعها بعض المتحمسين للعلم ممن وقع فى ظنهم انه قد أصبح فى وسع العلم أن ينظم المجتمع تنظيما آليا ، وأنه لم تعد بنا ادنى حاجة الى أى مبدأ علوى يتجاوز نطاق الطبيعة ، او يعلو على تنظيماتنا العلمية الآلية . ومن هنا فقد اهتم يسبرز ببيان خطأ تلك النزعة الوضعية التى راحت ترد كل شىء الى وقائع ممحصة تمحيصـــا دقيقا ، منكرة كل ما وراء ذلك ... واعتراض يسبرز على هذه النزعة قائم على اعتقاده بان الوجود المشهود لا يمكن أن يستوعب كل الوجود : فان من الموجودات ما لا تبلغه المعرفة العلمية ، فضلا عن أن العلم لا يتكفل بتفسير « القيم » ، ولا ينهض بالـــكشف

عن معنى « العلم » نفسه ! وحتى لو افترضنا أن العلم قد استطاع ان يفسر الكون كله ، فستظل هناك اشياء اخرى لن يكون له قبل بتفسيرها ، وهى الشخص العالم نفسه : فان العالم لا يستطيع ان يفسر ـ علميا ـ ما لديه من رغبة فى المعرفة ونزوع نحو الحق. « وقد يقال ان العلم يعطينا « وقائع » ، ولكن ياسبرز ينبـــه المسرفين فى هذا الاتجاه ... الى أن قياس المادة انما يعتمد على المقاييس التى يصنعها الانسان ، كما يعتمد على وضع الانسان نفسه فى المكان ، وان كل « واقعة علمية » تتضمن نظريات ، وان العلوم مجزاة ، وكل علم يعتمد على « مسلمات » أو مبادىء أولية لا يمكن اثباتها ... » (ص ١٨ ـ ١٩) ... وقصارى القول انه وان كان للعلوم فى تفكير يسبرز مكان ملحوظ ، الا أننا نراه يفسر نظرية العلوم تفسيرا آخر أعمق بكثير من تفسيرات «الوضعيين» و «الجدليين» ، اذ نجده يحاول أن يستشف الفلسفة الكامنة فى العلم ، فيتجه نحو « فلسفة للعلوم » ، لا نحو « فلسفة علمية »، كما لاحظ الدكتور عثمان أمين بحق .

وينتقل الأستاذ المترجم بعد ذلك الى دراسة موقف يسبرز من أزمات الانسان المعاصر ، فيصف لنا ضروب الصراع التى يعانيها الناس فى الآونة الحاضرة ، ثم يحاول أن يحدد لنا موقف الفلسفة ـ فى رأى يسبرز ـ من أزمات الانسان المعاصر وهنا يبين لنـــا يسبرز أن على الفيلسوف فى القرن العشرين أن يعين الانسان على تحقيق ذاته ، واستكمال حريته ، واكتساب أكبر قسط من «الوجود الأصيل » . وليس فى وسع الانسان المعاصر أن يكون حراً بمعنى الكلمة ، اللهم الا فى وسط حريات الآخرين ، فان الحياة الانسانية الصحيحة لاتقوم الا فى « تواصل » مع الاخرين . ولم يغب عن بال الدكتور المترجم أن يؤكد ما لنظرية « التواصـل من أهمية فى تفكير ياسبرز ، فنراه يبين لنا كيف أن « التواصل » منحى من مناحى الكشف عن « الانية » أو الذات الحقيقيـــة ، من خلال علاقاتها مع الذوات الأخرى ، وكيف أنه اشبه ما يكون بصراع ودى ـ على حد تعبير ياسبرز نفسه ـ مصدره التعاطف والمحبة. فليس المراد من التواصل ارضاء غريزة الاستطلاع أو السيادة أو الانتصار، بل المراد منه هو تحقيق ضرب من المشاركة بين الأفراد، بأن يضع الواحد منهم كل ما يملك فى خدمة الغير . وقد يتجلى التواصل ايضا فى القيادة الروحية السديدة، من حيث هى ارشاد واحسان ، واخلاص ، ومسئولية ، كما يتجلى فى المناقشة الحرة، متى توافر فيها حسن التفاهم وصدق النية ...

بيد أن ياسبرز ـ الذى عانى من ويلات النازية فى المانيا ما عانى ـ لم يستطع أن يقف مكتوف اليدين من أزمات الانسان المعاصر ، فلم يكن غريبا عليه أن يفضح حماقات المغامرين من دعاة الحروب ، وأن يندد بشناعة التصرفات التى يقـــدم عليها بعض الساسة من أصحاب المطامع . ومن هنا فقد راح ياسبرز يبحث عن مصير الشخصية الانسانية ، ملتمسا السبيل الأمثل لايقاظ الضمير العالمى . ولم يكن بد له من أن يدق ناقوس الخطر محذرا ساسة العالم وعلماءه من عواقب الاسترسال فى انتـاج القنابل الذرية ، وتاسيس القواعد العسكرية ، والتسابق فى ميـــدان الخراب والتدمير . وكارل يسبرز يهيب بكل عالم وسياسى أن يتجه الى قلبه أولا ، فيعمل على تغيير ما بنفسه ، حتى يتيسر له تغيير العالم من حوله ، مؤكدا أن هذا التغيير « الجوانى » هو وحده الأمر الذى يستطيع أن يدفع الكارثة عنـــا . (ص ٢٤) .

ويقدم يسبرز مقترحات محددة لتحقيق امل الانسانية فى السلام، فيدعو الى انشاء رقابة مشتركة على الاسلحة الذرية تمهيـــدا لالغائها الغاء تاما ، كما ينادى بالتنازل عن مبدأ السيادة المطلقة لكل دولة ، تمهيدا لانشاء هيئة دولية عالمية تخـول لها سلطات واسعة لم يسبق لها مثيل فى التاريخ ، فضلا عن دعوته الى اعتبار الشئون الداخلية لكل دولة أمورا تهم ســـائر الدول الأخرى، بحيث تتدخل الهيئة « فوق الوطنية » لدفع الظلم أينما اقترف ، ولرعاية حقوق الانسان فى كل مكان ... الخ .

ويختم الدكتور عثمان امين مقدمته القيمة لكتاب يسبرز فيقول ان الفيلسوف الألمانى الكبير يوجه نداءه الحار الى جميـــع المخلصين فى أنحاء العالم ، مهيبا بهم أن يتخذوا من هذا الأمـــر الخطير موقفا ايجابيا صريحا ، يقضى على بواعث القلق والفزع، ويقوى أواصر المحبة والتواصل بيننا وبين سائر بنى آدم .. « ان الانسان اذا كان لابد له فى أغلب أمره أن يعيش عيشة أرضية فى حدود الزمان والمكان ، فهو لا يزال قادرا على أن يعلو على نفسه، وأن يحيا حياة انسانية جديدة ، فيها طمـــوح الى « الأبدى » ، وتطلع نحو « المتعالى » ... » (ص ٢٦) .

وأما بعد هذه المقدمة ، فان الأستاذ المترجم يقدم لنا فصلين مترجمين عن يا سبرز ، الأول منهما مقتبس من فصل طويل كتبه الفيلسوف عن سيرته وتطوره الفكرى ، والآخر ماخوذ عن كتابه « الايمان الفلسفى » ، وموضوعه هو « الفلسفة تجاه المستقبل ». والفصل الأول منهما يبين لنا كيف تحول ياسبرز من دراسة علم النفس الى الفلسفة ، وكيف اهتم بالكشف عن « سيكولوجية وجهات النظر المختلفة الى العـالم » . كما يعرض لنا بايجاز أهم الموضوعات التى تناولها يسبرز بالبحث فى أهم مؤلفاته الفلسفية، الا وهى كتاب « الفلسفة » (بأجزائه الثلاثة) ، وكتاب « العقـل والوجود » ، وكتاب « المنطق الفلسفى » ، ثم كتاب « التـاريخ العام للفلسفة » ... الخ وقد ختم ياسبرز حديثه عن سيرته الفلسفية بقوله : « ان الغرض ، وبالتالى المعنى المقصود ، من أى فكرة فلسفية ليس هو معرفة موضوع ما ، بل هو احداث تغيير فى وعينا للوجود ، وفى موقفنا الجوانى تجاه الأشياء . » (ص٤٣)

وأما الفصل الموسوم باسم « الفلسفة تجاه المستقبل » ، فان يسبرز يحاول ان ينزل بالفلسفة الى معمعة التاريخ ، لـكى يكشف لنا عن مهمتها الحيوية فى صميم الموقف العالمى الراهن . وهو يحدثنـا فى هذا الفصل عن أشكال عديدة من «العدمية» Nihil isme فى التفكير المعاصر ، كما يبسط لنا ايضا موقف بعض أصحاب التعاليم الدينية من الفلســـفة ، لكى ينتهى الى القول بأن هؤلاء وأولئك انما يحكمون على الفلسفة من الخارج، فهم بالتالى لا يعرفون قيمتها . ولكن الفلسفة لا يمكن أن تنقطع عن الوجود ما عاش الناس ، لأنها تضع الانسان وجها لوجه أمـام ذاته ، وتفتح أمامه السبيل لتحقيق التواصـــل مع الآخرين ، وتسعى نحو اظهاره على المعنى المليء للحياة التى يحياها جنبـا الى جنب مع غيره من بنى البشر . فليست الفلسفة مجرد ترف فكرى ، أو تأمل وهمى ، بل هى تحقيق لاستقلال الموجود الانسانى وفرديته . ولكن « الاستقلال » لا يعنى العزلة والانخـــلاع عن الدنيا ، بل هو يعنى التحرر الحقيقى الذى لا يمكن أن يتحقق الا فى عالم يتمتع فيه الاخرون أيضا بحرياتهم . حقا ان الفلسفة تخاطب الفرد ، ولكنها تنمى فى الانسان الشعور بأن حياته لابد من ان تكون على اتصال بالآخرين ، فهى تهيب به أن يتخذ من

عقله اداة لتحقيق اعلى ضرب من ضروب التواصل بينه وبين الآخرين . ويسبرز يحصر واجب الفلسفة اليوم فى النقاط الأربع التالية :

اولا : البحث عن السلام ، والعمل باستمرار على استبقاء يقظة القلق البشرى ...

ثانيا : ضرورة اجتياز مرحلة « العدمية » من أجل العمل على تمثل التقاليد ...

ثالثا : التماس العلوم الخالصة ، كمقدمة ضرورية للبحث الفلسفى .

رابعا : العمل على تحويل «العقل» الى ارادة تواصل لا حد لها.

وليس فى وسعنا ـ فى مثل هذا العرض الموجز ـ ان نشرح كل نقطة من هذه النقاط الأربع بالتفصيل ، ولكن حسبنا ان نقول ان الطريق الفلسفى ـ فى رأى يسبرز ـ هو السبيل الأوحد نحو تحقيق ضرب من « الوصال الحقيقى » بين الناس ، لأن الفلسفة تعلمنا ان فى امكاننا معشر البشر أن نحيا حقا ، وأن نتكلم معا ، وأن نهتدى معا الى طريق الحقيقة ، وأن نصبح هنالك محققين لذواتنا كما ينبغى ... (ص ٨٢) .

... واما الفصل الأخير من الكتاب فهو يتضمن الترجمة العربية لمحاضرة يسبرز عن «القنبلة الذرية ومستقبل الانسانية». ويبدأ يسبرز حديثه بان يبين لنا أن الخطر الذى أصبح يتهدد اليوم مستقبل الانسانية انما هو خطر أعمق وأبلغ من كل ما قد يتصوره العقل . وقد نحاول أن نطمئن انفسنا بان نقول أن كارثة تتجاوز فى بشاعتها جميع حدود الخيال لا بد أن تكون ممتنعة الوقوع ، ولكن « لم لا يكون فناء الانسانية ممكنا ، ولم لا يكون قريبا ؟ ألم تكن هناك شناعة سابقة فى أن يتصرف الانسان على الارض بالطاقات الكونية ، وبالطاقات الشمسية ، يفصلها عن المادة الأرضية التى ظلت ساكنة الى ذلك الحين ؟ » . والواقع أننا ـ ما لم نغير موقفنا الروحى كله ، ومنهجنا فى التفكير وارادتنا الاخلاقية والسياسية ـ فاننا سائرون حتما الى هلاك الانسانية كلها .. « يجب على المرء أن يغير ما بنفسه اذا اراد أن يواصل الحياة ، فاذا لم يفكر الا فى الأمر المباشر ، فسياتى اليوم الذى تنشب الحرب الذرية فيه ، واكبر الظن انه يومئذ يكون كل شىء قد انتهى» . (ص١٠٩) . ثم يستطرد كارل يسبرز فيبين لنا كيف أن الاعتبارات السياسية والاخلاقية لا تكفى وحدها لحل مشكلة المصير البشرى ، ما دامت جذور المشكلة اعمق تأصلا فى تربة التاريخ البشرى من كل هذه الاعتبارات . والرأى عند يسبرز أنه لا يمكن القول باننا منجرفون قهرا الى الهاوية بقضاء محتوم لا مرد له ، فان مصيرنا قد اودع بين أيدينا ، والينا يرجع الأمر فى أن نمضى الى الهاوية ، أو أن نحقق حركة صاعدة رائعة نحو حياة أوفر ثراء على الدوام . وهنا يعرب يسبرز عن ثقته العظيمة فى العقل فيقول ان « هذا النداء موجه الى عقل الانسان ، لكن الى العقل فى أوسع مداه وأبعد أغواره ، وهو العقل المشتمل على الارادة الطيبة ، وهذه الارادة فى هذا العالم هى الحقيقة الوحيدة القصوى التى نستطيع ان نستند اليها . » (ص ١٢٢) . فلا سبيل الى تجنب الكارثة التى يمكن أن تحيق بالعالم ، اللهم الا بتعقل الحاضر ، والاسترشاد بافكار العقل ، مع الاستناد فى الوقت نفسه الى معطيات الواقع . حقا ان الحماقة غالبة على حياة الأغلبية العظمى من الناس ، ولكن التجربة تعلمنا كذلك أن فى مقدور العقل أن يستيقظ فينا وان ينمو . والعقل وحده هو الذى يعلمنا انه ليس من الشجاعة فى شىء ان نطلق احكاما على النهاية والهلاك اللذين لا مناص منهما ، وانما الشجاعة ان نبذل غاية جهدنا فى المعرفة ، والا نتخلى عن الامل مادمنا احياء . والعقل ايضا هو الذى يحفز ارادتنا نحو العمل ، فلا تلبث أن تجد فى بذل الجهد للبناء اكبر معنى للحياة على ظهر هذه البسيطة ، حتى ولو لم يقدر لنا ان نعرف كم من الزمن سيبقى على هذه الأرض مابنيناه أو شيدنا دعائمه ...

وعلى الرغم مما فى فلسفة يسبرز من دراما حية ، فاننا نراها تنتهى بنغمة تفاؤلية ، اذ يقول صاحبها بلهجة ملؤها الشجاعة والثقة فى المستقبل : « ان ما يبقى هو أن نتامل بهاء العالم ، وأن نوثق عرى المودة بيننا وبين بنى آدم ، ما شاء الله ان يديم علينا نعمة الحياة . وان ما يبقى هو الحب الذى يجعلنا واعين لاصلنا ، شاعرين بالأبدية . ان ما يبقى على هذه الأسس هو ان نحيا فى عالمنا هذا لا وفقا للذهن المتناهى . بل وفقا للعقل ، وفقا للعقل الصافى الذى يفتح لنا آفاق الكون ، ويعيننا على ان نوجه خواطرنا ونزعاتنا وجهودنا نحو الانتصار الذى لابد ان ينعقد لنا على الكارثة الأخيرة التى تتهددنا . » (ص١٢٨) . وهكذا نرى يسبرز يستمسك بأهداب العقل ، ويهيب بنا ان نتغلب على الكارثة الشاملة الداهمة عن طريق العمل على تغليب صوت الحكمة والتعقل والفهم على أصوات الحماقة والجهالة والنزق . ولئن كان التمسك بعرى العقل فملا مثاليا قد يبدو بعيد المنال ، الا أن يسبرز يقول فى لهجة ملؤها الايمان والثقة : « أما أن ما يكون مثاليا يكون ممكنا ، فتلك حقيقة تؤكدها لنا ثقة مودعة فينا ، هى ثقة لا أساس لها فى هذه الدنيا ، ولكن لا ينالها مع ذلك الا من يعمل فيها ما يستطيع .. » (ص ١٢٨) .

تلك خلاصة سريعة لكتاب « مستقبل الانسانية » الذى ترجمه وقدم له الاستاذ الدكتور عثمان أمين . ونحن على ثقة من ان الاستاذ المترجم لن يضن علينا بكتب اخرى جديدة فى سلسلة « مكتبة نفائس الفلسفة الغربية » التى يشرف على اصدارها . ولكننا ننتظر منه أن يقدم لنا هذه المرة أمهات الكتب التى دبجها يراع فلاسفة الغرب : دون الاقتصار على ترجمة آرائهم فى الحرب والسلام ، أو فى القنبلة الذرية ومستقبل الانسانية ... الخ.

ولسنا نعنى ان لا اهمية لامثال هذه الرسائل الصغيرة ، وانما كل ما نعنيه ان المكتبة العربية مفتقرة الى « اغذية روحية » اغزر مادة واكثر دسامة ! وان من يقرأ تلخيص الاستاذ الدكتور عثمان امين (الذى نشر اخيرا فى مجموعة « تراث الانسانية ») لكتاب كانط فى « نقد العقل الخالص » ليدرك تماما ان من حق قراء العربية على استاذهم الكبير ان يطلبوا اليه الاضطلاع بترجمة أمثال هذه الكتب الفلسفية الكبرى . فاذا اضفنا الى هذا ان شتى الترجمات التى قدمها لنا الدكتور عثمان امين حتى الآن قد امتازت بأسلوبها العربى المشرق ، ونصاعتها الفكرية الهائلة ، امكننا ان نطمع فى المزيد من الترجمات ، وحق لنا أن نتطلب من الاستاذ المترجم مواصلة جهوده المشكورة فى هذا الميدان .. ولا يسعنا فى النهاية سوى أن نشيد بترجمة الدكتور عثمان امين لهذا الكتاب الذى عرفنا لأول مرة ـ بجانب من تفكير كارل يسبرز ، آملين ان نطلع فى القريب العاجل على ترجمته الجديدة لكتاب هيدجر « ما الفلسفة ؟ » ، وغيره من الكتب الفلسفية الحديثة ..

الدكتور زكريا ابراهيم



الدكتور عبد الحميد الجندى
زهير بن ابى سلمى شاعر السلم فى الجاهلية

ونحن فى غمار دراسة حاضرنا ، لا ينبغى ان نغفل عن ماضينا ، ونحن بسبيل تقويم ثقافتنا المعاصرة ، نرتكز على اساس ثقافى وضعه اجدادنا . ومن هنا كانت دراسة ادبنا القديم ، لا تقل أهمية عن دراسة أدبنا المعاصر ، ولكن هذه الدراسة يجب ان تضيف جديدا لتكون جديرة بكشوفنا ومناهجنا . وعلى هذا الأساس ننظر الى كتاب « زهير شاعر السلم » الذى اخرجته المطابع منذ ايام . وهو فى الواقع رسالة نال بها صاحبها درجة الماجستير ، ولكن المؤلف غير فيها وحذف وبدل بحيث تلائم كل القراء ، لا أصحاب التخصص وحدهم . ويتضمن الكتاب أربعة أبواب تتناول عصر زهير وبيئته وحياته ثم شعره ومعلقته المشهورة .

اما الباب الأول الذى يتناول بالدراسة عصر زهير فيعرض فيه المؤلف الحياة السياسية فى ذلك الوقت ، وكيف كان أفراد القبيلة يتمتعون بحرية كبيرة قد لا يتمتع بها كثيرون فى ظل الحكومات النظامية الآن . ورئيس القبيلة ـ ومجلسها يختارون من بين الرجال الذين عرفوا برجاحة العقل وبعد النظر . وكانت هناك امارة الحيرة وامارة الغساسنة وامارة أخرى قامت فى نجد ردحا من الزمن وتحكمها قبيلة بن أسد وهى امارة كنده .

وعن طريق هذه الامارات عرف العرب الحضر نوعا من المعارف وشيئا من التحضر ولكن الصفة الغالبة هى الحياة البدوية الخشنة ، التى يعاقرون فيها الخمر ويتصفون فيها بسرعة الانفعال ويمجدون الجراة والاقدام ويعنون فيها بخيولهم أبلغ عناية ، وهم يحبون هذه الحياة التى نشاوا فيها ويفضلونها على حياة الترف ان قدر لأحدهم أن ينتقل الى حياة الحضر .

وهكذا احب العربى وطنه رغم ما يلاقيه فيه من ضروب الفقر والجهد والحرمان . وبعد أن يعرض الدكتور الجندى لمعارف العرب التى جاءت وليدة الحاجة كعلم النجوم والبيطرة والتاريخ والأخبار يقرر ان طبيعة العقل العربى كانت لا تعنى بالتفكير المركز او النظرة الشاملة ولهذا لم يكن لهم علم منظم بالمعنى الصحيح ، وكل ما تركوه من مظاهر الحياة العقلية لا يمت الى العلم ، لان الحياة البدوية المضطربة لا تتيح لاصحابها ان يكون لهم علم منظم .

ويختتم المؤلف هذا الباب بالحديث عن الحياة الدينية ، فيرى أن الوثنية لم تكن متغلغلة فى نفوسهم ، ويستدل على ذلك بأن منهم من أكل الصنم الذى عبده وقت المجاعة ، لانه من التمر الطرى ، ومنهم من رماه بالزلم وسبه .وكما كان من العرب من تزندق ومن عبد آلهة اخرى ، ومنهم من كان هائما يبحث عن الاله الحق ، حتى جاء الاسلام فهداه ، ووحدهم على عبادة الله .

وبذلك ينتهى الباب الأول ، ولكن السؤال الذى يتبادر الى الأذهان بعد قراءة هذا الباب ، خاص بقيمهم الاجتماعية ، فهى متناقضة مع بعض قيمنا الآن ، وهى على تنوعها يجمعها مثل اعلى واحد ، فما هو هذا المثل الأعلى لتلك الحياة المتبدية ، وكيف ترتد اليه كل القيم ؟

الواقع أن العرب فى اضطرابهم وراء الماء ، كان من الطبعى الا يعرفوا نظام الملكية ، لانهم لايقيمون الا ريثما ينفد الماء ويستنفد الكلأ فيتحولون . ولكن انعدام نظام الملكية أوقعهم فى كثير من الفوضى ، واستتبع نزاعا على الماء ، كانت الغلبة فيه للقوة ، التى تقرر الحق فى الملكية .

ومن هنا أكبر العربى القوة ، وكانت القوة عنده والحق شيئا واحدا . ولم يكن الفرق واضحا فى ذهنه بين الحق والقوة ، ما استطاع ان يصل اليه بقوته فهو حق له ، واذا وصلت يده الى الرجل اسيرا فهو حقه ، ربما استعبده ولم يفتده . ونحن نستطيع أن نرد كل القيم والأشياء التى كانت موضع اعجاب العربى واكباره الى القوة . وهذا هو شاعر الحماسة لا يضايقه فى قومه شىء الا انهم أصحاب حلم واحسان ، وأنهم ليسوا أصحاب شر وعدوان ، لذلك يقول متهكما :

لكن قومى وان كانوا ذوى عدد
ليسوا من الشر فى شىء وان هانا

ومن هنا ندرك تغير القيم ، فهذا البيت يمدح به الانسان قومه الآن ، لأن القيم التى تنادى بها هى قيم الانصاف . ومن أجل هذا فقد كان أعز شىء على العربى وأكثر ما يعتد به هو الفرس وأدوات القتال وكثرة الرجال ، ولقد بلغ من اعزاز العربى لفرسه أنه يفضلها أحيانا على زوجه . واعتزازهم بالقوة جعلهم يحبون كثرة النسل من البنين . وهذه الحياة المضطربة كانت تستلزم الخفة ، ولذلك كره العربى فى الرجل ان يكون سمينا ، لأن ذلك من آثار الترف والقعود ، وأحب العرب فى الرجل ان يكون نحيلا من أثر اقتحام الأهوال . يقول عروة بن الورد :

اتهزا منى ان سمنت وان ترى
بجسمى مس الحق والحق جاهد
اقسم جسمى فى جسوم كثيرة
وأحسو قراح الماء والماء بارد

وعكس هذه الصورة كانت تستحب فى المراة ،كانوا يصورون المراة ، وقد اكتنزت لأن ذلك مظهر من مظاهر الترف ، فهى

ليست محتاجة للحركة ، لأنها مخدومة وزوجها قوى يكفيها مايشاء • ومن مظاهــر القوة احتمال الرجل على المصائب ، لأن الجلد هو القوة فى مغالبة الزمن ، ولأن الاستسلام للحزن ضعف لا يجوز بالرجل القوى :

ولا تــراهم وان جلت مصــيبتهم
مع البكـاة عــلى من مات يبكونا

وهذه القيم نجدها فى شعر الحب العربى الجاهلى ، فكثيرا ما يصور الشاعر صــاحبته وهى فى معقل حولها الحـرس الشداد ، فهو لا يصل اليها الا بعد جهاد . والحب فى مثـل هذه الصور ليس الا نوعا من الصراع ، وليس الا رغبة فى الامتلاك . لذلك كثيرا ما نجد فى شعر الفخر الجاهلى الى جانب الفخر بالقوة ، الفخر بالنساء وبالخمر وبالميسر . ولم يكن التمدح بهذه المتع لما فيها مـن لذة ، ولكنه كان عنـدهم مظهرا من مظاهر الفتوة والشباب ، والشباب فى نفسه قوة • فالغزل الجاهلى غزل رجل يركب لذته ولا تركبه اللذة • ونستطيع أن نرد شعر المدح فى الجاهلية الى القوة أيضـا ، فالكرم الذى كان يتغنى فيه المادح بممدوحه لم يكن موضـع افتخار لأنه صورة من صور الرحمة ، ولكنه كان موضع الفخر لأنه مظهر السيادة والقوة والترفع . والواقع أن انسانا فى ذلك العصر لم يكن يستطيع أن يكون كريما دون أن يكون قويا ، فالكريم هو القوى الذى يجـود مما ياخـذه من السـيوف والرماح .

* *

الرجل الذى يرث الثروة لا يستطيع أن يحتفظ بها الا اذا كان قويا ، فالكرم ملازم للقوة والسيادة . الرجل القوى لا يدخر المال لأنه لا يخشى الفقر ، ولأنه يعلم أنه يستطيع أن ينتزع الثروة حيث كانت . فالحيــاة فى ذلك الوقت كانت صريحة واضحة ، تعترف بذلك القانون الأزلى (البقــاء للأصلح) .

وينتقل المؤلف الى الباب الثانى فيتناول بالدراسة بيئـة زهير وحياته . وهى بيئة شعرية أصيلة ، فأبوه شاعر ، وزوج أمه شاعر ، وخاله شاعر ، وأختاه شـاعرتان ، بل وأبناؤه شعراء . وكان زهير النجم اللامع فى هذا البيت الذى توارث فن الشعر • ويتتبع الدكتور الجندى تأثير زوج أمه أوس بن حجر وتأثير خاله بشامة بن الغدير فى شعر زهير ، الـذى كان معجبا بهما منقطعا لرواية شعرهما . فهو يتتبع تأثير شعرهما فى شعره ، مقابلا المعنى بمعنى والصورة بصورة خاصة شعر أوس الذى كان لا يعدل به بديلا ، وينتهى من ذلك الى أنه كان تلميذا نابغة لأستاذ كبير ، والى أن نوعا من المدارس الأدبية وجدت فى ذلك الحين .

بقى سؤال يعرض له المؤلف ، وطالما عرض لدراسى الأدب الجاهلى ، خاص بالتكسب بالشعر .

فهل كان زهير واحدا من الشعراء الذين باعوا مدائحهم من أجل المال ؟ يقول الدكتور الجندى :

« لم يكن زهير مثل النابغة ، ولم يكن مثل الأعشى فى اتخاذهما الشعر وسيلة للتكسب ، وكل ما قالوه عنه أنه تكسب يسيرا مع هــرم ، ولذلك لم يصموه بضعة المنزلة كما وصموا زميليه » • فالنفةالعربى اذن هى التى تمنعــه من التكسب بشعره واستجداء غيره مهما علا مقامه كما نستطيع أن نفهم من أقوال « ابن رشيق » . والواقع أن زهيرا ـ كما يقـول المؤلف ـ كان يمثل شخصية العربى الجاد الذى يجنح الى المثل العليا ، شخصية العربى العف والمتسامح ، الذى لاينكب على لذته ، ولا يقدس القوة الغاشمة ، فهى اذن شخصية نادرة فى البيئة الجاهلية . ويعرض المؤلف بعد ذلك لبيتى زهـير اللذين يقول فيهما :

فلا تكتمن الله ما فى نفوســـــكم
ليخفى ومهما يكتم الله يعـــــلم

يؤخر فيوضـع فى كتـــاب فيدخر
ليوم حســاب أو يعجـل فينقم

ثم يعلق عليهما فيرى سلامة عقيدة زهير وموافقتها لبعض المبادىء التى جاء بها الاسلام .

وهو يرفض أن يكون مثل هذا اللون من الشعر منحولا ، لأنه يجد له نماذج ليست قليلة من شعر بعض الجاهليين ، ويعلل ذلك بانتشار تفكير المتحنفين قبل الاسلام .

* * *

أما الباب الثالث من الكتاب فخاص بشعر زهير ، ويتناول المؤلف فى الفصل الأول قضية الانتحال فيرى أن « أول من بحث هذه المسألة بحثا علميا منظما معززا بالبراهين العالم الأديب محمد بن سلام الجمحى . فقد تناول مسألة الشعر المنحول بالحديث المستفيض فى دقة تدل على المامه بالفكرة الماما طيبا ، وعلى أنه قد درس الشعر الجاهلى دراسة وافية » وقد بحث الدكتور الجندى هذه المشكلة بحثا طيبا خاصة حين ربط بينها وبين اختلاف اللهجات بين القبائل العربية وعـلى الأخص بين عرب اليمن وبين العدنانيين قبل الاسلام بزمـن كما تثبت النقوش التاريخية .

ولكن الدكتور الجندى لم يعرض للانتحال فى شعر زهير نفسه ، وعندنا لديوان زهير روايتان مطبوعتان احداهما رواية الأصمعى والأخرى رواية ثعلب ، ويقول الدكـتور شوقى ضيف : « وتمتــاز الأولى بالتشــدد ، فهى لا تروى سوى ثمانى عشرة قصيدة ومقطوعة ينهيها الشنتمرى بقوله : (كمل جميع مارواه الأصمعى من شعر زهير وفصل به بعض الروايات) ويضيف من رواية الكوفيين قصيدتين شك الرواة فى ثانيتهما . واذا نظرنا فى رواية ثعلب الكوفية وجدناها تضيف عشرات القصــائد والمقطوعات ، ومن حين الى حين تنص على أن هذه القصيدة وتلك المقطوعة من رواية حماد أو ابن الكلبى المعروفين بكثـرة الوضع » .

ومن الحق أن المؤلف قد حذف هذا الفصل من الرسالة الأصلية لأنه لا يهم كثيرا القارىء العام .

ويتناول بعد ذلك خصائص شعر زهير وهى تتركز فى ثلاثة أمور :

١ - التصوير وهو استيعاب الصورة واستغراق الوصف .

٢ - العناية الفنية ، والمراد بها تهذيب الشعر وتثقيفه وبذل الجهد والمشقة فى انشائه .

٣ - الموسيقى ، وهى من الظواهر الفنية التى تتجلى فى شعر زهير واضحة أكثر مما فى شعر غيره .

ومن الطبيعى أن نجد الصور مادية فى طابعها فى هذه البيئة الجاهلية ، لأن الصور المعنوية مرحلة أخرى من مراحل التطور . وزهير من أكثر الشعراء اهتماما بالصورة الشعرية ، فهو لا يرسم صوره فى سرعة ولا يمر عليها مرورا عابرا كما كان يصنع امرؤ القيس مثلا ، ولكنه يدقق فى رسم صوره ويوضح جزئياتها . على أن الأمر لا يقتصر على ذلك فهو يضفى على صوره الحركة ، بحيث يصبح شاعرنا كالمصور السينمائى الماهر .

والواقع أن هذه ناحية هامة وخاصة من خصائص الشعر الجاهلى عامة - على تدرج المستوى بين الشعراء - فنحن اليوم حين نلتفت فى شعرنا الى الصورة الادبية لانخلق جديدا ، ومن الحق أن الشعر العربى فى فترة من حياته قد استحال الى تقرير ولم يلتفت الى أسلوب التعبير بالصور ، ومن أجل ذلك حين التفتنا الى ذلك التعبير اعتقدنا أننا عشرنا على جديد ، ولكن من الحق ايضا أن القصيدة الجاهلية لم تعرف اللوحة الشاملة وانما هى صور متفرقة فى القصيدة الواحدة قد لا يجمع بينها رابط واضح ، ولعل الميزة الجديدة التى طبعت شعرنا الحديث ، هى استحالة القصيدة الى لوحة شاملة .

ويهتم المؤلف بتنقيح زهير لشعره ، وهذا التنقيح سمة من سمات مدرسة أوس بن حجر كلها .

وينقل قول ابن قتيبة : « ان زهيرا من المتكلفين لانه يقوم شعره بالثقاف وينقحه بطول التفتيش واعادة النظر فيه بعد النظر » . ولكن الدكتور الجندى يرى ان شعره قد برىء من التكلف ووضح فيه الطبع والفطرة السمحة والاستقامة وكانما الفن زاد يفترف من معينه مهما نفح فلا نلمح مظهرا من مظاهر الجهد والتكلف . وفى تنقيح هذا الشاعر الكبير لشعره درس بليغ لشعرائنا من الشباب الذين لايصبرون حتى تنضج تجاربهم ولا يعودون الى شعرهم ينقدونه قبل أن يذيعوه ، ومن هنا كثيرا ما نجد الفثاثة والضعف .

أما المسالة الأخيرة التى يعرض لها المؤلف فى هذا الفصل فهى موسيقية شعر زهير ، وهو يرى هذه الموسيقى فى شعره أوضح منها فى شعر غيره ، وهى قائمة على الجناس والمقابلة فى أكثر الأحيان وتخير اللفظ لذاته فى أحيان أخرى . ويمضى الدكتور الجندى فيدلل على رايه بابيات للشاعر ، ثم يعارض راى القدماء الذين وصفوا شعره بعدم المعاظلة واجتناب الحوشى فهو راى ينفى عن شعره الخشونة ولا يصفه بالسلاسة والموسيقى ويؤيد راى جرير الذى وصف شعره بانه كان نيرا . كل هذا جميل ولكن أليست المقارنة أكثر اقناعا ؟ لو قارن الدكتور الجندى بين شعر زهير - الذى يرى الموسيقى فى شعره أوضح منها فى شعر غيره - وبين شعر الأعشى - صناجة العرب الذى كان يتغنى بشعره لموسيقاه وبين لنا تفوق زهير مثلا لكان اكثر اقناعا لنا .

* * *

وننتقل بعد ذلك الى الباب الأخير وهو خاص بمعلقة زهير . فيناقش قضية المعلقات ويشبع القول فيها مستشهدا براى القدماء وبراى المستشرقين ويخلص مؤيدا راى بعض القدماء فى أن معناها مجازى فهى قد علقت بالقلوب أو بالعقول . ويقسم معلقة زهير الى عدة أقسام هى المدح والهجاء والوصف والغزل والحكم . ولعل المديح أهم أجزاء المعلقة ، ولكنه كما يقول النقاد اليوم فن غير خالد . الواقع أن شعر المديح خلد لنا القيم العربية فزهير حين يمدح بالشجاعة والعقل والعفة والعدل واشراق الوجه عند الكرم تعرف أن هذه القيم هى المثل العليا فى المجتمع . أما الهجاء فغير أصيل فى ملعقة زهير وفى شعره على وجه العموم ، وأما الوصف فقد ذكرنا قدرة زهير على الالتفات الى جزئيات صوره ، ونضيف هنا انه ممن ابتكروا طوائف من المعانى والصور ، ظل الشعراء من بعد يتاثرونها ويحورون فيها . والغزل فى معلقة زهير وفى شعره عموما غزل فنى وحسب ، فلم يعرف أنه صاحب لهو كثير من الشعراء الجاهليين . ونصل الى نهاية فصول الكتاب وهو عن الحكم فى ملعقة زهير . والحكمة خلاصة تجربة مرت بانسان عميق الاحساس ، فصاغها صياغة أدبية . وفى الوقت الذى كان فيه الشاعر يقوم بدور الحكيم ، كان لحكمته أثر بالغ ، ونحن الآن ما زلنا نتمثل بالحكمة فى كثير من مواقف حياتنا ، لاحتوائها على تجربة انسانية عميقة . وهى تؤدى دورها بمجرد التمثل بها لاننا نضيفها الى تجاربنا ، ثم يكون لها اثرها فى تعميق مفهومنا للحياة . وحكم زهير أشبه بدستور خلقى يضع للناس قواعد السلوك المثالى لانه يريد أن تعيش الانسانية تحت ظلال الخير ، ولعل ذلك هو الذى دفع بعض الشعراء من بعد الى تاثرها مثلما صنع وليم زلزل .

بقى عنوان الكتاب « زهير شاعر السلم فى الجاهلية » ان الذى دفع المؤلف الى اختياره هو ما يقوله بعد ذلك :

« انه لم يتح لنا أن نسمع صوتا ينادى بالسلم فى الجاهلية ، غير صوت زهير ابن ابى سلمى » . والحق ايضا أنه لم تتح لنا دراسة طيبة عن زهير قبل كتاب الدكتور الجندى .

ففيه تتضح شخصية المؤلف من خلال نقاشه لكثير من الآراء ، وقدرته على الاقناع بما يحتشد لذلك من حجج ، كما تتضح فى الكتاب فضيلة الأمانة العلمية ، فما من راى الا وهو منسوب ، وما من فكرة ولو جزئية الا ولها مرجعها ، كما يتضح أخيرا مجهود الدكتور الجندى وصبره الطويل على استقصاء واستيعاب المراجع التى عرضت لموضوعه .

دكتور ماهر حسن فهمى



الدكتور زكريا ابراهيم
مشكلة الحب

● دار الآداب — بيروت — ١٩٦٣ — ٣٥٠ صفحة

مشكلة الحب من اهم الموضوعات التى شغلت البشرية دائما وقد اولاها تراثنا العربى جانبا غير قليل من اهتمامه . ولعل رسالة الجاحظ « فى العشق والنساء » وكتاب « الزهرة » لابى داود الظاهرى اللذين كتبا منذ أكثر من الف عام ، لعلهما أول كتابين بقيا لنا فى هذا الموضوع فى تاريخ الفكر العربى ان لم يكونا أول كتابين الفا فعلا فيه . وخلال هذه الاعوام الالف الفت كتب كثيرة فى الموضوع نفسه بعضها فقد وبعضها ما يزال مخطوطا وبعضها تم نشره فعلا مثل « طوق الحمامة » لابن حزم و « روضة المحبين ونزهة المشتاقين » لابن قيم الجوزية ، ومصارع العشاق لابن السراج ، وذم الهوى لابن الجوزى ، وتزيين الاسواق لداود الانطاكى حتى نصل الى كتاب مثل كتاب مدامع العشاق الذى نشره الدكتور زكى مبارك عام ١٩٢٥ . ولعل كتاب « مشكلة الحب » للدكتور زكريا ابراهيم هو اخر ما ظهر فى تاريخ الكتاب العربى حول هذا الموضوع .

ومما هو جدير بالملاحظة ان الاختلاف بين هذه المؤلفات فى طريقة تناولها لهذا الموضوع ، وان كانت ترجع من ناحية الى شخصية مؤلفيها ، فهى ترجع من ناحية أخرى الى اختلاف البيئات الادبية والفكرية التى عاش فيها هؤلاء المفكرون . فطوق الحمامة مثلا قد غلبت عليه روح الابتكار حتى أن المؤلف يستشهد على ارائه مما وقع له فى حياته الخاصة وحياة أصدقائه ومعارفه وربما نظم هو شخصيا من شعر فى هذه المناسبات بحيث ان كتابه — على صغر حجمه — فيه من اصالة التفكير ما نفتقده فى مؤلفات فى اضعاف حجمه . بينما كتاب مثل كتاب « ذم الهوى » قد غلبت عليه صفة التجميع بحيث تصبح الاهمية الاولى لمثل هذا المؤلف هى فى جهد صاحبه فى تجميع واختيار القصص والاشعار التى تتصل بهذا الموضوع ثم فى تبويبها ، أما مساهمة المؤلف برأيه الشخصى فمكانتها ثانوية . وهناك نوع ثالث من المؤلفات يجمع بين الابتكار والتجميع مثل كتاب « روضة المحبين ونزهة المشتاقين » .

فاذا قرأنا كتاب « مشكلة الحب » للدكتور زكريا ابراهيم أدركنا للوهلة الاولى — من مادته ومنهجه — أثر انعكاس المناخ الثقافى فى النصف الثانى من القرن العشرين على مثل هذا الكتاب . فالمؤلف لايستكشف طريقا جديدا ولا يتلمس معالم المشكلة بمجهوده الروحى الخاص أو من وقائع حياته أو بما يعثر عليه متناثرا فى نوادر الادب العربى وأشعاره ، انما هو يستفيد بالتجربة الانسانية كما عبر عنها كبار رجال الفكر فى الحضارة الغربية بوجه خاص خلال مختلف عصورها منذ أفلاطون حتى جان بول سارتر وسيمون دى بوفوار . وليست هناك سوى اشارات قليلة متباعدة الى ما جاء متعلقا بهذا الموضوع فى التراث العربى ، كتلك الاشارات الى رابعة العدوية والحلاج فى الفصل الذى خصه المؤلف للعبادة ، وكذلك تلك الاشارة التى جاءت فى الفصل الخاص بالصداقة حيث عرض المؤلف لآراء أبى حيان التوحيدى فى كتابه «الصداقة والصديق»

ولذلك فبقدر ما يتميز كتاب « مشكلة الحب » بالمجهود الثقافى المخلص فى عرض وجهات نظر كتاب الغرب ومناقشتها ، فقد تميز أيضا بانه جاء معزولا عن تراثنا الثقافى رغم انه لم يعدم المؤلفات ولا المؤلفين على نحو مارأينا . ولعل اغفال هذا التراث هو الذى حدا بالكاتب الى ان يذكر ان ربط الحب بالموت قد تسرب الى العقلية المسيحية نتيجة لتأثر الحضارة الاوربية بالمفهوم التراجيدى للحب المتمثل فى فكرة الايروس او العشق ، دون ان يشير الى أن فكرة الربط بين الحب والموت موجودة فى كل الحضارات ، ومنها الحضارة العربية على نحو ما نجد فى قصص الحب العذرى الشهيرة . بل يقال ان الحب الرومانسى الذى ظهر فى اوربا — وظهر فيه هذا الربط بين الحب والموت — قد تأثر بالاشعار والازجال العربية التى تغنت بهذا اللون من الحب عندما انتقلت من الاندلس الى اوربا عن طريق شعراء التروبادور . ويكفينا دليلا على ربط الحب بالموت فى الفكر العربى وجود كتاب مثل كتاب « مصارع العشاق » لابن السراج لا يتناول الحب الا من حيث علاقته بصور الموت المختلفة.

اما الخاصية الثانية لهذا الكتاب ، فهو انه ناقش مشكلة الحب — ربما لأول مرة فى تاريخنا الثقافى — من جانبها الفلسفى ولم تكن مناقشاته لهذه المشكلة على ضوء علم النفس ولا اشاراته الى النصوص الادبية الا بقدر ما تتصل بالجانب الفلسفى منها . وقد سبق للمؤلف نفسه ان نشر منذ ست سنوات كتابين يتصلان بهذا الموضوع هما « سيكلوجية المرأة » و « الزواج والاستقرار النفسى » وواضح — حتى من مجرد عنوانى الكتابين — ان دراسة هذين الموضوعين كانت تقوم على أساس نفسى أكثر مما تقوم على أساس فلسفى . ولعل هذا هو الفرق المنهجى بين كتابيه السابقين وكتابه الاخير « مشكلة الحب » .

والمؤلف يعلن عن منهجه الفلسفى فى صراحة فى مقدمته حيث يناقش ما يسميه : اللفات المختلفة فى الحديث عن الحب ،

وهى اللغات الشعرية والاخلاقية والبيولوجية والاجتماعية والصوفية ، ليصل الى بيان عجز كل هذه اللغات عن تفسير ماهية الحب ، وليعلن فى النهاية ان الفلسفة وحدها هى التى تدرس الحب بوصفه تجربة متكاملة .

فاذا نظرنا بعد ذلك فى أبواب الكتاب وجدناه مقسما الى اربعة ابواب ، كل باب منها مقسم الى ثلاثة فصول . أما الباب الاول فيتناول ما يطلق عليه المؤلف اسم اشباه الحب وهى حب الذات والشفقة والتعاطف . والباب الثانى يتناول أشكال الحب وهى الامومة والاخوة والعبادة . ويتناول الباب الثالث انماط الحب : العشق والمحبة والصداقة . ويتحدث الباب الثالث عن أطوار الحب : مولده فحياته واخيرا موته .

* * *

أما أن حب الذات والشفقة والتعاطف أشباه الحب فذلك لأن الحب الحقيقى يقوم على التبادل الشخصى بين الأنا والأنت وهذا هو تعريف الحب الذى يقوم على أساسه كل ما فى الكتاب من مناقشات وفى كل من حب الذات والشفقة والتعاطف لا يتحقق هذا التبادل من ثم فهى ليست أشكالا للحب لكنها اشباه له .

أما اشكال الحب الرئيسية التى يتحقق فيها هذا التبادل فهى الامومة والاخوة والعبادة . وقد يبدو أن التبادل غير محقق فى كل من هذه الاشكال ، وهذا ما يحاول المؤلف ان يثبت عكسه .

فالامومة الصحيحة ليست هى التى تجعل الطفل مجرد امتداد لذات الام بل هى التى تعاون الطفل على ان يكون له وجوده المستقل ، فيصبح حبها له مثل أى حب اخر من حيث انه ينظر الى الطفل بوصفه حدا يراد الوصول اليه ، لا كما تفعل الغريزة التى تعده مجرد حد يراد الابتداء منه . فتعمل الام على ترقية ذلك الانت الذى تحبه ، حتى اذا شب الطفل عن الطوق اصبح فى وسعه ان يبادل والديه حبا بحب ، وأن يعمل على توليد الحب بدوره فى نفسيهما ، فيحاول ان يكون محبا بدلا من أن يظل مجرد محبوب . كذلك الحب الاخوى الصحيح : انه مظهر من مظاهر الايمان بقيمة الانسان ، واعتراف ضمنى بالامتياز الخاص الذى تتمتع به كل ذات من الذوات ، والتبادل الذى ينطوى عليه الحب الاخوى انما يتجلى بصفة خاصة فى كون كل فرد منا هو فى حاجة الى معونة الاخر حتى يحقق ذاته . أما العبادة فاننا نجد فى الصلاة أكمل صورة من صور التبادل الحقيقى الفعال بين الانا والانت الابدى .

واذا كان الغرض من التحدث عن أشكال الحب هو ابراز نماذجه الاساسية ، فان الغرض من تناول انماط الحب هو الكشف عن أساليبه المختلفة ، أى الطرق المتباينة فى النظر اليه . وأول هذه الانماط هو الايروس أو العشق . وهنا يضطر الكاتب الى التخلى لاول مرة عن مفهوم الحب باعتباره علاقة متبادلة بين اثنين مع انه استبعد على أساس هذا المفهوم كلا من حب الذات والشفقة والتعاطف . ففى الايروس ينعدم التبادل لانه نمط انانى من انماط الحب ، حيث العاشق لا يحب المحبوب بل يحب الحب . وهو مفهوم ظهر فى الحضارة اليونانية ثم بعثه الرومانسيون فى القرن التاسع عشر بعد الميلاد . أما الاجابية أو المحبة فهى النمط المسيحى ، وتقوم على التبادل والمشاركة .

لهذا بينما يحتقر انصار العشق الرابطة الزوجية ، دعت المسيحية الى تقديسها ، ذلك لان الايروس يستند الى التمركز الذاتى ويرتكز على فلسفة السعادة ، ويقوم على التهور والاندفاع والانفعال العنيف ، فى حين أن الاجابية تستند الى التضحية بالذات أو ترتكز على فلسفة الايثار ، وتقوم على التعقل والاستقرار والوفاء المتبادل .

* * *

أما الصداقة فهى علاقة تبادلية تقوم على التكافؤ أو المساواة وهى جهد ايجابى من أجل العمل على تحقق سعادة الاخر وترقيه ولذلك فلابد ان تقوم على الاهتمام بالاخر ورعايته ومعرفته واحترامه . والصديقان لا يحبان ما عليه كل منهما فى صميم الواقع ، بل يحبان ما يرجو كل منهما ان يصيره عن طريق الاخر . والصداقة تتجه دائما نحو موضوع مشترك أو حد أوسط يكون هو الجامع بين الانا والانت . وبالتالى فلابد من قيم مشتركة وعبادة موحدة تكون بمثابة نقطة تلاقى الانا والانت .

واخيرا يتناول المؤلف اطوار الحب الثلاثة ، مولده فحياته فموته . اما مولده فلا يرجع الى مجرد الحاجة الجنسية ، فهذه الحاجة موجودة لدى الحيوان ، بينما الحب يتجاوب مع الترقى النفسى للموجود البشرى . وكل ما تفعله يقظة الغرائز الجنسية أنها تساعد على خلق الجو النفسى الملائم لمولد الحب فالدلالة الحيوية للحب لا يمكن أن تكون التناسل أو التفريغ الجسمى . بل هى التحرر من العزلة النفسية .

فالحب يحرر الذات من ضغط القوى الاخلاقية التى تقيم السدود فى وجه عملية اشباع الغرائز . والحب عاطفة سابقة على عملية اختيارنا لموضوع حبنا ، وبتعبير اخر فان ماهية الحب تسبق وجوده .

فاذا ما ولد الحب اصبح مشاركة فعالة تتم بين حريتين . اما فناء المحب فى المحبوب فمعناه سقوط كل علاقة بينهما وبالتالى انهيار الحب نفسه . ومن هنا فان الحب المهدد بالانغماس أو الاستغراق فى شخص المحبوب سرعان ما يبتكر لنفسه حيلة يستطيع عن طريقها اعادة خلق التمايز او الفاصل التى قضت عليه حالة الاتحاد الصوفى . وليست هذه الحيلة سوى الالتجاء الى خلق العوائق واصطناع الهجر والاكثار من الغياب . فالاصل فى مثل هذه العوائق ليس هو دائما مجرد الميل الى الشقاء ، بل هو ضرورة بقاء المحب والمحبوب شخصين متمايزين . فالعوائق ليست غاية فى ذاتها بل هى بمثابة الواسطة التى تؤخر الوصول الى الغاية ، وتزيد فى الوقت نفسه من حدة الرغبة فى بلوغها ، فالحب ليس وحدة بل مشاركة .

وربما كانت الغيرة كذلك وسيلة من الوسائل المصطنعة التى يلجأ اليها الحب لاذكاء شعلة الغرام فى نفوس أصحابه ، وكأنما يريد أن يذكرهم بأن موضوع حبهم يمكن أن يتحول ، أو أن الكائن المحبوب هو نفسه كسب متجدد لابد من العمـل على الاحتفاظ به كل يوم . وهكذا يصبح الحب تكييفا لموجـود متغير مع موجود آخر ، وتعبيرا عن ذلك الصراع الودى الذى يتم بين الانا والانت فى نطاق العالم والتاريـخ والزمان .

والزواج يعرض أهله لخطر الرتابة والتكرار والالفة الشاملة فى حين أن هذه جميعا لا تتلاءم مع الحب . واذن فان ما فى الزواج من شقاء يرجع الى أنه يقرب منا الثمرة المشتهاة فلا يترك لنا الفرصة لان نتحرق شوقا اليها ، والمجتمع حين احـال الحب الى تكليف أو الزام ، قضى على ما هيته باعتباره عاطفة تلقائية . ومجيء الطفل يوسع من دائرة الاسرة فيجعلها ثلاثية بعد أن كانت ثنائية ، وعندئذ لا يستطيع الزوجان أن يبقيـان مجرد محبين يحيا الواحد منها للاخـر فحسب ، بل تتشتت عاطفتهما الزوجية ، لكى لا تلبث أن تعود فتلتقى عند رأس الطفل ولكن ظهور الطفل فى حياة الزوجين قد يعنى أيضا تباعد القطبين الاساسيين للحب ، اذ لا يعود الواحد منهما يلقى من الاخـر سوى المعاملة العادية التى قد تحمل شيئا من عدم الاكتراث ، ان لم نقل من العداء فى بعض الاحيان .

وهكذا فلأن الحب يتم فى الزمان فهو معرض للموت . والمحب ـ كما يقول سارتر ـ يطالب بالتعهد بالوفاء لكنه يفتـاظ فى الوقت نفسه من هذا العهد . ولهذا فان تحـول الحب الى كراهية فعل يسير لا يحتاج الى كبير عناء . فالحب فى دنيـا البشر فضيلة سريعة أو قيمة خاطفة أو ـ كما يعبر المؤلف ـ مطلق نسبى . ولئن كان الانسان يشعر قبل الحب بأنه شيء وعند الحب بأنه كل شيء فانه يشعر بعد الحب بأنه لا شيء . وهذا هو السبب فى أن الحب يتذبذب بنا دائمـا بين قطبى الحياة والموت .

ويختتم الدكتور زكريا ابراهيم كتابه القيم بقوله : ربمـا كانت روعة الموقف البشرى أنه موقف نسبى يريد دائمـا أن يكون مطلقا ، أو موقف زمانى يحاول جاهدا أن يـكون أبديا خالدا .

يوسف الشارونى





روبين م . جولاند وبيتر ليفي
مختارات من شعر ايفتشنكو

Yevtushenko Selected Poems

Translated with an Introduction

By : Robin Milner - Yulland & Peter Levi

Penguins Books (1963)

فى الحقبة الأخيرة من تاريخ الأدب السوفييتى ثار الجدل والنقاش على صعيد محلى وعالمى حول شاعرين تصادقا رغم فارق السن ، ووحد بينهما طابع التمرد ، أو الجرأة بمعنى أدق ، ثم فرقهما الموت فقضى على صداقتهما الناشئة . اولهما واحد من أبناء الجيل القديم المخضرم الذى عاصر القيصرية وشهد الثورة البلشفية ، وعاش فى ظلها ، وهو الشاعر الروائى الراحل الحائز على جائزة نوبل : بوريس باسترناك . اما الثانى فوليد هذه الثورة وغرسها ، وهو الشاعرالشاب يفجنى الكساندروفتش ايفتشنكو . غير أن الجدل والنقاش اللذين أثارهما ايفتشنكو فى بلاده وفى خارجها فاقا فى الحقيقة ما سبق أن أثاره باسترناك من جدل ونقاش لم تهدأ حدتهما الا بعد وفاته .

بل ان من الغريب أن تجد ما يكتب اليوم عن ايفتشنكو فى الغرب لا يعدو ان يكون صورة اخرى لما كتب من قبل عن باسترناك ، ولا تكاد تقرأ اسمه دون اشارة لمأساة سلفه مؤلف « دكتور زيناجو » .

ولقد احسنت سلسلة بنجوين صنعا حين اخذت على عاتقها منذ سنوات مهمة تعريف قارىء الانجليزية باروع ما فى التراث الشعرى العالمى الحديث من اعمال ونماذج . كما أنها خصصت مؤخرا اعدادا باكملها للتعريف بالشعراء الأوربيين المحدثين ، كان لنا منها هذا الكتيب الذى ضم مختارات للشاعر «الزوبعة» كما يسمونه فى انجلترا وامريكا . وقد نقل المختارات الى الانجليزية وقدم لها اثنان من المثقفين الانجليز ، احدهما شاعر والآخر يدرس اللغة الروسية ، وهما : روبين ميلنر جولاند وبيتر ليفى ، اللذان تجشما - كما يقولان - الكثير من العناء فى سبيل تذليل شعر ايفتشنكو وتقريبه الى الأوزان الانجليزية دون المساس باصالة صوره واخيلته . ولعل من المفيد قبل أن نعرض للمقدمة أن نقتطف منها هذه الفقرة التى توضح منهجهما فى ترجمة الشعر وعناءهما فى نقله من لغة الى أخرى .. يقولان : « رغم ان هذه الترجمات قام بها شاعر لا يعرف شيئا عن اللغة الروسية ،ودارس لها من غير الشعراء ، الا أنه من الطبيعى أن كلا المترجمين مسئول مسئولية كاملة عن كل جزء من اجزاء الترجمة النهائية . فقد كان دارس اللغة الروسية يرسل الى الشاعر ترجمة الفقرات التى يقع عليها اختياره أولا بأول ، وكلمة بكلمة ، مصحوبة - فى العادة - ببعض الملحوظات والصور المختلفة للترجمة .

وهذه كان العمل يجرى فيها عندئذ حتى تخرج منها قصيدة بالانجليزية ، ويتولى كل منا - على حدة وبالتناوب - فحصها ومراجعتها . وكان من اللازم أن نجتمع مرة او اثنتين قبل أن يستقر الرأى على كل قصيدة » .

وقد ضمن المترجمان مقدمتهما دراسة مركزة تناولا فيها الشعر الروسى وحياة ايفتشنكو ومكانته بين شعراء بلده . وهما يذكران ان ثمة فترتين ملحوظتين فى تاريخ الشعر الروسى . أولاهما ترتبط باسمى بوشكين وليرمنتوف ، وتقع بين عامى ١٨١٠ ، ١٨٤٠ . اما الثانية فتشغل العقود الثلاثة الاولى من هذا القرن ، وتعتبر من أهم الفترات التاريخية فى تطور الأدب السوفييتى ، اذ هى فترة الثورة والتجربة العميقة والتنوع ،

وقد ظهر خلالها عدد لاباس به من الشعراء الافذاذ ، نشطوا قبل الثورة وبعدها ، وكان علـى راسهم : بلوك وبريسوف وباسترناك وماياكوفسكى واخماتوفا وخليبنكوف وماندلشتام وايسنين ، وقد امنوا جميعا بالثورة ومطالب الدولة السوفييتية الفتية ، كما صهرهم النظام الجديد ، وجعلهم ينحون فى شعرهم نحو استيعاب الواقع الناشىء وتامله واستشعار مطالبه .

وما أن حل العقد الرابع حتى بدات مرحلة أخرى دون سابقيتها بكثير ، اذ انحسر المد الشعرى ، وانطفا بريق الشعراء، وصمت اكثرهم . ولم يكد ينتهى عام ١٩٢٤ حتى كان الشعراء السابقون قد ماتوا او انتحروا فيما عدا اخماتوفا وماندلشتام وباسترناك الذين صمتوا بدورهم ولم ينتجوا أى جديد ابان هذا العقد . وفى تلك الأثناء ازدادت هيمنة الدولة على الأدب ، ولم يعد للشعراء نصيب كبير فى حصيلة الأجناس الأدبية ، وحل محلهم الروائيين وكتاب القصـة . وظلت الحال كذلك حتى أواخر عهد ستالين ، حين ظهر عدد من الشعراء الشبان كان على رأسهم يفجنى ايفتشنكو .

وقد ولد ايفتشنكو عام ١٩٣٣ ، أى بعد مضى سنوات كثيرة على الثورة والحرب الأهلية ووفاة لينين . وفتح عينيه على نظام مستقر الى حد كبير ، يكاد يخلو من الصراع بين القديم المندثر والجديد المتطلع الى البناء والتاسيس . وتمكن هـذا الفتى الطموح من أن يفتح الطريق بعد سنوات امام جيل جديد من الشعراء يمد يديه للعالم أجمع ، ويتطلع الى الانسان أينما كان ، دون ان يهتز ايمانه ببلده ونظامه ..

اما حياة ايفتشنكو فقد كفانا هو مؤنة البحث عن تفاصيلها ، اذ سجلها فى شعره بكل دقائقها وكبائرها . وقد ولد بمدينـة « زيما » فى سيبيريا لأب يشتغل بالجيولوجيا وينتمى لاسـرة ريفيـة .

وتعرض منذ طفولته للحياة الشاقة فى سيبيريا ، مماجعله ينشا رياضيا قوى البنية مفتول العضلات ، مفتونا بسـباق الدراجات والبنج بونج وكرة القدم ، لدرجة انه نشر اول قصائده فى صحيفة رياضـيـة عام ١٩٤٩ . كما كان فى طفولته أيضـا ـ اثناء الحرب الثانية ـ يهوى الرقص والغناء ، ويرتجل الشعر الى أن اشتد ساعد موهبته فكانت قصائده تلحن وتغنى وهوبعد صبى .

والتحق ايفتشنكو بمعهد موسكو الأدبى لكنه لم يحقق نجاحا يذكر ، ولم يلبث أن هجر الدراسة وتفرغ للشعر . ورغم أنه حاول النظم فى سن مبكرة الا أن موهبته لم تنضج الا بعـد فترة . فقد نشر أول ديوان له عام ١٩٥٢ وتلاه فى عام ١٩٥٥ بديوان آخر .

ومنذ ذلك التاريخ اكتمل نضجه الفنى ، وذاع اسمه وردد الناس أشعاره ، لكن الشهرة كلفته ثمنا غاليا ، اذ لقى هجوما عنيفا من النقاد السوفييت ، وافردت كثير من الصحف الأدبية اعمدة باكملها للهجوم على شعره بدعوى أنه فاضح وأنه لا يلتزم خطة الحزب . بل ان منظمة الشبيبة طردته من عضويتها اثر نشره قصيدته الطويلة : « مفرق زيما » التى صور فيها طفولته وصباه فى سيبيريا وعودته اليها فى سن العشرين . وفى عـام ١٩٥٩ أصدر ديوانين جديدين ، طبع منهما نحو ٢٠ الفنسخة بيعت فور صدورها . وفى العام التالى أصدر ديوانه الخامس بعنوان « التفاحة » . ويعد أنضج دواوينه وأقربها الى التامل وان كانت تظلله مسحة من التشاؤم . وتلا ذلك ديوانهالسادس عام ١٩٦٢ الذى نفدت نسخه (١٠٠ الف نسخة) عقب صدوره بقليـل .

وفى عام ١٩٦٠ سافر ايفتشنكو الى الخارج ، حيث زار فرنسا والولايات المتحدة وكوبا وبريطانيا وبعض دول أفريقيا ، ووجد فى السفر عاملا منشطا لشاعريته ، وطاب له أن يقضى شهورا فى الخارج بدافع حب الاستطلاع والدراسة .

ومما يذكر أن ايفتشـــنكو قد تزوج مرتين ، اولاهما عام ١٩٥٤ . كما ان له محاولات فى كتابة المقالة والسيناريو ، وقد اعتاد أن ينشد شعره فى الأندية الروسية والمصانع والجامعات والمسارح ، وهو يذكر انه ألقى شعره بنفسه نحو ٢٥٠ مرة عام ١٩٦١ فقط ! ..

لكن ما مكانته بالنسبة لمن سبقه من الشعراء ؟ وما مكانه فى شعر بلاده اليوم ؟ .. لقد حاول المترجمان أن يجيبا على هذين السؤالين فقالا انه يدين بالكثير للماضى ، لكن شعره يخلو من غموض شاعر مثل خلينكوف ومن نحا نحوه من شـعـراء هذا القرن . ولقد ابدى هو نفسه اعجـابه ببلوك وماياكوفسـكى وايسنين وباسترناك . كما ان ثمة رباطا قويا يربط بينه وبين ماياكوفسكى من جهة وايسنين من جهة أخرى . فهل كمياكوفسكى فى ثوريته الطبيعية وكراهيته للجمود والعبودية والنفاق ، وهو كايسنين صبى ريفى جاء الى المدينة لكن مسقط راسه يشده اليه على الدوام .

ومع ذلك كله فانه شاعر أصيل ، لديه مقدرة على الحركة بغير جهد ، والتنقل من الأفكار الاجتماعيةالى الأفكار الشخصية، ومن الدعائية الى الفنائية ، وبالتالى فانه قادر على أن يمزج كل هذا فى القصيدة الواحدة بموهبة واصالة . وهو فى شعره جميعه واقعى يستمد مادته من الحياة ، متفائل ،مؤمن بمستقبل بلده ، فيه رقة وعذوبة ممزوجتان بروح فكهة ساخرة .

ويعقب المترجمان على ما أثارته الصـحافة الغربية حول ايفتشنكو بقولهما ان هذه الصحافة قد تحدثت عن ايفتشنكو كشخص اكثر مما تحدثت عنه كموضوع او كشاعر ، وأنها راحت تفرق فى وصف ملابسه ونظراته وعاداته وأهميته السـياسية دون أن يفوز شعره بنصيب ضئيل من التعليق والتحليل ، هذا فى الوقت الذى لقبته فيهالصحافة باسم « شاعر روسيا الشاب الساخط » ، وزعمت أنه يعادى الشيوعية . ومع ذلك كله فان شعر ايفتشنكو خير دليل على كذب هذه الادعاءات ، وتلك هى مهمة هذه المختارات ومقدمتها كما يقول المترجمان ، اى ازالة الأكاذيب واظهار الوجه الحقيقى لشخصية ايفتشنكو وشعره .

وتاتى بعد هذا المختارات وعدتها اثنتان وعشرون قصيدة ، منها قصيدة « مفرق زيما » وتقع وحـدها فى ٣٢ صفحة فى الترجمة الانجليزية ، وهى اطول قصائد ايفتشنكو وأجودها ، كما أنها سبب شهرته فى الاتحاد السوفييتى ، ويمكن أن تعتبر بحق وثيقة لحياة ايفتشنكو وشعره . فهو يصور فيها طفولته واسرته وفلاحى المنطقة فى سيبيريا ، كما يســتخدم طريقة « العود للماضى » فى تصوير الثورة والحرب الأهلية ، وقد نشر فيهـا آراءه فى الفن والحياة من حوله ، كرأيه فى ستالين وماياكوفسكى وبيريا .

ونكتفى هنا بثلاث قصائد قصيرة الى حد ما لكنها تحمل كل خصائص ايفتشنكو وملامح شعره . واولها قصيدة «الاكاذيب» :

خطا أن تكذب على الشباب
خطا أن تثبت له ان الأكاذيب حقائق
خطا ان تقول له ان الله فى سمائه
وان العالم فى خير
الشباب يعرف ما تعنيه . الشباب شعب

قل له ان الصاحب لا يمكن أن تحصى
ولا تدعه يرى ما سوف يكون فقط
لكن دعه يرى بوضوح هذه الأزمنة الراهنة
قل له ان العقبات موجودة
وانه ينبغي ان يصطدم بها
اياك أن تعفو عن خطأ انت على علم به
فانه سيكرر نفسه ، ويتزايد
وسوف لا يعفو تلاميذنا فيما بعد
عما عفونا عنه نحن في أنفسنا .
والقصيدة الثانية عنوانها « عيد الميلاد » :
أماه ، دعيني اهنئك
على عيد ميلاد ولدك
أنك قلقة عليه أشد القلق
وها هنا يرقد ،
أنه يكسب قليلا ، وزواجه في غير محله
انه طويل ، آخذ في النحول ، لم يحلق ذقنه
أواه ، يالها من نظرة حب يائسة !
منك استمد عقيدته ، استمد الثورة
انك لم تجعليه مرفها او مشهورا
فموهبته الوحيدة هي الجسارة
افتحي نوافذه
ادخلي زقزقة الطيور على الأغصان المورقة
قبلي عينيه الدهشتين
أعطه « كراسته » وزجاجة حبره
أعطه جرعة من اللبن ولاحقيه اذ يمضي

أما القصيدة الثالثة فعنوانها « كلام » ولعله يرد فيها على نقاده كما ناشد امه في قصيدته السابقة .. يقول :
قالوا لى انك رجل شجاع
وأنا لست شجاعا
الشجاعة لم تكن قط صفتي
ما فكرت الا في أنها لا تتناسب معي
حتى أجرد نفسي منها كما فعل الآخرون
ان شيئا من مقوماتي الاساسية لم يهتز
صوتي لا اكثرمن ضحك على الزيف
لم أفعل شيئا أكثر من أني أكتب
قط لم أش ولم أشهر باحد
لم أخل عني شيئا شغل تفكيري
نصرت كل من استحق أن ينصر
ودمغت عديمي الموهبة من الكتاب الجهلاء
(اني افعل ما ينبغي أن يكون على أية حال)
والآن يحتضنونني قائلين لي انني شجاع
كم سيخجل أطفالنا أشد الخجل
اذ يشرعون في الانتقام من هذه الأهوال في النهاية
وهم يذكرون كم يمكن ان تظهر النزاهة العامة
مثل الشجاعة في زمن غريب كهذا
ان ايفتشنكو على أية حال ما يزال غض العود واعدا ، لكن هل يمكن ان يسد فراغ شاعر عظيم كمياكوفسكي الذى انتحر في عهد ستالين ؟ .. جواب ذلك تحمله السنوات القليلة القادمة بلا شك ، والا كانت « الزوبعة » في فنجان !

« علي شلش »



فريدا فوردهام
مقدمة لنظريات يونج في علم النفس

An Introduction to Jung's Psychology
by ; Frieda Fordham, Pelican Series 1962

هذا الكتاب ـ على صغر حجمه (١٢٨ صفحة) ـ يعتبر مدخلا طيبا لفهم النظرية النفسية عند كارل جوستاف يونج صاحب مدرسة علم النفس التحليلي . وقيمة هذا الكتاب في انه يعرض بأسلوب شيق مركز الاسس النظرية التي اعتبرها يونج أساسا لفهم النفس الانسانية ، والتي غابت عن أذهان الكثيرين من المثقفين حتى المتخصصين منهم في علم النفس ، تحت سيطرة أفكار فرويد ، من جهة ، ولان يونج ، من جهة أخرى ، لم يحاول أن يضع نظرية بالمعنى الجامد لمفهوم النظرية ، وانما حاول أن يضع على حد قوله : « اقتراحات ومحاولات منظمة لخبرة علمية جديدة مع الكائنات الانسانية » . ومما يرفع من قيمة هذا الكتاب أيضا أن مؤلفته وهي « فريدا فوردهام » تعمل محللة نفسية وزميلة في جمعية علم النفس التحليلي بمعهد يونج التدريبي بلندن . لذلك فثقتنا بالمؤلفة لاتشوبها شائبة ، لانها محيطة بأسرار العمل الذي أخذت على عاتقها تحقيقه . لهذا فلم يكن من الغريب ان يقدم يونج بنفسه للكتاب غير مخف اعجـــابه بالمؤلفة وبطريقتها في عرض أفكاره السيكولوجية .

اما يونج فقد ولد بسويسرا عام ١٨٧٥ ـ وأتم تعليمه في بازل حيث حصل على بكالوريوس الطب ، وبدأ منذ عام ١٩٠٠ في ممارسة مهنته كطبيب نفسي بمستشفى بارجولزلي للأمراض العقلية بزيوريخ وفي العيادة النفسية بجامعتها . ودرس على يد جانيه Janet في باريس عام ١٩٠٢ ، ثم على يد أوجان بلويلر Eugan Bleuler وعمل مساعدا له بعد ذلك . أما الفترة الحاسمة من حياة يونج فهي الفترة التي التقى فيها بالعـالم النمساوي الكبير سيجمند فرويد شخصيا عام ١٩٠٧ حيث وجدا تقاربا فكريا واضحا بينهما مما ادى الى قيام صداقة حميمة وتبادل فكري خصب استمر أعواما عديدة .

ويجب أن ننفي هنا ما قد يكون مترسبا في الأذهان من أن يونج وصل الى أفكاره خلال علاقته بفرويد أو مزاملته له ، لان اتجاهات يونج بدأت تتضح منذ فترة باكرة من نموه العقلي.

وبنضج أفكار يونج واكتمالها في اللاشعور برز له تباينها الواضح مع آراء فرويد في التكوين النفسي للانسان .. وخلال تلك الفترة أصدر كتابه الموسوم « سيكولوجية اللاشعور » حيث

اذاع فيه ما يفرق مفاهيمه من مفاهيم فرويد .. وبدات القطيعة ــ منذ ذلك الوقت ــ بين يونج وفرويد .. فاخذت اعمال فرويد وتلاميذه تعرف بمدرسة التحليل النفسى ، بينما اخذت اعمال يونج وتلاميذه تنتمى الى مدرسة « علم النفس التحليلى »أحيانا وعلم نفس العقد النفسية أحيانا أخرى .

وكتاب فوردهام يعرض فى سبعة فصول أعمال يونجومفاهيمه التحليلية . تبدأ المؤلفة بمقدمة عامة ، ثم تفرد فصلا للانماط السيكولوجية Psychological Types وتخصص الفصل الثالث اللاشعــور الجمعــى Collective unconscious وانماطه أما الفصـــل الرابع فتعرض فيه لمفهـــوم الدين وعلاقتــــه بالعمليات الفردية . وتعرض فى الفصل الخامس الأسس النظرية للعلاج النفسى Psychtherapy وفى الفصل السادس تكتب عن تفسير الأحلام وفى السابع تبين علاقة التربية بعـلم النفس .

ولنعرض الآن أهم ما تعرضت له المؤلفة من أفكار فى هذا الكتاب . فى المقدمة تعرف المؤلفة للهيكل التخطيطى لعـــلم النفس عند يونج ، فتبدأ بعرض وجهة نظر يونج تجاه الخلط القديم بين مفهومى عقلى Mental ونفسى Psychichal وقـــد اختار يونج مصطلح « نفسى » ليغطى كلا من المجال الشعورى واللاشعورى للذات . بينما قصر مفهوم « عقل » على المجـــال الشعورى منها وحسب .

ومفهوم يونج عن النفس مفهومه عن جهاز دينامى فى حركة مستمرة تنتظمها الذات ، وهو يطلق كلمة الليبدو Libido اللاتينية على تلك الطاقة النفسية العامة . ومفهوم يونج عن الليبدو يختلفعن مفهوم فرويد عنه .. فبينما نجد أن يونجيطلق الكلمة على الطاقة النفسية عموما ، نجد أن فرويد يطلقها على ذلك الجانب من الجهاز النفسى المسمى « بالهى Id » مستودع الغرائز الجنسية eros والغرائز العدوانية thantos وهو بهذا المعنى يقتصر على جانب من اللاشعور فى الذات أما عند يونج فهو يغطى جوانب شعورية ولا شعورية من الطـاقة النفسية .

والحركة الطبيعية لليبدو عند يونج أما حركة متقدمة ، أو حركة راجعة ، ويطلق يونج مفهوم التقدم progression على الحركة التقدمية والتى من شأنها ارضاء الحاجات الشـعورية للشخصية . ويطلق مفهوم النكوص regression على الحركة الراجعة التى من شأنها ارضاء الحاجات اللاشعورية ، والتقدم من شأنه بهذا المعنى العمل على تكيف الفرد الايجابى ببيئته . اما النكوص فمن شأنه تكيف الفرد لحاجاته الداخلية. ومعنى النكوص عند يونج يختلف عن مفهوم البعض له ــ كمفهوم فرويد عنه بأنه ميكانزم دفاعى يشهره الانا فى وجه الوجدانات والحوافز الغريزية المؤلمة الصاعدة من « الهى » فهو ميكانزم مرضى يتراجع فيه الانا بكليته الى مراحل بدائية من الاشباع النفسى الطفل ــ فيونجنفسه يستخدمه بمعنيين : اما رجعة الى حالة سابقة بعد فترة من التركيز والنشاط العقلى المستمر ، واما رجعة الى مراحل مبكرة من النمو النفسى ولكنها ليست بالضرورة خاطئة أو مرضية كما هى عند فرويد وأنصاره .

وهكذا تنتقل المؤلفة من فكرة الى فكرة بصورة منهجية ، لا يعوزها التدليل ، ولا تنسى أن تعرض فى المقدمة لمفهوم اللاشعور عند يونج . ذلك المفهوم ، الذى ظل وسيظل اكتشافا خطيرا يحل كثيرا من غوامض النفس . وينير لنا الطريق فى فهم الكثير من عقدها وملابساتها . ومفهوم اللاشعور عند يونج شىء نلمس نتائجه ولا نحسه . هو مختلف عن الشعور ومستقل عنه ، ولكنه أكثر منه قدرة وفاعلية .. فهو يؤثر فى العقل الشعورى ويوجه طريقه .

واللاشعور ظاهرة عامة فى حياة كل فرد لا يقتصر على الحالات الشاذة ــ كما قد يعتقد لاول وهلة ــ ولكنه يبرز حتى فى حياة الأسوياء والأصحاء فليس من النادر أن نرى أنفسنا وقد صدرت منا أفعال لا ندرى كنه دوافعها الحقيقية ، فيصبح احدنا وقد ملأته الدهشة « ما الذى دهانى ؟ » .

ولا تنسى المؤلفة أن تعرض فى جزء من المقدمة وفى الفصل الثالث كله عمل يونج الذى ميز فيه بين نوعين من اللاشعور :

١ ــ اللاشعور الشخصى personal unconscious

٢ ــ اللاشعور الجمعى collective unconscious

أما اللاشعور الشخصى فيطلق عليه يونج اسم الظل Libido والظل كائن وضيع inferior يعشش فى ذواتنا . هو تلك القوة الهائلة التى تصارع الفرد للقيام بأفعال لا يسمح له شعوره بها . هو بمثابة مستر هايد ــ الجانب الشرير المدمر ــ فى ذات الدكتور جيكل ــ الجانب الرمزى لذاتنا الشعورية الواعية ــ وفى هذا الجزء من الشخصية تكمن كل الرغبات المسفة والانفعالات البربرية . وكل ما لا ترضى عنه الجماعة .

والجدير بالذكر هنا أن ذلك الجانب لا يتغير بأساليب التربية المألوفة ، لانه هو طفولتنا بما فيها من انانية فطرية واندفاعية خالصة . بل انه وجد منذ أن خطا الانسان خطواته الاولى على الارض . وبذلك المعنى يصبح الشر طبيعة غريزية متأصلة فى النفس الانسانية . ومكتوب على الانسان أن يظل يصارع تلك الرغبات ، فتصرعه أحيـانا وتنتصر عليه فى حالات الجنـون والجريمة ، ولكنه لا يستطيع مغالبتها أبدا فهى جزء من ذاته واذا أفناها فقد أفنى نفسه . وانما يعليها ويحول من مجراها فيكون الفنان المبدع أو العبقرى الخلاق أو العالم الدؤوب . أو يكبتها فيكون الشخص العادى الذى يمارس الحياةالاجتماعية . أو يغالى فى كبتهـــا فيكون المـــريض النفسى « العصــاب » بفئاته المختلفة من قلق أو كآبة أو حالات هستيرية تطفح آثارها على البدن أحيانا فى حالات العمى أو الشلل الوظيفى .

أما اللاشعور الجمعى فهو يمثـــل طبقة عميقة من اللاشعور أعمق جذورا وأكثر تأصلا فى النفس من الظل ــ أى اللاشعور الشخصى .

اولى انماط اللاشعور الجمعى التى اهتم بها يونج وعالجتها فوردهام باسهاب : نمط الذكورة والانوثة . ففى رأى يونج انه طالما ان للرجل والانثى شخصية وظلا بالتساوى . فان الفرق الوحيد بين الذكر والانثى يتركز فىمحتوى الظل عند كل منهما ، فظل الرجل ذكرى بينما ظل المراة انثـــوى . ومن رأيه أن التفرقة سلوكية لا طبيعية . فاللاشعور الذكرى يشتمل على عنصر نسائى والعكس بالعكس . والرجل ليس رجـلا فى كل الأوقات . والانثى ليست انثى فى كل الاوقات « ودائما نجد فى ذات الشخص سمات ذكرية تعيش جنبا الى جنب معالسمات الانثوية » . فأكثر الذكور رجـولة لا يخفـــون مظاهر العطف والرقة عن الاطفال أو الضعاف . واقوى الرجال لا يخجل من الاستسلام لعواطفه فى حيـــاته الخاصة فيصبح اوسانا ودودا

رقيقا . يقول يونج فى هذا المعنى « توجد فى لا شعور الرجل انماط ذات طبيعة أنثوية وهى التى تمكنه من فهم طبيعةالمرأة ».

والنمط الانثوى فى اللاشعور الجمعى للرجل يتشكل ، أول ما يتشكل ، من خلال العلاقة بالأم . فمن خلال هذه العلاقة يحمل الشخص خبرته الأولى الفعالة عن الأنثى . وكثيرا ما نجد رجالا عاجزين عن التحرر من تلك العلاقة الامية فتظل حياتهم سلسلة من الفشل المتلاحق فى علاقاتهم بالجنس الآخر .

***

والجدير بالملاحظة ان خبرة الطفل بأمه تكتسى بثوب ذاتى . فلا يكفى أن نتساءل عن كيفية معاملة الام لطفلها . وانما - الاكثر فاعلية وفهما - أن نتساءل عن شعور الطفل ازاء تلك المعاملة .

أما العنصر الذكرى فى المرأةفينبع من ثلاث مصادر : الصورة العامة الموروثة ، وخبرتها بالذكورة التى تأتيها من خلال ماتعقده من علاقات بالرجال فى حياتها كالأب . ثم عنصر الذكورة الكامن فى ذاتها .

ويعبر العنصر الذكرى فى المرأة عن نفسه تعبيرا ايجابيا خلال ما تقوم به المرأة من أعمال ذكرية فى صميمها .. ولعل هذا هو ما يكمن وراء تخلى المرأة عن أعمالها الطبيعية وخروجها أثناء الحروب مثلا لتقوم ببعض الاعمال الفدائية . ولكن المرأة حينما تقوم بمثل هذه الاعمال انما تصبغها بصبغة أنثوية فهى اذ تخرج أثناء الحرب انما لتقوم بأعمال التمريض مثلا .

واذا كانت الذكورة والأنوثة نمطين أصيلين يردان الى نطاق اللاشعور الجمعى فانهما ليسا بالنمطين الوحيدين من أنماطه . فالى هذا اللاشعور يرد يونج كل ما من شأنه العمل على ادامة تقاليد وعادات السلالة .. ويرد اليه أعمال السحر والأساطير التى تحاك فى مجتمعات مختلفة بطريقة متشابهة تدعو للغرابة .. ويرد اليه الأحلام ذات المحتوى الشائع .. والرموز العامة كرمز « أمنا الأرض » .

ومن انماط اللاشعور الجمعى التى اهتم بها يونج فى كثير من كتاباته ، وأفردت لها فرايدا فوردهام فصلاكاملا : الدين religion ونظرية يونج فى الدين نظرية أقرب الى الواقع ولا تصدم الكثيرين فى معتقداتهم على عكس من كانوا يرون فى الدين خداعا illusion وهروبا من الواقع وعودة الى ضعف الطفولة . وقد كان فرويد يرى فى الدين ما كان يراه فى الأمراض النفسية التى كان يعالجها ، تنطبق عليه كل أعراض العصاب القهرى compulsion neurosis فالطقوس التى يقوم بها المتدين كالصلاة أو الصوم أو التطهير المستمر أشبه بما يفعله الحوازى obsessioned الذى يغتسل فى اليوم آلاف المرات اغتسالا قهريا نتيجة احساس لا شعورى دفين بالاثم والنجاسة .

أما الدين - عند يونج - فهو وظيفة طبيعية ترتهن باشباعها صحة الانسان النفسية ، واستقراره الوجدانى . فمن طريق هذا الاشباع يرتبط عالم الفرد الداخلى والخارجى بدرجة متساوية . والسمة الجوهرية فى الدين هى التعبير الشعورى عن أنماط مختفية فى غياهب اللاشعور ، وهى وظيفة تعجز عن أدائها أى معرفة عقلية .

والدين عند يونج مفهوم دينامى .. وديناميته تلك هى التى تجعل من العبث والخطورة بمكان أن نقوم بتعريف واضح محدد له .. « وقد عبرت هذه الدينامية عن نفسها فى الماضى ، فى حركات الاصلاح ، فى الحروب العقائدية ، فى الاضطهادات الدينية ، فى سيطرة السحرة ثم فى تعذيبهم ، فى المجهودات الخلاقة المبدعة التى جعلت الناس يقيمون المعابد ، ويشيدون المساجد والكنائس . كما تعبر اليوم عن نفسها فى الحركات المتمردة كالشيوعية والنازية والفاشية » .

ويرى يونج أن فى نفس كل منا وبالذات فى منطقةاللاشعور الجمعى صورة - لله - وكل انسان محتاج لأن يخبر هذه الصورة وأن يشعر بملاءمتها للاشكال العقائدية التى يمدها به دينه . واذا لم يحدث ذلك فان انقساما خطيرا سيعترى الشخصية الانسانية « فبينما قد تكون فى مظهرها متمدينة فانها فى داخلها بربرية متوحشة » .

والفصل الذى تفرده المؤلفة للانماط السيكولوجية جدير بالتفاتنا ، فاذا كان كل اهتمامها منصب فى غير هذا الفصل عن اللاشعور وانماطه وتطبيقاته . فان هذا الفصل بالذات يناقش بناء الشعور عند يونج .

وتتمركز مساهمة يونج فى علم النفس الشعورى بتمييزه بين نمطين من الاتجاهات يحويان كل الشخصيات الانسانية بما فى اتجاهاتها من توزع واختلاف وهما : النمط المنطوى والنمط الانبساطى .

والنمط الانطوائى يطلق على مجموعة من الأشخاص تتميز باتجاه عقلى خاص يدفعهم الى تأمل الذات وتتبع أحوالها والبعد عن الآخرين والتمحور فى الأنا لا الآخر .. بل يصبح الآخر هنا مجرد مضايف سيكولوجى وامتدادا للانا وانعكاسا له .. بعبارة أخرى فهو شخص نرجسى اتجه الليبدو عنده الى الداخل وأخذ يصب فى الذات بالمعنى الفرويدى .

أما الاتجاه الانبساطى فهو يطلق على مجموعة من الأشخاص تتميز بتهيؤ عقلى يدفعها الى الارتباط بالجماعة والنفور من تأمل الذات أو التمركز حولها . يبدو من الناحية النفسية متفائلا متحمسا وان كان حماسه لا يدوم طويلا . بعبارة أخرى فهو شخص اتجه عنده الليبدو نحو الخارج بالمعنى الفرويدى .

والملحوظ فى هذا المجال هو تاريخية هذا التمييز فكلاهما نمطان يبرزان منذ الطفولة الباكرة . بل ان يونج يتجه الى اعتبارهما نمطين فطريين .

تلك هى الصورة المجملة للكتاب تركنا فى عرضها كثيرا من التفاصيل وبعض التطبيقات النفسية التى تفيد المتخصص . ولعل القارىء يدرك من خلال هذا العرض الضئيل امتلاء الكتاب وثراء المؤلفة وتركيز العالم . ولو ان الكاتبة استطاعت أن تحرر نفسها من الطريقة المدرسية فى العرض لبلغت الذروة . ويؤخذ على المؤلفة أيضا أن الكتاب - على صغره - تتكرر فيه بعض الأفكار فى الفصول المختلفة بصورة مملة وعذرها فى ذلك واضح فالعالم الذى تعرضت له ، رجل خصب ممتلىء يصعب تخطيط أفكاره فى فصول محددة .. وهو نفسه لم يستطع ذلك فى أى من كتبه .

وتقديرنا ليونج - مع ذلك - لا ينسينا أن مفهومه من اللاشعور مفهوم يشوبه الغموض والفوضى وعدم التحديد فى الوقت الذى تميز فيه زميله فرويد بالتحديد والتخطيط المنظم لهذه المنطقة المجهولة من الذات . ومع هذا فاننا نعترف بأن هناك تقاربا واضحا بينهما فى مفاهيمهما عن اللاشعور .. تقارب

اكثر مما كان يعتقد فرويد او يونج . فمفهوم « الظل » عند يونج يكافىء تقريبا مفهوم الهى عند فرويد .. واذا امعنا الفكر فى الوظائف التى يردها يونج الى اللاشعور الجمعى رأينا تقارباً واضحا بما رده فرويد الى الانا الاعلى .. مع فروق فى التفاصيل والتكوينات الخلقية للأنا الأعلى عند فرويد .

ونظرية يونج – كما عرضتها فوردهام – فى التمييز بين الذكورة والأنوثة ، تهمل الفروق التشريحية بين الذكر والأنثى ولا اعتقد أن هناك وجهة نظر يكتب لها النجاح وهى تهمل تلك الناحية التشريحية فى تحديد الخلق .. هذه حقيقة لم تفت على سيجمند فرويد فاستغلها كاحسن ما يكون الاستغلال .

عبد الستار ابراهيم محمد



ا . ج . ستوك
و . ب . ييتس شعره وفكره

W. B. YEATS HIS POETRY AND THOUGHT

by : A. G. STOCK

Cambridge University Press, 1961.

هذا الكتاب دراسة ضافية لشعر الشاعر الايرلندى الكبير وليم بتلر ييتس (١٨٦٥ – ١٩٣٩) فى مراحل حياته المختلفة . وتقول الأستاذة ستوك مؤلفة الكتاب ان ييتس كان يحيا فى حالة اكتشاف مستمر لذاته مما يجعل كل قصيدة من قصائده تلقى الضوء على اخواتها . وهكذا فلئن صح ان القصيدة عنده وحدة عضوية قائمة براسها ، فقد صح ايضا ان قصائده الاولى تزداد عمقا حين ننظر اليها فى ضوء قصائده الاخيرة وان قصائده الاخيرة تزداد وضوحا حين ننظر اليها فى ضوء قصائده الاولى . ولما كانت المؤلفة ترى ان مسرحيات ييتس الشعرية تستحق بحثا مفردا فانها لم تشر اليها الا لماما ، والكتاب – الى ذلك – معنى بعرض الافكار التى تتردد فى قصائد ييتس باعتبار هذه الافكار جزءا من كيان القصائد نفسها . وتولى المؤلفة التراث الايرلندى الذى درج ييتس فى كنفه اهتماما كبيرا ، لان هذا التراث يمنح قصائده مذاقا فريدا . وللفكر الشرقى ايضا نصيب فى انتاج ييتس وان كان هذا النصيب محدود النطاق .

والفصل الاول من الكتاب (الخلفية) يتولى بالبيان وصف البيئة الايرلندية التى شب شاعرنا فيها واغتذى من عصارتها . تقول المؤلفة : (لقد كان و.ب. ييتس يكتب بالانجليزية وكان سبنسر وبليك وشلى وجماعة ماقبل روفائيل من بين اساتذته ، ولكن ميلاده ومزاجه وظروف نشأته بل واختياره المتعمد المدروس .. كلها تجعله شاعر التقاليد الايرلندية) . والتقاليد الايرلندية تختلف عن تقاليد انجلترا اختلافا يتجاوز مظاهر السطح الى مناهج التفكير ونظم الاقتصاد ومذاهب الدين . وقد كان ييتس على ذكر من هذا الاختلاف الذى فتح له آفاقا جديدة وامده بالصور والرموز . ونرى أن ادراكه لهذه الحقيقة يمنح كل قصائده من أولها الى آخرها – وحدة فنية موصولة الحلقات.

ان ايرلندا – حين ولد ييتس – لم تكن تضم مدنا كبيرة ، بل ولا هى كانت تتالف من مجموعة قرى .

لقد كانت جزيرة تنتشر الاكواخ فى ارجائها ، ويكاد كل كوخ أن يكون وحدة مستقلة بذاتها ، ولم تكن بلدا صناعيا كسائر بلدان اوربا الغربية ولا هى كانت تحوى طبقة متوسطة كبيرة العدد كما هو الحال فى انجلترا . ولهذا نجد ابطال ييتس اما من الفلاحين واما من كبار الملاك . كان هؤلاء الملاك يعيشون فى بيوت كبيرة ولكنهم اخذوا يتناقصون منذ عام ١٩١٦ – بل وقبل ذلك – الى أن قضت الحرب الأهلية على من بقى منهم . وقد كتب ييتس عن هؤلاء الملاك وبيوتاتهم الكبيرة فى حنين وعطف . أما الفلاحون فكانوا يمثلون فى خياله حملة التراث الايرلندى وان لم يحتلوا مكان الصدارة فى تفكيره مثلما كان الشان مع معاصره جون ميلنجتون سنج .

ان فى الحضارة الصناعية عناصر لابد وان تستثير كراهية الفنان . وهذا ما نراه واضحا فى الادب الانجليزى منذ القرن الثامن عشر . وفى قرننا هذا جهر بالهجوم عليها ثلاثة فنانين مختلفين أشد الاختلاف هم : د.هـ. لورانس والدوس هكسلى و ت.س. اليوت . ولكن الثلاثة ظلوا – رغم ذلك – يدورون فى فلكها ولا يجدون مهربا منها . أما لورانس فقد هاجم الحضارة ثم مات . وأما هكسلى فقد اتجه الى التصوف فى معاناة تنم عنها رواياته . وأما اليوت فلم يتحول الى الدين الا بعد أن شرح الحضارة فى قصيدته « الارض اليباب » .

وقد ترتب على هذا الاختلاف بين طبيعة الحياة الايرلندية والحياة الانجليزية ان كان الكتاب الايرلنديون – على وجه العموم – اقل اهتماما من أقرانهم الانجليز بدراسة الحضارة الصناعية وما خلفته من آثار فكرية وروحية . حقا لقد استاثرت هذه المشكلة باهتمام الكاتب الايرلندى سين اوكاسى ولكن اغلب بنى جلدته – بما فيهم ييتس – قد وجهوا اهتمامهم الى موضوعات اخرى .

وفى الفصل الثانى (الكتاب الأول) تتحدث المؤلفة عن ديوان (جولات أويزين وقصائد اخرى) وهو الديوان الأول لييتس وقد نشر فى لندن عام ١٨٨٩ . كان ييتس فى الرابعة والعشرين حينذاك وكان حريصا على أن يخلق فى ديوانه عالما من صنعه تعمره الاحلام. وهكذا خرج الديوان قطعة من الأدب الرومانسى المنتقى الالفاظ البعيد عن لغة الحياة . وقد ضم الديوان ثلاث قصائد من وحى الهند مما يقطع باثر الفكر الهندوسى فى مشاعرنا . ففى قصائده نرى بذرة الفكرة القائلة بان الله هو الشكل المثالى لكل مخلوق حى ، وهى الفكرة التى افضت به الى كراهية المادة وتمجيد

الحياة وتأكيد قيمة الفرد . لقد وجد ييتس في الفكر الهندي شيئا يوافق مزاجه ويحل له المشاكل التي لاتحلها المسيحية أو العلم . ولكن قصائد ديوانه - بعد ذلك - تضرب بجذورها في بيئته الايرلندية . فهناك مجموعة قصائد عن سكان ريف ايرلندا تتسم بواقعية تصويرية ، وهناك قصائد عن الجنيات اللاتي يؤمن الايرلنديون بوجودها ايمانا عميقا ، وهناك قصيدة « جنون الملك جول » التي تصور الصراع بين كبرياء الانسان وتوقه الى المجد الدنيوي من ناحية ورغبته في التوحد والانعزال من ناحية أخرى.

ففي هذه القصيدة يصاب الملك جول بالجنون ليلقى بالتاج في لحظة انتصاره ، ويتجول في الغابات واجدا فتنة لا تقاوم - وعذابا ايضا - في هبوب الريح وتساقط اوراق الشجر ونمائها . وهذا الصراع الذي تصوره القصيدة قد قام في نفس ييتس ، وظل يشغله طوال حياته ، ولكنه وجـــد مادته ايضا في الاساطير الايرلندية من حوله .

وفي الفصل الثالث (المسرحيات الاولى) تقول المؤلفة انه لا يمكن الفصل بين مسرحيات ييتس وقصائده ، فقد كتب ييتس شعرا دراميا قبل انيتجه الى المسرح كما ان بعض أجزاء مسرحياته الشعرية يمكن ان تعد قصائد قائمة برأسها . واذا كان ديوان ييتس الاول (جولات أويزين) ذا طابـــع وثني فقـــد جاءت مسرحيته الاولى (الكونتيسة كاثلين) ذات طابع مسيحي . وفي هذه المسرحية نجد مجاعة تحل بارض ايرلندا حتى لتضطر البطلة الى بيع روحها للشيطان لقاء انقاذ مستأجري ارضها من الموت جوعا وتكافئها السماء على ذلك بانقاذها هي الأخرى ، أو كمـــا يقول الملاك في نهاية المسرحية :

ان نور الانوار
ينظر دائما الى الباعث لا الى الفعله
أما ظل الظلال فلا ينظر الا الى الفعله .

ولهذه المسرحية مزاياها كما ان لها عيوبها : فهي تمتاز بالبساطة والوضوح والجمال واحكام الصنعة المسرحية ومطابقة الشعر لمقتضى الحال ، ولكنها - من ناحية اخرى - ليست عملا دراميا كاملا لاسيما اذا أخذنا في الاعتبار انعدام عنصر الصراع في شخصية البطلة .

وفي الفصل الرابع (عالم الحلم) تقول المؤلفة ان النقـــاد المحدثين لا يحبذون لجوء الشعر الى استيحاء عالم الحلم باعتباره غاية في حد ذاته ، ويتطلبون من الشاعر - مهما تكن وســـائله الفنية - أن يصور الوان الصراع النفسي والاجتماعي . ولعـــل هذا هوالسبب في أن ديواني ييتس اللذين نشرا عام ١٨٩١و١٨٩٩ لم يلقيا اهتماما كبيرا . ففي هذين الديوانين وجه اهتمامه الى الموسيقى والصور مستبعدا كل قضايا السياسة والفلسفة والفن من شعره . وهكذا جاء الديوانان زاخرين بالغابات والبحيرات والتلال المنعزلة والنساك والكهنة الطاعنين في السن وعازفي القيثار وسكان الأكواخ وأبطال الأساطير وملكات العصـــور الوسطى والجنيات .. وحتى حين يفـــكر الشاعر يتخذ تفكيره صورة مجموعة متلاحقة من الصور الشعرية .

على أن المناظر البهيجة في عالم ييتس لا تنفي ما نلمســـه في قصائده من شعور حاد بالوحدة ، وقد كتب ذات مرة عن شبابه يقول : (ان عزلتي عن الرجال والنساء العاديين قد زادها لون من التقشف المدمر للعقل والبدن مع عبادة للجمال الحسي . وقد كان الحاجز القائم بيني وبين سواي من الناس يملؤني أحيانا بالرعب . وكان خجلي - اذ لا أجد خيرا من هذه الكلمة - مفرطا يحول بيني وبين الافصاح عن أفكاري . وهكـــذا كتبت - وأنا احترق بالعبادة والكراهية - شعرا يعبر عن العواطف الشائعة بين كل العاطفيين من الشبان والفتيات ولعل هذا ان يفسر قيام شهرتي - حتى عهد قريب - على القصائد التي كتبتها جميعـــا قبل بلوغي السابعة والعشرين) .

* * *

وفي الفصل الخامس تحاول المؤلفة تتبع المؤثرات التي وجهت ييتس في طفولته . لقد كان أبوه ج.ب. ييتس رساما متفانيا في عمله . وكان الأب يصادق ابناءه ويتلو عليهم الشعر في طفولتهم. وقد التحق ييتس بمدرسة الفنون في دبلن ، وكان لأبيه الفضل في توجيه اهتمامه الى الشعر القصصي والمسرحي . على أن أهم ما تعلمه شاعرنا من أبيه هو ان الفنان انما يعيش ليخلق اعمالا فنية .

كان ييتس وطنيا غيورا يرجو الحرية لوطنه ولكنه لم يتعاطف قط مع المغامرات السياسية او الصفقات التي تتم في الظـــلام وكان يؤمن بان للشعب الايرلندي تقاليده التي تفوق تقاليـــد الانجليز نبلا ورفعة . وحينما اضطرب جو السياسة في ايرلندا تحول باهتمامه الى الادب لانه كان مؤمنا بان اليقظة الثقـــافية والفنية لا تقل اهمية عن المطالبة بالحـــرية السياسية ، يقول : « لا أدب عظيم بلا قومية ، ولا قومية عظيمة بلا أدب » . ولم يكن اشتراكه في انشاء أول مسرح قومي ايرلندي الا تعبيرا عن رغبته في خلق المسرحية الايرلندية الصحيحة .

وتلفت المؤلفة نظر القارىء الى ولع ييتس بالسحر وكل مايقع وراء الطبيعة حتى لقد كتب وهو في السابعة والعشرين يقول انه لولا اهتمامه بالســـحر لما تمكن من دراســـة بليك أو كتابة (الكونتيسة كاثلين)· وكان والد ييتس لا أدريا ولهذا لم يجد شاعرنا ما يدعوه الى التمسك بالتعاليم المسيحية تمسكا دقيقا. على ان مزاجه - في جوهره - كان مزاجا دينيا يكره الواقعية العلمية التي تفسر ظواهر الروح تفسيرا ماديا . وعندما كانطالبا في مدرسة دبلن للفنون دعا بالاشتراك مع بعض أصدقائه شـــابا برهميا يدعى « موهيني تشاترجي » ليلقنهم مبادىء الفلسفة الشرقية . وقد علمهم هذا البرهمي « ان كل ما ندركه - بما في ذلك ما نسميه اشباحا - موجود في العالم الخارجي ، وان هذا العالم بمثابة مجرى يتدفق دون ان يتحكم فيه الانسان ، واننـــا لسنا سوى مرايا ، وما الخلاص الا ابعـــاد هذه المرايا بحيث لاتعكس شيئا » . وايمان ييتس بالسحر لايتضح فيكتبه المعروفة قدر ما يتضح في مذكراته التي لم تنشر بعد ، فقد كان يشـــهد الجلسات الروحانية ، والتحق بجمعيات سرية تمارس السحر . وكان يستهدف وضع نفسه في حالات من الغيبوبة تأتيه معهـــا الرؤى من مناطق مجهولة ، ولم يكن يخفىعليه انرؤاه قد لاتعدو ان تكون أكثر من اسقاط لمخاوفه وامانيه ، ولكنه كان يرجو ان تنتهي به - ومع ذلك الى لون من الحكمة بجهله سواه .

وفى الفصل السادس (النضج) نرى ييتس وقد اصبح اكثر واقعية عن ذى قبل ، ووسع من نطاق موضوعاته ، ووثق صلته بالاحداث الجارية من حوله وبدا يمل عالم احلامه ورؤاه :

ما رياح الشتاء هى التى صوحت الاغصان
لكنها قد صوحت لاننى قصصت عليها أحلامى .

وكان ييتس يحب فتاة تسمى (مودجن) حبا لا امل فيه ، ولهذا كانت المراة فى قصائده الاولى رمزا اكثر منها مخلوقا حيا. وذات يوم كان يستعد لالقاء محاضرة حين تلقى برقية مؤداها ان فتاته تزوجت رجلا آخر . وبلغ من عنف الصدمة انه لم يحس بها لاول وهلة ، فراح يلقى محاضرته ، وكان شيئا لم يكن . حتى اذا افاق ادرك ـ بما لا يقبل الشك ـ ان حبها مازال متمكنا من قلبه ، وانه لا سبيل له الى الحصول عليها ، وان شبابه كله قد مضى .

اى حدس خفى كان يلهم الشاعر انه سيفقد فتاته ؟ لقد كتب ييتس فى اليوم السابق لذلك اليوم مباشرة قصيدة عنوانها (لعنة آدم) وتحدث فيها عن عذاب المحبين الذين برح بهم الالم، وفى هذه القصيدة نراه يتحدث من :

قمر مرهق كانه محاره
غسلتها امواج الزمان حين علت وهبطت
حول النجوم ، وتكسرت أياما واعواما .

ثم يقول ان عذاب المحبين :

قد بدا سعادة خالصة ، ورغم ذلك
أرهقت قلوبنا كذلك القمر الاجوف .

وتذكر المؤلفة ان ييتس حين أصدر ديوانه المسمى « الخوذة الخضراء » بدا يغدو شاعرا مشهورا ولكنه كان يحتقر آراء الجماهير ولا يؤمن بها . سالوه ان يشجع جماعة من الشعراء الذين يقلدونه فاجابهم بهذا البيت من الشعر :

او رأى احد كلبا يثنى على البراغيث التى فى جسمه؟

وفى الفصل السابع « الفن والارستقراطية » تقول الاستاذة ستوك ان آراء ييتس فى القضايا السياسية والاجتماعية ـ كآرائه فى السحر ـ قلما تلقى قبولا . على ان ييتس كان يؤمن بهذه الآراء ايمانا عميقا ، ولم يضمنها شعره الا بعد ان اصبحت جزءا لا يتجزأ من تكوينه النفسى والفكرى . ففى ديوان « الخوذة الخضراء » يعبر عن احتقاره للديمقراطية وتوقه الى الفضائل الارستقراطية القديمة . وهو حين يتغزل فى حبيبته (مودجن) انما يؤكد اختلافها عن غيرها وتفردها بصفات النبل والكبرياء :

لقد أوتيت عقلا
جعله النبل بسيطا كالنار
وأوتيت جمال القوس المشدود ، انها من طراز
لا يعهد فى مثل هذا العصر
فهى شامخة ، متوحدة ، جادة .

على ان عزلةييتس النفسية لم تقف حائلا بينه وبين الايمان بخلود الروح وخلود الجنس البشرى . لقد رافقه الايمان بالروح منذ صباه ، اما الايمان بالانسانية فقد استقر فى قلبه منذ بلوغه منتصف العمر . وديوانه « مسئوليات » مهدى الى اسلافه حيث يعتذر لهم عن انه خلف لمن بعده شعرا بدلا من ان يخلف وريثا :

اغفروا ذلك لشهوة عقيمة
رغم اننى قاربت التاسعة والاربعين
لا ولد لى ، لا شىء عندى سوى الكتاب
لا شىء سواه يثبت دمكم ودمى .

على ان العهد لم يطل بييتس على كتابة هذه الابيات حتى تزوج وانجب اطفالا .

اننا نعلم أن افلاطون كان يرى فى الطبيعةالمخلوقة صورة ناقصة للحقيقة المعنوية ، فجمال الجسم عنده ليس الا صورة للجمال بمعناه المطلق . اما ييتس فكان يرى ـ كما هو واضح من ابياته ـ ان المطلق والمجسد أمران يكمل احدهما الآخر . واذا كان مؤمنا بان الروح صورة لكل ما هو لا نهائى ، فقد كان يؤمن ايضا بضرورة تحقيق الروح لذاتها فى هذا العالم تحقيقا كاملا . ولكى يحقق الفنان هذا ينبغى ان تكون له « رؤياه » الخاصة .

والفصل الثامن « رؤيا » يستمد اسمه من كتاب شهير لييتس بهذا الاسم . اصدر ييتس هذا الكتاب لاول مرة عام١٩٢٥ ولكنه لم يرض عنه فاعاد كتابته واصدره عام ١٩٣٧ . والكتاب يحوى آراء ييتس فى الروح خلال الحياة وبعدها ، كما يصور نظرته للتاريخ ، فعند ييتس ان بلوغ مرحلة تحقيق الذات يعنى بلوغها مرحلة التوازن التام او مايسمى ب « وحدة الوجود ». وتتميز هذه الوحدة بالجمال الفائق لان الروح تتمكن معها من تحقيق مثلها الأعلى . وللروح اربع قوى هى : « الارادة » و « القناع » و « العقل الخالق » و « مادة القدر » . فالارادة هى القوة الحيوية التى تدفع الذات الى اثبات وجودها. والقناع هو الصور التى تخلقها الارادة . والعقل الخالق هو قوة الفكر التى نولد بها . ومادة القدر هى حصيلة الظروف الموجودة فى العالم الخارجى . وقد الحق ييتس بكتابه السالف الذكر كتابين آخرين هما « الرمز المكتمل » و « الروح عند الحساب » .

وفى الفصل التاسع تتابع المؤلفة الحديث عن كتاب « رؤيا » . لقد زعم ييتس انه استلهم افكار هذا الكتاب من « اصحاب الاتصالات » وهم عنده عقول مجردة لا اجسام لها . واذا كان نطاق عملهم منحصرا فى مجال الفكر ، فانهم يدركون المعانى التى ينطوى عليها عالم الحس . وقد قالوا مرة حين سمعوا نعيب بومه : « ان مثل هذا الصوت يمنحنا سرورا عظيما » . ولا تشك المؤلفة فى ان ييتس كان بحيث يقرهم على ذلك ، ففى شعره تتردد هذه الاصوات كثيرا ، والى جانب « أصحاب الاتصالات » يوجد « المعذبون » وهم الذين يستهدفون تضليله بتعاليمهم الخاطئة . ولا يذكر ييتس أن « أصحاب الاتصالات » نبهوه الى هؤلاء « المعذبين » غير مرة واحدة . ففى ذات يوم أتاه « معذب » متنكر وراح يشرح له « نموذجا هندسيا لحالة الروح بعد الموت حيث يمكن تحويلها على مخرطة » مما آثار «أصحاب الاتصالات» على هذا العبث الفارغ واضطرهم الى التدخل !

ولم يكن فى استطاعة ييتس ان يفسر لنا السر فى ان « أصحاب الاتصالات » يستهدفون هدايته بينما يستهدف « المعذبون »

التفرير به . ولكنه يرجح أن « أصحاب الاتصالات » آثروه برسالتهم لأنه صاحب قدرة بيانية واضحة تمكنه من نقل الرسالة نقلا صحيحا . وفيما عدا هذا السبب لا يعتقد ييتس ان « أصحاب الاتصالات » يكنون له أى تقدير خاص !

وفى الفصل العاشر « العنف والنبوءة » تذكر المؤلفة أن ديوان ييتس المسمى « البجعات البرية فى كول » ١٩١٩ كان اول ديوان يصدر له بعد قيام الحرب العالمية الأولى . واذا كانت الحرب قد أثرت تاثيرا عميقا على أقرانه من الشعراء الانجليز ، وجعلتهم ما بين مؤيد ومستنكر ، فقد بقى ييتس بعيدا عن تاثيرها ، بل ان كلمة الحرب لا تجرى على شباة قلمه حين يرثى صديقه « روبرت جريجورى » الذى استشهد فى القتال . وفى قصيدة « طيار ايرلندى يتنبأ بموته » يقول :

انا لا ابغض من أحاربهم
ولا أحب من أدافع عنهم .

وحين طلبوا منه أن يكتب قصيدة عن الحرب قال :

يخيل الى أنه من الخير فى مثل هذا الزمان
أن يظل الشاعر صامتا . اذ الحق
اننا لم نؤت القدرة على رد الساسة الى الصواب

على أن الاضطرابات الداخلية فى ايرلندا اثارت قلقه ، وفى قصيدته المسماه (١٩١٩) يتحسر على سعادة الايام الخوالى :

قد كان لنانحن أيضاكثير من الالعاب الجميلةفى طفولتنا
وما كان قانوننا ليابه للوم أو للمديح
ولا للرشوة او التهديد .

وفى القصيدة ياس عميق :

الانسان يعشق ، وما يعشقه لا يلبث أن يختفى .
فهل بقى لى ما أقوله ؟

وفى الفصل الحادى عشر « رجل السيف » تقول المؤلفة أن ييتس فى ديوانى « البرج » و « السلم المتعرج » بلغ درجة عالية من الوضوح الفكرى والبراعة التكنيكية وازدادت رموزه خصبا وعمقا ، فلم يكن الرمز عنده مجرد بديل عن الافكار المجردة وانما كان مصدرا متجددا للتفكير والتامل . والى جانب رموزه نجد الديوانين زاخرين بالافكار وصور الريف والنماذج البشرية . ورغم محافظته على عمود الشعر فان قصائده لا تفقد اتصالها بلغة الحديث اليومى . وهو الى ذلك شاعر غنائى كبير يتغنى بالصراع بين الروح فى اطار الابدية والروح فى اطار الزمان. وليس توقه الى الحياة الأخرى تعبيرا عن زهده فى هذه الحياة وانما هو تعبير عن توقه الى حياة أفضل . تقول المؤلفة : « قلما يرضى فنان عظيم بنبذ الصوفى للحياة . ان اعمال الفنان ـ وهى نتاج شهوة الحياة ـ تكذبه ان نبذها . حتى لو كانت اعماله رموزا للخلود فينبغى ان تعاش هذه الرموز ان هى شاءت أن يكون لها أى معنى غير معناها الحسابى » . وهنا تقارن المؤلفة بين ييتس والشاعر الانجليزى « جون دون » (١٥٧٢ ـ ١٦٣١) فتقول : «لم يكن ييتس يشبه دون كثيرا فى مزاجه أو عقيدته الدينية وان كان يقاسمه حاجته الى العثور على حقيقة روحية مجسدة فى الحس . لقد بدأ دون حياته متهتكا حتى اذا استوثق اولا من الحواس أمكنه أن يجد ـ من خلال الجنس ـ تاكيدا لما وراء الحس . أما ييتس فقد بدأ بالمثالية المتقشفة والثقةالمطلقة بالروح وحب الشعر الذى يكاد يخلو من ذكر الجسد ، ثم تعلم فى رجولته كيف يفهم بحواسه تجسد الروح فى الغريزة الجنسية ».

وفى الفصل الثانى عشر من الكتاب « المرحلة الاخيرة » نوفى مع المؤلفة على خاتمة المطاف . لقد تقدم الشاعر فى السن ، ولكن قلق الفنان لم يزايله . يقول فى رسالة لصديقته « أوليفيا شكسبير » : « أظننى اهتديت فى الفترة الاخيرة الى ادراك الحقيقة ادراكا متسقا ولكنى لا أعلم ان كان هذا سيجعلنى استمر فى الكتابة او لا استمر » . وقد استمر ييتس فعلا فى الكتابة ، وأنتج قصيدة فى رثاء الزعيم الارلندى « بارنل » تعد أكثر قصائده السياسية مرارة . أما قصائده المسماة « أناشيد ما وراء الطبيعة » فهى تبين تاثره بالشعراء الميتافيزيقيين فى القرن السابع عشر . ويرفض ييتس فى هذه الاناشيد أى فصل بين الروح والجسد . فعنده ان قوة العاطفة هى التى تجعل الانسان صورة من الله ، وليست الشهوة الا صورة للحب الالهى . يقول:

الخلود هو الشهوة ، هو بنت أو ولد
يهتفان فى مفتتح سرورهما الجنسى :
والى الابد والى الابد .

وقد نشر ييتس فى السنين الاربعة الاخيرة من حياته ديوانا سماه « القصائد الاخيرة » وتستمد بعض قصائد هذا الديوان موضوعاتها من تاملاته فى التاريخ . على أن لغتها المكثفة وانتقالاتها غير المتوقعة تجعل فهمها من الصعوبة بمكان .

ماهر شفيق فريد





يقدمها :
حسن الفقى
محمد العوانى

● **الاديب (بيروت يناير ١٩٦٤)**

فى هذا العدد من **مجلة الاديب** كتب الاستاذ **نقولا يوسف** عن محمد امين حسونه تحت عنوان الكاتب محمد امين حسونه فبين أن محمد امين حسونة كاتب صحفى ناقد من فئة الكتاب الذين وقفوا حياتهم على خدمة المجتمع واصلاحه بأقلامهم .وأنه خلف من المطبوع اربعة عشر كتابا مؤلفا وخمسة مترجمين غير ماكتبه من البحوث والمقالات والاقاصيص والروايات والتعليقات والنقدات فى معظم الصحف والمجلات العربية التى عاصرها .

ثم عدد الأستاذ نقولا يوسف الأعمال الأدبية والمناصب التى تولاها محمد امين حسونة من بدء حياته الأدبية عام ١٩٢٥ الى عام ١٩٥٦ حين وصل به المطاف محررا بمجلة التحرير وجريدة الجمهورية عند تأسيسها .

وكان مولد محمد امين حسونه بميت غمر بمحافظة الدقهلية فى نوفمبر سنة ١٩٠٨ واستشهد فى حادث من حوادث الطائرات .. وكان فى حياته دائب الحركة واسع النشاط له صلات ادبية واسعة ، ففى عام ١٩٢٥ كتب فى الجرائد والمجلات التى عاصرها . وفى عام ١٩٣٠ نشرت له قصة طويلة باسم « مصر الحرة وأشبال الثورة » ثم فى عام ١٩٣٣ أتبعها بمجموعة من اقاصيصه بعنوان « الورد الابيض » وقدمها محمود تيمور ، كما عرض عددا من اللوحات البارعة لمناظر بلاده منها « الواحة » ، «المراة الجديدة» ، «الغروب» ثم ظهرت له قصة « راوية » ثم اصدر كتابا فى أدب الرحلات باسم **«وراء البحار» أودعه مشاهداته فى رحلة قام بها عام ١٩٣٥ فى ربوع النمسا والمجر ورومانيا وتركيا واليونان** . وله فى باب الدراسات الادبية ثلاثة كتب هى : كتاب عن « بيراندللو » الكاتب الايطالى ، وكتاب عن « بيتوفى » شاعر الثورة المجرية . وكتاب عن الشاعر الفرنسى « بودلير » وديوانه أزهار الشر ويدخل فى هذا الباب النقدى كتابه **« الباب الذهبى » الذى ضمنه بعض ملخصات القصص العالمى ومنها روايتا «الينبوع» لشارلس مورجان و « الدكتور ابراهيم » لجون نيتل .. وجمع من أبحاثه النقدية خمسا وعشرين مقالة احتواها كتابه « ساعات الصمت » تحدث فيه عن اساليب النقد ، ومستقبلنا الثقافى ، والرمزية ، والفن للفن ، والادب الماجن ، وأحرار الفكر ، ثم دراسات عن محمود تيمور ، وجيوفانى بابينى ، ودانونزيو ، وبوبين ..**

كذلك ترجم لبيراندللو روايتين احداهما « هنرى الرابع » عام ١٩٣٧ والاخرى « الحب والموت » عام ١٩٤٧ ، وترجم لكيرن برامسون عام ١٩٤٣ « الاستاذ كلينوف » ثم ترجم رواية « الينبوع » لشارلس مورجان ١٩٥٥ وترجم كثيرا عن اللغات الاوروبية من مختارات الشعر والنثر مماتضمنه بعض مؤلفاته ثم وضع كتبا فى ميدان التاريخ هى « مصر والطرق الحديدية » و « كفاح الشعب من عمر مكرم الى جمال عبد الناصر » الذى ظهر جزؤه الاول عام ١٩٥٥ بعنوان « الوعى القومى » والثانى عن « الوعى الثورى » وكان يعد للطبع جزأين آخرين عن « الوعى السياسى » و « الوعى الشعبى » ولم يمهله القدر لاخراجه **وسجل حسونة تاريخ الثورة المصرية فى ٢٣ يوليو**

١٩٥٢ فى كتابه « ٢٣ يوليو ثورة التحرير » كما سجل جلائل أعمالها فى كتابيه « جمهورية مصر فى عامها الاول » المطبوع عام ١٩٥٤ وكتاب « جمهورية مصر فى عامها الثانى » المطبوع عام ١٩٥٥ وقد ترجما الى بعض اللغات الاوروبية .

ثم ختم الكاتب مقاله بالدعوة الى الحفاظ على تراثه ومخطوطاته التى لم تنشر وهى : الجزء الثالث من كتاب «كفاح الشعب من عمر مكرم الى جمال عبد الناصر » ومجموعة أقاصيص بعنوان « سلطانة » ورسالة الكواكبى نشر منها مقالة بمجلة التحرير .. وكتاب عن الادباء المعاصرين ومؤلفاتهم . وابحاثه واذاعاته المبعثرة لم تجمع بعد .. ثم رسائله الخاصة التى تبادلها مع أدباء الشرق والغرب .

● **المعرفة (دمشق)**

وفى مجلة المعرفة مقال بقلم الدكتور فؤاد أيوب يعرض فيه كتاب « تاملات فى الشعر » للشاعر الفرنسى **بول كلوديل** فيقدم له بقوله **« ان الشاعر العظيم هو دائما ناقد كبير أيضا ، ولعل بصيرته الثاقبة هى الضمان للصفة الرفيعة التى يتميز بها شعره وان بول كلوديل هو احد اولئك الشعراء العباقرة الذين اخضعوا موهبتهم الشعرية لملكتهم النقدية ، واعملوا الفكر فى موضوع الاثر الفنى بصورة عامة والشعر بصفة خاصة .**

وانه ليحدثنا فى كتابه « تاملات فى الشعر » عن الكلمة بصورة **عامة . وعن البيت الشعرى وعن الفارق** بين الشعر والنثر وعن الشعر الحر **والشعر العروضى** المعقد ، وعن القافية الشعرية **وضرورتها وامكانية الاستغناء عنها** أو عن مشكلة اللغة **بالنسبة الى الاثر الشعرى ، وعن الالهام والموهبة** الشعرية والعناصر الاخرى **التى لا بد منها فى سبيل صقلها واخيرا** عن الصفات التى تميز **الشاعر العظيم ، وعن الفارق** بين العلم والفن بصورة عامة ، **ومما لا ريب فيه ان ما يقوله لنا** ليستاهل ان نتوقف عنده **وان نتامل فيه ، ولعلنا نستخرج منه** مادة تنفعنا فى حين لا يزال **النقاش سجالا فى هذه المواضيع بين** شعرائنا ونقادنا العرب » .
بعد هذا بين ان الكلام المكتوب يستخدم لغرضين . اما لاحداث حالة من المعرفة والشىء هو الامر الاساسى فى هذه الحالة اذ المقصود أن نقدم عنه **وصفا تحليليا مضبوطا كاملا** ففى هذه الحالة نصنع النثر واما لاحداث حالة من الفرح لاننا **نسعى بواسطة الكلمات** مثل الرسام **بواسطة الالوان والموسيقى بواسطة الالحان لان نشكل عن المشهد أو الانفعال او حتى** الفكرة **المجردة نوعا من المعادل القابل للانحلال فى الفكر وهنا يصبح التعبير الامر الرئيسى** واننا فى هذه الحالة نصنع الشعر .
والشعر ينقسم الى **الشعر الحر وهو الخاضع لقواعد عروضية مرنة حتى الدرجة القصوى وذلك هو شعر المزامير والانبياء .. والى الشعر الكبير الروائى او التفسيرى ذى البنية العروضية المعقدة جدا »**
ثم فسر كلمة الالهام بثلاثة معانى وأوضح الصفات الثلاثة المميزة للشاعر العظيم :

الالهام اذ ليس شاعر الا ويجب أن يلهم قبل ان يتنفس .. ويتميز الالهام الشعرى بهبتى الصورة والعدد . والذكاء أو النقد أو الذوق حتىدرجة فائقة هو الصفة الثانية من دلالاتكون الشاعر عظيما ثم تاتى الصفة الثالثة وهى الفطرة الجامعة ويعنى **بها « ان هؤلاء الشعراء الممتازين قد تلقوا من الله اشياء واسعة جدا يجب ان يعبروا عنها بحيث يلزمهم العالم كله » .**

وانهى بحثه بالاشارة الى الفارق بين العلم والفن **« فالعلم لا يعنى الا بالاشياء المنظورة وان شانه هو ان يذهب من السبب الى النتيجة وان ميدانه هو ماهية الاشياء وليس ما تعنيه الاشياء وانه يستخدم من المواهب الانسانية العقل فقط .**
وان الميدان الخاص بالفن والشعر هو الصناعة فالانسان يصنع شيئا ادركته حواسه ، شيئا يمكن أن يفهمه العقل .

● **الآداب (بيروت)**

اتخذ الاستاذ **« أيمن الامير » « دراسة فى ادب فرجينيا وولف »** عنوانا لبحثه الذى صدره بجملة من قولها **« ليست الحياة سلسلة من المناظر متسقة الترتيب ، انما الحياة هالة منيرة ، غلاف نصف شفاف يكتنفها من بداية الوجدان الى نهايته » ف.و**

ولدت فيرجينيا وولف فى لندن عام ١٨٨٢ وكانت نشأتها فى بيئة علمية ثقافية ظهر اثرها واضحا فى حياتها الادبية اذ كان أبوها ناقدا وفيلسوفا ، ولم تكن منتظمة التعليم فىمدرسة وانما الاثر الاكبر فى تعليمها هو مكتبة والدها وما فيها من المؤلفات القيمة النفيسة وكان من اثر تنقل أسرة فيرجينيا بين الريف والمدينة ان ظهر هذا فى قصصها ، فرواية « غرفة يعقوب » مثلا تبدأ فى كورنوول وتنتهى فى لندن ، وهناك عامل اخر ساعد على تحديد معالم شخصيتها هو تخلى والدها عنعقيدته الدينية فى سن مبكرة واعتناقه مذهب « اللاارادية » وتمسك به طوال حياته ، فكان لذلك اثره فى حياتها وفنها **فهى كما كان يراها النقاد الآن كاتبة اخلاقية متزنة تؤمن بان مهمتها فى الحياة هى أن تبحث عن الحقيقة ، دون أن تكون من الملحدين أو الشكاك .**

ولما مات ابوها انتقلت مع بعض افراد اسرتها الى منزل بضاحية « بلومزبيرى » حيث بدات تجاربها الادبية . وهناك بعض العوامل التى لا يمكن تجاهلها وان بدت ثانوية فلقد كان لها فضل كبير فى تفرغها لمحاولاتها الادبية وتنمية ثقافتها منها ان عائلها كان على قدر كبير من الثقافة والثراء ، فلهذا شعرت بالحرية والاستقرار وشجعها على المضى فى كتابتها ، كما كان بيتها واخواتها فى « بلومزبيرى » هو المهد الاول الذى ترعرعت فيهجماعة بلومزبيرى الشهيرةالتى كان يرتادهاالكتاب والفنانون فى ذلك الوقت . وكان أول انتاجها الادبى عبارة عن مقالات فى النقد وكان زواجها بصحفى مفكر وسياسى كاتب مقال هو « ايونارد وولف » مشجعا لها على المضى فى طريقها الادبى وبدات نشاطها كناقدة للكتب فى الملحق الادبى لجريدة التايمز واستمرت على هذا العمل حتى موتها وكانت تنشر بين الحين والحين بعض المقالات النقدية فى المجلات الانجليزية والامريكية وفى عام ١٩١٥ نشرت قصة « الرحلة البحرية » وهى أول عمل لها بعد سبع سنوات من العمل والدراسة .

والقصة وان كانت تتفق مع تقاليد الكتابة القصصية الا أنها تفصح عن محاولة الكاتبة البحث عن وسيلة أقدر من الوسائل التقليدية على نقل التجربة الفنية .

ويظهر على الكاتبة فى معالجتها هذه القصة انها على شىء من التردد وعدم الاستقرار وارجع الاستاذ أيمن الامير هذا الي أنها لم تكن قد اهتدت بعد الي الوسيلة المناسبة لنقل

التجربة التى تعتمل فى نفوس شخوصها ، وعلى الرغم معا فى هذه القصة من عيوب فان فيرجينيا قد أضافت شيئا جديدا للقصة الانجليزية يمكن أن نسميه بالحساسية الفنية .

ثم ظهر لها فى عام ١٩١٩ رواية ثانية هى « ليل ونهار » وهى قصة ليست كوميديا اجتماعية من النوع الذى برعت فيه جين اوستن ، بل اطار تتحرك فيه الشخصيات بدافع بحثها عن الحقيقة .

ولا تهتم فيرجينيا بالتجارب والاحداث التى تمر بهـــا شخصيات القصة قدر ما تهتم بالحالات النفسية أو الوجدانية التى تثيرها تلك الاحداث فى النفوس .

وفى مرحلة تطورها الفنى كانت تعتقد أن ذكاء الشخصيات كلما زاد ساعدها ذلك على الافصاح عن مثل هذه الحـــالات الوجدانية ، ولكنها عدلت عن هذا الرأى فيما بعد .

ولقد شعرت فيرجينيا بأن الاسس الفنية لكتابة الـــرواية كما درج عليها القدماء لم تعد الوسيلة المثالية لنقل التجـربة أو للتعبير عن الواقع النفسى للشخصية . فهى تعتقد انمهمة الفنان هى أن يعبر عن احساسه الخاص بالواقع أو عن رؤياه الذاتية لماهية الحياة . وعلى هذا فهى ترى اناستقصاء الواقع ليس مسألة أحداث خارجية فى قالب دراى .

لذلك فهى تشير فى مقال لها عن « الادب الحديث » الى انها انضمت الى صفوف المتمردين على القواعد المتفق عليهـا فى كتابة الرواية فهى تحاول أن تقترب من الحياة أو الروح ، من الحقيقة او الواقع » اكثر مما تسمح هذه القواعد . وهى ترى ان « جيمس جويس » هو الكاتب الفريد الذى استطاع ان يقترب من الحياة أكثر من غيره متجاهلا معظم القـــواعد التى يتبعها الكتاب عامة .

وتقول مسز وولف فى هذا الصدد : « فلنسجل تلك الذرات التى تتساقط على العقل بنفس نظام تساقطها ، ولنتتبـــع الصورة التى تطبعها كل حادثة أو منظر على الوجدان مهما بدت مبتورة او متقطعة . ليس علينا ان نقبل فكرة وجود الحيـاة على اعتبار انها قضية مسلمة » .

ونجد الكاتبة تستخدم المشاهد فى رواية «الليل ونهار» لتحطم الحواجز بين الافكار والاحداث . بين الواقع والمشاعر والتاملات والذكريات حتى تستطيع ان تقدم لنا « الغلاف نصف الشفاف الذى يكتنفنا من بداية الوجدان الى نهايته » .

وفى اثناء كتابتها لروايتى الرحلة البحرية وليل ونهار برزت لها مشكلة الاهتداء الى اسلوب فنى او وسيلة تستطيع من خلالها ان تحقق توازنا بين سرد الاحداث والتعبير عن الواقع النفسى للشخصية فقادها ذلك الى التحول عن كتابة الرواية الطويلة الى بعض التجارب الادبية ولم يكن كتاب « الاثنين ام الثلاثاء » سوى سجل لهذه التجارب ويضم ثمانى صور نثرية ، وعلى الرغم من ان هذه الكتابات ليست أعمالا كاملة فانهـــا تحتل مكانا بارزافى تطورالتكنيك الروائى عندها وقداستخدمت الكاتبة هذا الاسلوب فى كل اعمالها فيما بعد .

وبهذا انتهت مرحلة التجارب وأصبحت على استعداد تام لان تبدأ فى كتابة سلسلة من الروايات الطويلة تستخدم ما توصلت اليه من أسلوب انطباعى مرن تستطيع ان تعبر به عن تيار التجربة . اذن كيف تستطيع أن تستخدم هذا الاسلوب فى كتابة الرواية ؟

فقد اجابت على هذا السؤال بنشر قصتها « غرفة يعقوب » حيث يتضح اسلوبها المدروس للتعبير عن مختلف المواقف فى القصة وهى لا تلتزم حدود السياق الزمنى للاحداث ، فالتجربة تتفتت بين يديها لتكون سلسلة متلاحقة من الانطباعات .

ورأت فى أول عمل لها أن الحبكة التقليدية ليست بالوسيلة التى تساعدها على الغوص فى أعماق تجربة الفرد الذاتية . وتبذل فى روايتها « مسز دالووى » محاولة ناجحة للكشف عن جوانب هذه التجربة .

ان فيرجينيا تريد أن تشكل صورة لمحاولة الفرد الوصـول الى الحقيقة الداخلية . وكانت تؤمن بأن هذه الحقيقة غير قابلة للتعبير عنها فقد خلصت الى انها لا تستطيع ان تصف هذه المحاولة من جانب الفرد الا على مستوى عقلى لا يصل الى مرحلة التعبير اللفظى . وتيار الشعور عند شخصيـات مسز دالودى هو مزيج من التأمل فى الماضى والنظر الى المستقبل

وقد وصلت فيرجينيا الى قمة فنها فى رواية « الفنار » التى ظهرت بعد عامين من ظهور رواية « مسز دالووى » وهى فى هذه الرواية تختار مجموعة من الشخصيات تعيش فى منزل يطل على البحر ثم تصف الجو المحيط بهم وتصهر كل عناصر القصة لتحولها الى « الهالة المنيرة » او الرمز الذى يعـادل الحياة .

على ان معالجتها للرواية ابرع بكثير مما يستطيع هـــذا الملخص ان يوحى به وهى ترسم شخصياتها وعلاقة كل منهـم بالاخر فى مهارة فائقة وتخرج من كل هذا بنمط رمـــزى محدد .

وفى عام ١٩٢٨ نشرت الكاتبة روايتها « اورلاندو » وهى عبارة عن سجل لتاريخ حياة احدى صديقاتها وهى ليست رواية بالمعنى المفهوم بل سيرة فلسفية لحياة شخص رمزى ، وتطوره الفكرى ، تمتد من أول العصر الاليزابيثى حتى السنة التى نشر فيها الكتاب .

ثم اتبعت هذا الكتاب بروايتين هما «الامواج» و «السنين» ثم فى عام ١٩٤١ وبعد موتها بشهور ظهرت اخر رواياتها «بين الفصول» وفيها تحاول تصوير الحياةالانجليزية وتطورالحضارة فى انجلترا عبر قرون التاريخ حتى وصلت الى ما هى عليـه فى العصر الحديث كل ذلك فى قالب رمزى .

وختم الكاتب بحثه بتصوير حالتها :

بأنها عاشت حياتها فىخوف منالجنون اذ كانت تنتابها احيانا حالات من الكآبة والقنوط تهدد بارتياد قواها العقلية وقـــد اصابتها نوبة كادت تذهب بقواها العقلية وان اعصابها كانت فى توتر عصبى دائم أصابها من جراء الحرب فخرجت ذات صباح متجهة صوب شاطىء النهر كعادتها وحين خرج زوجها وأختهـا للبحث عنها لم يجدا سوى عصاها ملقاة على الشاطىء وبهـذا خبا ضوء بعد أن سطع فاختفت شخصية كبيرة فى عالم الادب •



تقدمها :

الدكتورة فاطمة موسى

الى ذكرى الزميل والصديق الذى اختطفه الموت فجاة وكان معقد أملنا فى ازدهار الدراسات الكلاسيكية فى اللغة العربية ، الى الدكتور محمد صقر خفاجة ، نهدى هذا العرض السريع لبعض المجلات المختصة بالدراسات اليونانية واللاتينية .

*** مجلة « اليونان وروما »** Greece & Rome

« نصف سنوية تصدر عن جمعية الدراسات الكلاسيكية باكسفورد »

فى العدد الاخير من هذه المجلة « اكتوبر ١٩٦٣ » بحث عن دراسة اللغة اللاتينية فى افريقيا ، وكاتب المقال مدرس بجامعة برمنجهام وقد سبق له التدريس فى غرب افريقيا . يقول الكاتب :

كثيرا ما سئلت عن قيمة هذه الدراسة الاكاديمية العالية لقوم قد خرجوا لتوهم من مرحلة البدائية ، وتواجههم ضرورات التقدم العملى ، ومن الاهمية بمكان أن الافريقيين انفسهم لا ينتقدون دراسة لا تينية كما ان اصحاب الشان فى هذا الموضوع وهم طلبة المدارس الثانوية لايبدون اى اعتراض على دراسة اللغة اللاتينية ، وقد يكون السبب فى ذلك انهم لايجدون صعوبة كبيرة فى هذه الدراسة لما يمتازون به من قوة الذاكرة « ويبدو أن الطلبة الافريقيين مشهورون فعلا بقوة الحافظة » ولكننى ارجح أن للمسالة اعماقا ابعد من ذلك فاللغة اللاتينية اذا احسن تدريسها تبدو زاخرة بالامكانيات الثقافية للطالب الافريقى لما نلحظه من تشابه من العادات والتقاليد الدينية والاجتماعية والعائلية فى المجتمع الرومانى وبعض المجتمعات الافريقية ، وكلها من خصائص المجتمعات القبلية .

ويمضى الكاتب فى تفصيل بعض مظاهر هذا التشابه وأهمها ما يختص بالقصيدة الدينية والسياسية فتقديس روح الاجداد ظاهرة مشتركة بين الحضارة الرومانية وكثير من المجتمعات الافريقية وتقديم الذبائح للشكر واسترضاء الالهة من الطقوس التى ترد كثيرا فى النصوص اللاتينية ، ومن البديهى ان الطالب الافريقى أقدر على فهم مغزاها من الطالب الاوروبى ساكن المدينة الذى لم يقدر له أن يرى طائرا او حيوانا يذبح فى حياته فما بالك بالذبيحة فى محراب مقدس .

والطالب الافريقى يطرق ارضا يعرفها جيدا اذ يقرا كيف نشأت روما من اتحاد مجموعة من القبائل لاغراض الدفاع المتبادل بدون أن تفقد كل قبيلة شخصيتها المستقلة ، ففى نيجيريا الشمالية مثلا تسكن مجموعة العائلة قطعة ارض محددة ويدرس الاب او الشيخ شئونها وهى تكون جزءا من القبيلة الكبيرة وتدين لها بالتزامات دينية وعسكرية ولكل هذا مقابل فى الدستور الرومانى فى مراحله الاولى ، ويدير الرئيس شئون القبيلة الى جانب مجلس من « الشيوخ » ولم يكن مجلس السينات Senate الذى عرفت به روما الا صورة من هذا التقليد .

وقد تكون كثير من العادات التى يذكرها الكاتب فى سبيلها الى الزوال بدخول كثير من الدول الافريقية فى عهد نهضة جديدة وحرص شعوبها على الاخذ بنصيبها من التقدم الا أن هناك حقيقة مؤكدة وملفتة للنظر وهى أن تراث الغرب يبدو اليوم أقرب الينا ابناء حضارات اسيا وافريقيا منه الى أبناء حضارة أوروبا « وامريكا » فى النصف الثانى من القرن العشرين ، وليست العبرة هنا بمجرد التقدم المادى بل بماقتلته هذه التغيرات المادية من علاقات انسانية وقيم خنقها دخان المصنع ، فاذا كان استاذ من برمنجهام قد لاحظ ان ابناء غانا ونيجريا أقدر على فهم هوميروس من أبناء شيفيلد وليفربول ، فقد سبق أن أدرك كثير من المشتغلين بالادب الانجليزى بيننا أن تراث الادب الانجليزى من شكسبير الى القرن الثامن عشر أقرب الى نفوسنا منه الى ابناء التيمس وقد قطعت حضارة الالة والتليفزيون وصحافة الاعلانات ما بينهم وبين ماضيهم من وشائج .

وقد صدر الى جانب هذا العدد الاخير من المجلة عدد اخر بصفة ملحق له بعنوان Parthenos & Parthenon البارثنوس والبارثنون .

وهذا بمناسبة مرور اربعة وعشرين قرنا من الزمان على اهداء الاثينيين لالهتم اثينا تمثالا عظيما من العاج والذهب يعتبر تحفة أعمال المثال العظيم فيدياس .

وهذا هو التمثال الذى يعرف باسم البارثنوس وقد أقيم في معبد البارثنون على صخرة الاكروبول عام ٧ - ٤٣٨ ق.م كجزء من خطة بناء كبيرة وضعها السياسى الاثينى المشهور بركليس ويرى المؤرخون فيها الى جانب المغزى الدينى مرامى وأهدافا سياسية هامة ففى مقال عن « المغزى السياسى للبارثنون » يقول رسيل ميجز مدرس التاريخ القديم بجامعة اكسفورد أن الفرس فى غزوهم لليونان القديمة قد دمروا أثينا وغيرها من المدن . أحرقوا البيوت وهدموا المعابد وعاثوا فى الارض فسادا بعد انتصارهم فى ترموبيلاى وبعد هزيمة الفرس فى سلاميس « معركة بحرية » ثم هزيمتهم على البر فى بلاتاى واندحارهم وانسحابهم من تساليا وتراقيا الى أسيا وجد الاثينيون العائدون الى ديارهم أن البرابرة « كما كانوا يسمون غزاتهم من الفرس » قد دكوا مدينتهم دكا ولم يبق بها الا عدد قليل من البيوت أبقى عليه الغزاة لسكنى ضباطهم ، فحسب رواية ثوكيديس المؤرخ اليونانى **كانت المدينة عام ٤٧٩ «ق.م» لاتزيد على أكوام من الرماد والانقاض وعلى الاكروبول كان معبد أثينا الجديد وقد بدىء فى بنائه فى زهو انتصار ماراثون . قد سوى بالارض وقد تناثرت بقايا الاعمدة وقطع الرخام الصلدة فى كل مكان .**

وأعاد الاثينيون بناء مدينتهم وقد بدأوا من الابنية العامة بما يختص بالدفاع واستخدموا لذلك أحجارا من أحجار المعبد الجديد ، وبقيت المعابد أنقاضا كما تركها الفرس ويروى الخطباء فى القرن الرابع أن السبب فى ذلك يعود الى قسم أقسمه الاغريق قبل موقعة بلاتاى : الا يعيدوا بناء هياكلهم بل يتركوها على حالها كتذكار لاعتداء البرابرة على مقدسات اليونان . وقد كان خطباء القرن الرابع قبل الميلاد يذكرون الاغريق بهذا القسم الجليل اذا دعت الحاجة لاستنهاض همتهم حتى نقد حفر على حجر من الرخام ووضع فى معبد اريس فى اخار ناى حيث عثر عليه فى هذا القرن :

اقسم الا افضل الحياة على الحرية والا اخذل قادتى احياء او موتى ، وان اقوم بدفن كل من يسقط فى المعركة من حلفائنا واننى اذ انتصر على البرابرة فى الحرب لا اخرب اى مدينة حاربت فى صف الاغريق ، وان افرض الجزية على من حارب فى صف الاعداء ، واقسم الا اعيد بناء اى من المعابد التى احرقها البرابرة وهدموها بل ادعها تذكارا لمن بعدى على قسوة البرابرة ووحشيتهم .

وقد بر الاثينيون بقسمهم لما يزيد على عشرين سنة فيما يبدو ثم عقد الصلح « صلح كالياس » مع الفرس وقدر بعض الساسة أن عقد الصلح قد أحل اثينا من القسم ، وبدأ بركليس مشروعات بنائية ضخمة لعدد من المعابد تتوج صخرة الاكروبول وبدأ هذا النشاط بشكل ملحوظ فى منتصف القرن ، ولدينا لحسن الحظ الدليل على أن مشروع بناء البارثنون قد بدأ فى سنة ٦ - ٤٤٧ ق.م فقد قضى تطور الحكم الديموقراطى فى أثينا أن ينشر الموظفون المكلفون بالابنية أو الخدمات العامة «كشف الحساب » حيث يمكن لكل مواطن أن يطلع عليه ، وتفيد بعض الاثار التى تخلفت من حسابات البارثنون أن كشف حساب السنة الاولى كان عن سنة ٦ - ٤٤٧ ق.م .

وتفيد وثيقة بردية وجدت فى مصر أن بركليس قد حصل فى سنة ٤٩ - ٤٥ على موافقة المجلس على انفاق ما تبقى من ميزانية العصبة الديلية Dellan League لاعادة بناء معابد أثينا المهدمة « وكانت هذه الاموال قد جمعت لاغراض الدفاع ضد الفرس »

ويروى بلورتارك فى لغة منمقة كيف تزعم ثوكيديس بن ميلياس المعارضة فى المجلس وكيف :

« صاح المعارضون ان الشعب قد لحقه العار وساءت سمعته لاننا أتينا باموال الاغريق العامة من ديلوس الى اثينا وقد جعل بركليس من المستحيل علينا ان نرد عليهم بصدق قائلين انهذا فى سبيل الامان المشترك - لقد أصبح الاغريق عبيد استبداد واضح للعيان اذ يرون ما دفعوه مرغمين من أجل الدفاع يبذر فى تجميل مدينتنا وتزويقها باحجار غالية وتماثيل ومعابد تكلف آلاف الجنيهات وقد رد بركليس بأن شعب أثينا غير مسئول عن تقديم الحساب للحلفاء مادام يحميهم ويصد عنهم البرابرة ، ولم يساهم الحلفاء بالخيل أو السفن بل بالمال ، وهذا المال قد أضحى ملكا لمن أعطى بل لمن اخذ مادام يقوم بالخدمة التى منح المال من أجلها . وقد جهزت المدينة نفسها بكل ما يلزم من عدة الحرب فلا ضير أن توجه مواردها لمشروعات تجلب لها مجدا لايفنى ، وتوفر الرزق لعدد كبير من ابنائها أثناء التنفيذ ، فسنحتاج فى هذه المشروعات الى جميع انواع الصناعات والخدمات ، وهذا سيؤدى الى ازدهارها ، ويوفر العمالة لكل عامل ، وهكذا يرتزق جميع أفراد المدينة اذ تزين وتكفل نفسها من مواردها .

ويمضى بلوتارك فى شرح سياسة بركليس فى ان يعم الخير المحاربين وغير المحاربين ، وقد رأى أن ياخذ الصناع نصيبهم ولم يشأ فى نفس الوقت أن يرتزقوا وهم عاطلون ومضى يعدد أصحاب الصناعات والخدمات الذين شملهم التشغيل فاذا هم يمثلون جميع الحرف من النجارين والحدادين والصياغ والرسامين والنحاتين الى عمال الطرق والنقل والمناجم والنوتية والبحارة !

ويلقى الكاتب بعض الشك على المصدر الذى استقى منه بلوتارك تفاصيل روايته اذ يبدو انه ربما استقاها من مصادر من القرن الرابع « ق.م » ولكنه لاينكر ان بركليس لابد قد استخدم اموال حلف ديلوس فى الانفاق على حركة البناء الواسعة التى قام بها ، فلم تكن موارد أثينا وحدها لتكفى لتغطية كل هذه النفقات .

وان لهذا المعبد لقيمة كبرى فى التاريخ السياسى لاثينا لانه من أوائل المعابد التى بنيت من الميزانية العامة فقد ادخل افيالتيس Ephialtes سنة ٤٦٢ اصلاحات كثيرة على قوانين المدينة وبمقتضاها تمول المدينة المرافق العامة والمعابد وغيرها ، بعكس ماكان ساريا من قبل من قيام الافراد والاسرة الغنية بتمويل هذه المشروعات التى تقترن باسم بانيها .

وقد أصبح لمجلس الديموس Demos فى اجتماعه ان يحدد مايبنى من مرافق وينتخب عنه مندوبين للاشراف على العمل وتمويله ، وهؤلاء المندوبون مكلفون كما اسلفنا باعلان كشف الحساب منقوشا على حجر فى مكان يراه كل من يرغب فى ذلك فالبارثنون اذن نتاج مجتمع ديمقراطى حر، ولم ينقش عليه اسم بركليس « رفض اعضاء المجلس ذلك » ولكنه يرتبط فى أذهان الجميع باسم بركليس فهو خير مايرمز لتلك الفترة القصيرة من حياة أثينا اذ حظيت المدينة بأشكال الديمقراطية ولكنها سارت تحت قيادة زعيم واحد .

وفى مقال بعنوان « ربة التمثال الذهبى » تتابع أونا هوكر مدرسة اللاتينية بجامعة برمنجهام وظيفة اثينا كواحدة من آلهة اليونان العديدين فتقول ان الاغريق كانوا كثيرا ما يشيرون اليها بكلمة « الربة » مجردة من اى صفة اخرى وهذا دليل على اهميتها فى عبادتهم ، وقد امتد نفوذها حتى شمل كل الاكروبول ثم يروى بوزانياس أن ارض اتيكا كلها كانت تقدسها ، وبالرغم من أننا ندرك أن البارثنون كان أروع معابد مدينة أثينا وأن اثينا كانت سيدة أرباب المدينة فمن الصعب أن نفهم السبب فى هذا التفوق فزيوس جدير بالمحل الاول لكبره « زيوس ابو اثينا ولدت من رأسه كاملة النمو شاكية السلاح ! » واريس وأبولو ينافسانها فكلاهما حامى الحروب وديونيزوس وديميتر أهم منها قطعا اذ ينتجان المحصولين الرئيسيين لاثينا القديمة « العنب والحنطة » أما أثينا فقد اهدت المدينة الزيتون وهى حامية الصناعات وكل منهما فى المحل الثانى بالنسبة لاقتصاد يدالى

فكيف أمكن لهذه الربة العذراء أن تثبت تفوقها بين أرباب وربات الدين القديم ؟

والجواب على هذا السؤال فى راى الكاتبة يتعلق بوظيفة هذه الربة كحامية الطفل المقدس مما يتضح من اسطورة ارختونيوس بن هيفاستوس ويقال ان اثينا تلقت الطفل من جى Ge واخفته فى صندوق ، وحملته الى الاكروبول ودفعت به الى بنات كيكروبس ، مع تعليمات مشددة الا يفتحن الصندوق ، وقد فتحته فعلا فوجدن فيه ارختونيوس تحرسه حيتان ففزعن والقين بأنفسهن من على صخرة الاكروبول أما الطفل فقد ربته أثينا فى حماها حتى شب واصبح ملك أثينا فى يوم من الايام ، فنصب للربة تمثالا على الاكروبول وانشأ الاعياد البانائينية Panathenaic واشترك فى الالعاب بعربة ذات الجياد الاربعة وكانت من اختراعه ، وقد دفن عند وفاته فى ذمار أثينا حيث كانت نشأته وهذه الاسطورة مشهورة فى القرن الخامس قبل الميلاد وقد اتخذها كثير من الفنانين موضوعا لرسومات الاوانى .

وتدل الاسطورة على أن كهنة أثينا وكاهناتها كانوا مسئولين عن تربية اطفال الاسرة المالكة « المعادل الانسانى للطفل المقدس» فمن المعروف أن ابناء الاسرة المالكة فى المجتمعات الزراعية البدائية كانوا فى خطر دائم لانهم يمثلون تهديدا لحكم الجالس على العرش كما كانوا موضوعا لنقمة زوجات الاب الاخريات ، وقلما سمعنا فى أساطير اليونان عن أمير نشأ فى بيت أبيه ، فبعضهم كان يرسل الى الكنتور خيرون أما الغالبية فكانوا يتركون فى العراء مع علامة أو دليل على اصلهم فيربيهم الغرباء وتنعكس هذه العادة فى أسطورة كل من زيوس ودنيوزيوس فقد جنى كل منهما لان زيوس كان خطرا على ابيه كرونوس الذى كان يلتهم ابناءه أما ديونيزوس فكانت زوجة ابيه هيرا تضمر له الشر وكانت أثينا حاميه ابطال صغار فى نفس الموقف ، ففى وصف العلامات والاشياء التى وضعت فى سرير أيون كطفل نرى انها جميعا مرتبطة بأثينا .

وقد كانت تلك الوظيفة ، وظيفة حماية ملوك أثينا المقبلين امرا محفوفا بالمخاطر ، يستلزم اتخاذ احتياطات كثيرة لحماية الاطفال ومن يقومون بتربيتهم ، ولذا فقد احيطوا بالسرية التامة وكان الاكروبول منيعا يسهل الدفاع عنه ضد أى معتد كما كانت اسلحة الربة تبعث الرعب فيمن تسول له نفسه مهاجمة ذمارها وخاصة راس الجورجون التى تلبسها على درعها ، والافعى تبث الفزع فى النفوس ، وقد كان لكل هذا قيمة كبيرة فى أثينا البدائية فى عصر يؤمن بان سلامة الجماعة مرتبطة بقوى الملك الخارقة ، ويستوجب المحافظة على السلالة الحاكمة بدون انقطاع ، ومن السهل أن ينتج عن ذلك أن تصبح المراسيم الخاصة بتوفير ملوك المستقبل بنفس أهمية المراسيم المرتبطة بنشاط الملك الحاكم ، وأن يصبح الحفاظ على الطفل المقدس بمقام الحفاظ على حياة الجماعة .

وكان الصبية يشبون فى رعاية أثينا منذ فطامهم حتى يبلغوا مرتبة الرجولة ، وقد يحدث أن يلبس ابناء الملوك ملابس الفتيات لضمان سلامتهم ، وكان من المستحيل أن يعيش الصبيان فى ذمار أثينا على الاكروبول حيث يعرف الملك الحاكم مكانهم اذ تربى هو فى نفس المكان ولذا فقد كانوا يبعدون عن طريق التبنى كما حدث لايون ، وكان ابولو يشارك أثينا فى رعايتهم فى تلك الفترة ، فتحت رعايته كانوا يلقنون الموسيقى والرياضة البدنية والصيد وفنون الطب ، ولكن أثينا كانت دائما على اهتمامها بهم ، فهى التى تشرف على المباريات البانائينية ، وتجرى كل اربع سنوات حيث تعقد مسابقات فى الموسيقى والالعاب الرياضية ثم سباق مشاعل للفائزين ويظهر الوريث الملائم للعرش عن طريق براعته وتفوقه ، فيهدى بجائزة من زيت الزيتون المقدس ويتوج باكليل من أغصان الزيتون وكلها مقدسة للربة أثينا ..

وتجهز أثينا الشاب الفائز ليطالب بالعرش فتمنحه الخيل والسلاح ومن هنا حمايتها للصناعات وترويض الخيل ، وصلتها الوثيقة بهيفاستوس الصانع وبوسيدون مربى الخيول . وهكذا يظهر ولى العهد فى المدينة كامل النمو شاكى السلاح كما خرجت هى من رأس ابيها عند ميلادها واذا اثبت الشاب جدارته وانه أهل لاصله الرفيع وللتربية الممتازة التى منحها تعطيه الربة يوما العرش والنصر .

ومع مرور الزمن اندثرت العادات القديمة كما اندثر الملوك فى مدينة أثينا ، وفقد كثير من المراسيم قيمته ولكن نفوذ الربة أثينا بقى على ماهو ، وبعد ان كانت أم الاطفال الملكيين اصبحت حامية الشباب بأسره ، وبعد ان كانت الحافظة لمراسيم دين بدائى أصبحت حامية المدينة كلها ثم أتى المواطنون ليعيدوها لا كقطعة من الخشب ذات قوى سحرية بل كتمثال جميل من الذهب والعاج يتصدر البارثنون الجديد .

مجلة فينكس Phoenix

مجلة الجمعية الكلاسيكية بكندا وتصدر عن دار النشر بجامعة تورنتو ـ فصلية .

فى العدد الاخير « خريف ١٩٦٣ » دراسة شيقة عن ثلاثية ايسخولوس برومينيا بقلم ج.هرنجتون الاستاذ الزائر بجامعة تورنتو ـ وقد خصص الجزء الاول من البحث عن العناصر فى الثلاثية ، والعناصر هى العناصر الاربعة التى كان الاغريق يرجعون اليها أصل الكون ، وهى الاثير والهواء والماء والتراب ويلفت الكاتب انظارنا الى ان أول كلمات يتفوه بها برميثيوس البطل فى الجزء الاول من الثلاثية هى صرخة ، يشهد بها العناصر الاربعة على ما أنزل به من عقاب ، فبروميثيوس وقد ربط الى صخرته وحيدا لا يجد من يشهده على ظلم زيوس الا العناصر فينادى «الاثير والرياح وينابيع الانهار وأمواج البحار والارض» ثم ينادى « قرص الشمس الذى يشهد كل شىء » .

الشمس كنوع من النار قد تدرج تحت بند الاثير ، وفى هذه الكلمات الافتتاحية فى بروميثيوس فى الاغلال نرى العناصر فى ترتيبها المتناسق ومن الطريف انه اذ يناديها فى اخر هذا الجزء قد انتابها الاضطراب حتى لم يعد كل يعرف مكانه فبروميثيوس يصيح فى النهاية .

صوت الرعد يدوى فى الاعماق ، والبرق يتقد نارا فى كل مكان ، والزوابع تدحرج التراب ، والرياح تهب فى كل اتجاه فى فحيح عدائى محموم ، والاثير قد اختلط بالبحر هذه هى العاصفة التى يطلقها على زيوس ليرعبنى .

ثم اذا به وقد انشقت الصخور لتبتلعه يصيح مستشهدا هذه المرة بعنصرين فقط .

يا أمى الجليلة « الارض » أيها الاثير الذى يحمل النور للجميع اشهدا على ما ينزل بى من ظلم .

ومن الواضح هنا أن العناصر الاربعة تلعب دورا هاما فى نمو هذه المأساة .. فالقلق والرعب يتزايدان فيها والرعب ليس قاصرا على الالهة وانصاف الالهة بل لقد تعداها الى عناصر الخليقة نفسها .

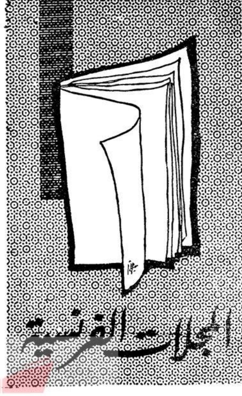
ويقدم الكاتب نظرية طريفة وهى أن كل جزء من الثلاثية مخصص لعنصر من العناصر الاربعة وانه ربما كان هناك جزءا رابعا على شكل مسرحية سابير satyr play مخصصة للهواء وقد تكون الشذرة المعروفة باسم اوريثيا جزءا من هذه المسرحية .

والبحث طريف يشهد بأن فى ميدان الادب اليونانى مجالا واسعا للدراسة الخلاقة .

وفى العدد السابق من نفس المجلة بحث قيم عن هيرودوت للروايات المختلفة والمتناقضة احيانا ، وهو بحث يقصر عن التلخيص السريع وجدير بالترجمة برمته .

ان المجلات المخصصة للدراسات اليونانية اللاتينية كثيرة هنا وهى تصدر بلغات شتى وكثير منها موجه الى المثقف العادى ولا تقتصر على ذوى التخصص ، وتشهد فى كثرتها وتنوعها على أن فى هذه الآداب القديمة منهلا عذبا لكل من ورد .

« رسالة من لندن »



يقدمها :
السيد عطية أبو النجا

الصوت الفاجع عند صمويل بيكيت

بقلم : روبرت أبى راشـــد

لا يمضى أسبوع دون ان يظهر مقال عن صمويل بيكيت ، ذلك الاديب الايرلندى الاصل ، وقد سبق ان قدمناه فى دراسات ظهرت بمجلة Esprit ، وننقل اليوم هذه الدراســــة التى نشرتها مجلة Etud.s الكاثوليكية المشرب فى عددها الصادر فى يناير ١٩٦٤ .

« ترتفع مؤلفات صمويل بيكيت فى الليل والصحراء ، فى تخوم العدم ، وعلى شواطىء اللغة النائية ، وتبدو كقصــيدة غير محــدودة متكررة تطرد فى صـلابتها وتتفصـل تارة فى قصص وأخرى فى مسرحيات ولكنها من أولها لآخرها متماثلة وان تنوعت الاقنعة التى يضعها الرواة على اختلاف أنواعهم ، تخيل يعقوب وقد حرم من الله واخذ يتكلم لانه لا يملك أن يفعل شيئا آخر طالما بقى له ذلك الصوت الخافت ، انه لا ينفك يلخص أمام السماء مغامرته البائسة ، ولكن يا له من انشاد يتصاعد من ذلك الهذيان ، وكم يحمل اليأس فى ثناياه من مرح ، وكم تحوى هذه الوحدة الكثيفة فى تضاعيفها من انسانية أخوية !. أصغ الى بيكيت وهو يقول : « ان هذا الصوت الذى يتكلم ، يعرف انه يكذب ، ولا يبالى بما يقول ، ولعله قد بلغ من العمر ونال من الخزى ما يمنعه الى الابد من النطق بالكلمات الكفيلة باسكاته ، ان هذا الصوت الذى يتكلم بلا نفع ولا جدوى ، والذى لا يصغى لما يقول ، بل يتنبه لما يقطعه من صمت ، من أين تعود اليه يوما زفرة الحلول Avent والوداع ؟ أليس هذا الصوت هو تلك الزفرة ؟ انه يخرج منى ويملؤنى ، ويصيح على الجدران .. انه ليس بصوتى ، وليس فى يدى ان اسكته او ان امنعه من أن يمزقنى ويهزنى ويحاصرنى ، انه ليس بصوتى . ليس لى صوت وعلى أن أتكلم ، هذا هو ما أفهمه ، وحول ذلك يجب أن يكون الحديث ، وحول ذلك يتحتم الدوران » .

ويستطرد روبرت ابى راشد قائلا :

« ان بيكيت ينقلنا الى شبه اللاشىء ، فنجد أنفســنا مع شخص يجتر بلا كلل حديثا يناجى به نفسه ، لقد أصبح هذا الانسان يعيش على الشفا الضيقة التى تفصل الانسان عن الحيوان .. انه يحيا حبيس جسمه : أصم أو أعمى ، مشلولا أو مشوها ، محروما من الحركة ، وان استطاع التحرك فزحفا أو دحرجة ، ان الزمان والمكان قد فقدا مغزاهما بالنسبة اليه واختلطا فى لحظة جامدة ضخمة ، لقد حدد هذا الشخص تعادل الاشياء المهول ، تعادل اللذة مع انعدام الالم ، وتعادل البغضاء مع اللامبالاة ، وخلاصة القول ان هذا الشخص ليس ســوى نفاية رجل او امرأة تفتن فى عدم مبالاة ، بيد أن الاشياء الجوهرية ما زالت حية فى ذلك الصوت الذى يغشى جلبة الحياة ، بالرغم مما به من قصور وزلات ، ان هذا الصوت الذى يلغى بلا انقطاع كل ما نطق به هو نفثة الضمير ذاته ، ان هذا الصوت الواهن لا ينفك يعترض على الالم الانسانى ويتشكى من أرض البشر الحنون القاسية .

ان كل شىء قد أخذ ينطمس من حول البطل البيكيتى ، ولكن هاهو ذاك البطل يعود ، مع ما بقى له من اشياء ثانوية ،

ليلعب لعبـــة الكائن الحى ، وشيئا فشيئا ينشغل ويخترع الاحداث .. ويلخص حاصل اقتناءاته وهو يلقى النظر على ما حوله : ان ذلك التلخيص مهمة عويصة يستحيل الاستمرار فيها حتى النهاية ، فالحياة تتجدد باستمرار ، وبصورة لا يمكن تفسيرها فى أصغر الاجسام المجهرية .

* * *

ان البطل « البيكيتى » الذى يقيم عادة على كوم من الدمن او القمامة ، او فى جحر او بقطعة ارض مهجورة يشبهنا وكانه أخ لنا ، لا تشيحوا بأنظاركم عنه فهو يحاكى مآسيكم وملاهيكم فان تعثر احيانا ، فما ذلك الا لانه يؤدى نفس الرقصة التى ارقصها وترقصونها . وهذا هو مبعث السحر الغامض الذى يستولى على من يعرف كيف يقرأ مؤلفات بيكيت ، ان السخرية لا تصبح قط مريرا ، والتكرار لا يتحول قط الى الابتذال ، بل هو مصدر انشاء غير متوقع يعكس تفكيرا ميتافيزيقيا عـــلى مخلوقات تفيض حيوية ، وهو تفكير يضرب فى العالم الملموس بجذور عميقة ، وعندما تتخيل ان هذا الكاتب قد قضى عـلى الادب اذ بالادب يتفجر من قلمه وقد وهب قوة خفية لم يعرف لها مثيل » .

ثم يلمح « السيد روبرت أبى راشد » الى انه كان يعتقـد ان عبقرية بيكيت تصلح للقصة أكثر مما تصلح للمسرح الى أن شاهد فى تياترو « فرانس » مسرحية Oh les Beaux Jours فراى فيهاتحفة حقيقية .

* كتاب هام عن « موليير »

ظهر اخيرا كتاب قيم عن موليير ، ألقى أضواء جديدة عـلى حياة هذا الفنان وعلى أسرته وفرقته التمثيلية ، بفضل ماحواه من وثائق لم يسبق نشرها من قبل ، وعنوان هذا الكتاب «مائة سنة من الابحاث حول موليير : حول أسرته وممثلى فرقتـــه «Cent ans des recherches sur Molière, sur sa famille et sur les comédiens de sa troupe.

وهذا المؤلف ثمرة ابحاث قامت بها السيدة جيرجنزوالسيدة اليزابيث ماكسفيلد ميلر .

وقد قدم هذا الكتاب فى مجلة « انباء الادب Les Nouvelles Littéraires فى عدد ٩ يناير الناقد جورج مانجر دين Georges Mangredin المعروف بدراساته عن موليير ، فنوه بأنه يضم ٢٨٦ وثيقة ،لم ينشر ما يقرب من ثلثها من قبل .

وقرر الناقد ان هذا الكتاب يكشـف عن جوانب جديدة فى فى أسرة بيجار ، التى انجبت مادلين بيجار ، ملهمة موليــــر الاولى « وعشيقته » . وكذلك زوجته أرماند بيجار ، وزودت فرقته بخمسة من أبنائها . ويتضح من الوثائق التى اشتمـل عليها الكتاب ان هذه الاسرة كانت أسرة شريفة ، على خـلاف ما وصمها به اعداء موليير فى القرن السابع عشر ، كما يزودنا الكتاب بمعلومات قيمة عن تطور فرقة موليير بعد موته .

● شاتوبريان مؤلف « رحلة امريكا » بقلم ميشيل بيتور

«La Nouvelle Revue Française

نشرت المجلة الفرنسية الجديدة فى عددهـــا الصادر فى أول يناير ١٩٦٤ دراسة عن شاتوبريان وكتابه : « رحلة أمريكا » «Le Voyage en Amérique

وشاتوبريان هو أبو الرومانتيكية الذى مهد لظهورها برواياته الشهيرة « رينيه René» و « اتلا Atala» ، وكتاب « روح المسيحية » ورواية « الشهداء » ، وقصة « آخر أبناء بنى سراج » .

وقد لخص له مصطفى لطفى المنفلوطى قصـتى « أتالا » و « آخر ابناء بنى سراج »

ولد فرنسوا رينيه دى شاتوبريان فى سان مالو فى ٤سبتمبر عام ١٧٦٨ وتوفى فى باريس عام ١٨٤٨ ، وكان عاشر ابناء اسرة نبيلة من اسر بريتانيا . وقد تلقى العلم فى مدارس دول ، ورين، ودينان ، ثم عاش فترة من الزمن فى قصر والده فى كمبودج ، فى عزلة شبه كاملة بين احضان الطبيعة ، وحاول الانتحار مرتين وفى عام ١٧٨٦ عين ضابطا بكتيبة النافار ، وابتداء من عـــام ١٧٩١ جعل شاتوبريان يتردد على البلاط والمنتديات الادبية ، وكان متأثرا بفلاسفة القرن الثامن عشر ، لا يؤمن بوجود الله ، ويقرض الشعر .

كان شاتوبريان فى هذه الفترة متشبعا بأفكار « روســو » عن الطبيعة . وكان روسو يكره الحياة الاجتماعية ويهرب منها ، ويرى فيها مصدر شقاء البشر ، ومنبع ظلم الانسان لاخيــه الانسان ، وبنى فلسفته هذه على فكرة الرجوع بالانسان الى الفطرة أو الى الطبيعة « اصلاح الفرد بتربية الطفل (اميل) واصلاح الاسرة (هلويز الجديدة) ، ثم اصلاح المجتمع (العقد الاجتماعى) » .

وكان يعقد المقارنات بين الانسان المتمدين ورجل الطبيعة او البربرى النبيل ، ويفضل بالطبع البربرى الذى يعيش على الفطرة على المتمدين الذى لوثت الحياة المدنية مشاعره النبيلة التى تولد معه .

وقد كان لروسو أثر عميق على الادب والفكر الاجتماعى ومن تلامذته برناردان دى سان بيير مؤلف « بول وفرجينى » التى ترجمها المنفلوطى ، والتى كان شاتوبريان يحفظها عن ظهر قلب .

وعندما قامت الثورة حلت كتيبة شاتوبريان فسافر الىأمريكا بحجة تحقيق كشف جغرافى ، ولكنه كان يرمى فى الواقع إلى تحقيق أمل نما وترعرع فى نفسه وهو يقرأ «روسو» و«برناردان دى سان بيير » ، الا وهو الهروب من قيود الحياة الاجتماعيــة والذوبان فى الطبيعة البرية العظيمة المترامية الاطراف الواسعة الآفاق ، والارتواء من جمالها حتى الثمالة ، واراحة قلبه الذى تشقيه الهموم والمشاعر المتناقضة بالحياة بين الهنود .

وقد كان لرحلة شاتوبريان الى أمريكا أثرها الحاسم فىتطوير حساسيته وانضاجها ، ويدين شاتوبريان بمجده الادبى لهـذه الرحلة ، فهى التى أوحت له بقصـــتى « أتالا ــ ١٨٠١ » ،

و « رينيه ـ ١٨٠٢ » ، وبفضلها حوى كتاب « روح المسيحية » (١٨٠٢) لوحات خالدة تصور جمال الطبيعة مما اضفى على هذا الكتاب الدينى فتنة وسحرا جعل القراء يتخاطفونه كما كان أثرها ظاهرا فى مقال عن الثورات وملحمة «Les Natchez» وكتاب « رحلة أمريكا » ، وهذه المؤلفات الثلاثة لا تخلو من الروعة رغم أنها طليعة انتاج كاتب لم يكن قد نضج بعد .

وعندما ارتد شاتوبريان الى المسيحية تخلى عن كثير من أفكاره الفلسفية والسياسية التى كان قد ضمنها كتابه «رحلة أمريكا» ولكن حب الطبيعة ظل راسخا متأصلا فى نفس الفنان .

يحلل كاتب المقال « الرحلة فى أمريكا » فيقول ان شاتوبريان كان يعتقد أن الهنود لم يكونوا برابرة بمعنى الكلمة بل قوما نالوا حظا من الحضارة يختلف عن الحضارة الغربية ويتساءل شاتوبريان قائلا :

« لا غرو أنه من العبث التساؤل عما كان سيؤول اليه مصير سكان أمريكا لو أن بلادهم زاغت عن قلاع بحارتنا . ورغم أن هذه المسألة غير ذات موضوع فهى لا تخلو من جانب يثير الفضول ويدعو الى الدرس . ترى هل كان سكان امريكا سينقرضون مثلما انقرضت من قبل أمم فاقتهم بفنونهاوحضاراتها المزدهرة على الارجح فى المناطق التى يرويها نهر الاوهيو والجزء الادنى من نهر المسيسبى ، وأنهار التنسى ونوسكنجم والتمبك دبى .

لقد اكتشفت لدى هنود كندا ونيو انجلند وفلوريدا بدايات لجميع عادات الاغريق والرومان واليهود ، ولعل هذه البدايات كانت ستؤدى الى حضارة تختلف فى طبيعتها عن حضارتنا ، ولعلها كانت ستبعث من جديد رجال العصور السحيقة ، اذ ستشع منها أضواء مجهولة من مصدر نحن به أشد جهلا ، ولعلنا كنا سنرى « كريستوف كولومبس » أمريكيا يرسو على شواطئنا ويكتشف العالم القديم . »

ويمضى كاتب المقال فى تحليل كتاب الرحلة فى أمريكا فيقول:

« لا شك فى أن شاتوبريان كان تلميذا لروسو عندما أبحر الى أمريكا ، وكان يريد رسم صورة لرجل « الطبيعة الخالصة » ولكن دراسته لامريكا جعلته يتخلى عن أفكاره ووجهة نظره السابقة اذ تبين انه لا يمكن اعتبار الهنود همجا بمعنى الكلمة العادى ، بل قوما ذوى حضارة مختلفة ، وهو فى ذلك أقرب الى « مونتانى » منه الى روسو أو ديدرو ، فهو أول شاعر عظيم تغنى « بالحضارة البدائية » بالمعنى الذى نفهمه من هذا التعبير حاليا » .

لقد أشار شاتوبريان الى الفارق الذى يفصله عن روسو فى المقدمة الاولى التى وضعها لرواية « أتالا » والتى ميز فيها بين انسان الطبيعة الخالصة ، وبين الانسان الذى لقبه بالبدائى فقال :

« أنا لا أعتقد أن الطبيعة الخالصة هى أجمل ما فى الوجود، ففى كل مناسبة أتيحت لى رؤيتها كنت أجدها بشعة الدمامة . انى أومن بعكس الرأى القائل بأن ابن آدم « حيوان فسد » . فالفكر هو الذى يجعل منه انسانا ، لقد ادت كلمة الطبيعة (١) الى ضياعنا ، فلنتصور الطبيعة ، ولكن الطبيعة فى أجمل صورها ولنربأ بالفن عن تقليد الممسوخ » .

كان شاتوبريان يميز بين حياة هنود أمريكا التى لا تخلو من لون معين من الحضارة ، وبين حياة « رجل الطبيعة الخالصة » التى تحيل الانسان الى مسخ من جديد ، وتجرده من صفته الانسانية ، ولهذا كان يتشبث حماسا للهنود ، وقد ختم « المقال عن الثورات » بمقارنة عقدها بين حياتهم الفطرية والحياة الاجتماعية فأشاد بالاولى وقدح فى الثانية .

ويمضى شاتوبريان فى سرد قصة رحلته فيروى لنا مقابلته فرنسى عجوز هوالمشهورة لرجل فيليب لكوك Philippe Le Coq الذى هجر بلاده المتحضرة وهو صغير ، وعاش هانئا بين هنود أمريكا ويقول :

« وما كدت أخاطبه بالفرنسية حتى عزته ذكرى الوطن ، واغرورقت فى مقلته دمعة كبيرة ، ان هذه النغمات المألوفةاعادت بغتة الى قلب العجوز كل أحاسيس الطفولة . اننا نأسف قليلا ونحن فى ريعان الشباب على سنوات حياتنا الاولى ، ولكن كلما تقدم بنا العمر ، كلما حلت لنا ذكرى طفولتنا ، اذ نجد عندئذ فى كل يوم ينسلخ وجه مقارنة يبعث على الاسى .

ودعانى فيليب الى داره فتبعته ، وأخذ يعبر عن نفسه بجهد جهيد ، ويكد فى استجماع ما كان له قديما من أفكار وهو رجل متحضر ، وكنت اقبل على دراسته فى نهم ، فلاحظت مثلا أنه لم يبق فى ذهنه أى أثر لشيئين نسبيين هما الكماليات ، والحاق الضر بالغير بدون مبرر .

وأمهلته ساعات حتى أستجمع كمية كبيرة من الكلمات والافكار قبل أن أوجه اليه سؤالى الاكبر: «هل أنت سعيد يا فيليب ؟» ولم يعرف فى أول الامر كيف يجيبنى ، ولكنه فكر ثم قال : سعيد، أجل ، أجل ، سعيد منذ أن أصبحت بربريا » .

فاستطردت قائلا : « وكيف تمضى حياتك ؟ »
فأثار سؤالى ضحكه ، وعندئذ استغفرت منه قائلا :

« هل تعتقد ان هذا أمر لا يستحق اجابة ؟ ولكن ألا تود استعادة حياتك الاولى والاوبة الى بلدك ؟ » فأجابنى : بلدى فرنسا ؟ لو لم تتقدم فى السن لوددت رؤيتها مرة أخرى .
فاستطردت قائلا : ألا تود البقاء بها ؟
وعندئذ هز رأسه هزة ذات معنى :
ـ ما الذى حدا بك الى أن تجعل من نفسك بربريا على حد قولك ؟

---

(١) يهاجم شاتوبريان بطريقة مقنعة فكرة الرجوع الى الطبيعة التى كانت فى نظره السبب فى تحطيم النظم القديمة وأدت الى قيام الثورة الفرنسية التى حاولت أبدال المسيحية بدين آخر فلسفى وأقفلت الكنائس ، وهو يعبر بذلك عن آراء مسيحى أرستقراطى حريص على بقاء النظم السياسية والدينية التليدة .

ـ لست أدرى .. الغريزة .

وأخرست كلمة الشيخ شكوكى ، وأنهت أسئلتى ، ومكثت لديه يومين لارقبه فلم أتبين لحظة واحدة من أفعاله ما يكذب أقواله.

لقد تحررت نفسه من صراع الاهواء الاجتماعية ، وبدت لى كما يقول البرابرة « ساكنة كساحة الوغى عندما يدخن المحاربون من غليون السلام » .

ويعلق كاتب المقال على هذه القصة المشهورة بأنها تشف عن رغبة دفينة كانت تعتلج فى نفس شاتوبريان، لقد كان شاتوبريان يتمنى لو أصبح بربريا حتى يقضى على ما يضطرم فى أعماق نفسه من مشاعر متصارعة ، ويحلم بأن الهنود سيتبنونه يوما كما تبنى الناتشيز « رينيه » ، والايراكواه « فيليب لوكوك » وعندما التقى شاتوبريان بفيليب خيل اليه أن تحقيق حلمه قد أصبح وشيكا ، ولهذا نجده يتغنى برجل الطبيعة قائلا :

« ايه يا رجل الطبيعة ! أنت أنت وحدك الذى يجعلنى أعتز بأنى انسان ، فقلبك لا يعرف التبعية ، وأنت تجهل الزحف فى بلاط الملوك ، أو مداعبة النمور التى تحكم الشعوب . فيم تعنيك فنوننا وبم يهمك بذخنا ؟ انك لو احتجت الى رؤية شىء تكتحل به عيناك ذهبت الى معبد الطبيعة ، والى الغابة الدينية، حيث تحمل أعمدة (١) أشجار البلوط المغطاة بالطحلب القبة التليدة ، فى حين ينساب نور هزيل من خلال ظلمة المحراب المقدسة ، وتتردد تحت السقوف المقوسة الرنانة أصوات خافتة وأغان تفيض بالعويل أو رخيمة ..

يقول البعض ان البربرى يجهل رغد العيش ودعة الحياة فهل يجهل المرء الحياة عندما لا يرى داعيا لتلطيخ يديه بالقيام بعمل تجارى (٢) ، أو بممارسة حرفة أكثر دناءة ألا وهى الرياء؟ وهل يعتبر شيئا بلا قيمة استطاعة الانسان الظهور أمام الناس عظيما حرا ، معتزا بنفسه ، جاهلا بالفوارق البغيضة التى

(١) يشبه شاتوبريان الغابة بالمعبد .

(٢) كان شاتوبريان من الطبقة الارستقراطية التى تحتقر أعمال التجارة .

تقيمها الحالة المدنية ، غير مكره على تمضية شطر من حياته (١) فى اخفاء مشاعره ، وشطرا آخر فى رؤية المثالب والسخافات الاجتماعية ، وهو الذى ولد انسانا عزيزا مجبولا على الصراحة النبيلة ؟

ثم يصف شاتوبريان « ليلة بين برابرة أمريكا » الشهيرة التى نقل بعضا منها فيما بعد فى « روح المسيحية » فيقول :

« وعندما تخلصت من ربقة المجتمع الجائرة ، فطنت الى مفاتن استقلال الطبيعة التى تفوق بمراحل شاسعة جميع المسرات التى قد تخطر على بال الانسان المتمدين .. وفهمت لماذا لم يصبح بربرى واحد أوربيا ، بينما تحول عدة أوربيين الى برابرة ، وأدركت لماذا لا يفقه معظم فلاسفتنا كتاب روسو : « محاورات حول عدم المساواة بين الظروف » «Discours sur l'Inégalité des conditions

لقد أصبحت الامم ونظمها المقرظة صغيرة ضئيلة فى نظرى بشكل يتعذر تصديقه ، كان يخيل لى أنى أرى ممالك الارض بمنظار مقلوب ، أو أنى شخصيا قد كبرت وعظمت ، فجعلت أتأمل بغتة بعينى عملاق جبار جنسى البشرى الذى سقط وانحط »

تلك صفحات حللها السيد ميشيل بيتور فى « المجلة الفرنسية الجديدة » ، وهى وان كانت لا ترتفع الى مستوى مؤلفات شاتوبريان الاخرى ، الا انها مشبوبة حماسة ، غنية بشاعريتها، جذابة بسذاجتها ، فياضة بحب الانسانية والحياة ، زاخرة بنغمات اختفت من كتابات شاتوبريان الاخرى عندما جعل من نفسه داعية للدين ، وبوقا للنظام الملكى ، ورمزا حيا للضجر والملل من الحياة والتلهف على الموت ، وهذه كلها أفكار وموضوعات أفسحت الشقة بين شاتوبريان وبين كتاب القرن الثانى عشر ، ومهدت لظهور كتاب القرن التاسع عشر الرومانسيين .

« رسالة من باريس »

(١) اشارة الى الحياة الاجتماعية .





تقدمها:
نجاة شاهين

رسالتان فى تاريخ الصحافة المصرية

- ١ -

موقف الصحافة المصرية
من الاحتلال الانجليزى فى السنوات العشر الاولى
١٨٨٢ — ١٨٩٢

فى كلية آداب جامعة القاهرة نوقشت الرسالة المقدمة من السيد سامى عزيز المحرر بجريدة الاهرام لنيل درجة الدكتوراه من قسم الصحافة فى الكلية • وقد اختار الباحث العشر سنوات الاولى من الاحتلال الانجليزى وموقف الصحافة المصرية منه ليكون موضوعا لبحثه الذى أشرف عليه الدكتور محمد انيس رئيس قسم التاريخ الحديث بالكلية ، والدكتور عبد اللطيف حمزه استاذ الصحافة •

فى التاريخ سنوات طوال لا يجد الباحث عناء فى أن يلخصها ويسجلها فى صفحة واحدة ، وفيه سنوات أخرى لايستطيع الباحث أن يسجل سنة واحدة منها فى أقل من الآلاف من الصفحات لما تتميز به من تغيير نوعى شامل .. وتعد السنوات العشر التى يتناولها هذا البحث من ذلك النوع الاخير • اذ بدأالعقد الممتد من١٨٨٢ الى ١٨٩٢ بالاحتلال الانجليزى الذى هز كيان مصر بأكملها حكومةوشعبا ، وأثر فيها سياسيا واجتماعيا وفكريا • وتجاذبت البلاد فى هذه الحقبة تيارات أخرى متعارضة التيار العثمانى الذى يستمد قوته من الامر الواقع ، والتيار الفرنسى الذى يحاول استعادة ماكان له من نفوذ فى مصر قبل الاحتلال الانجليزى ، ثم التيار الوطنى الذى بلغ ذروته ابان الثورة العرابية ثم أصابه الاحتلال بصدمة هائلة استلزمت بعض الوقت حتى يستطيع الشعب استردادانفاسه المتقطعة من هول ماحدث وكانت الصحافة اذ ذاك من أهم مظاهر التعبير عما يدور فى النفوس من آمال وأهداف ، فلم تكن ثمة اذاعة أو تليفزيون أو سينما ، فالصحافة هى المعبر الوحيد بين الشعوب وحكامها ، وبين أفراد الشعب وبعضهم البعض ، وبينهم وبين المفكرين والفلاسفة وغيرهم •

قسم الباحث رسالته الى اربعة أبواب تضم عشرة فصول ثم خاتمة • تحدث فى الباب الاول عن الصحافة الشعبية المصرية فى عهدى اسماعيل وتوفيق وكيف قامت بدور هام ، على مسرح الاحداث السياسية فى البلاد • كانت هذه الصحف ، رغم التضييق عليها ، هى المعبرة عن حركات تذمر الضباط والرأى العام ومجلس النواب ، واذا كان شريف يعد أبا للدستور المصرى فانه كان يخشى ارتباط الرأى العام بالضباط والنواب ، ومن ثم أصدر أول قانون خاص بالمطبوعات فى مصر فى ٢٦ نوفمبر ١٨٨١ لوضع الصحف فى قبضة الحكومة • ظهرت فى تلك الفترة صحف « التنكيت والتبكيت » و « الطائف » للنديم الى جانب « الحجاز » و « النجاح » و « السفير » و « المفيد » ، و « مصر » و « التجارة » و « الوطن » و « الاهرام » وغيرها.

ويعرض الباب الثانى من الرسالة لموقف الاحتلال من الصحافة المصرية وكانت هى القوة المناوئة للانجليز بعد تحطيم الثورة العرابية ، وقد أشاع رجال الاحتلال أنهم تركوا للصحافة حرية لم تشهد لها مثيلا من قبل ، ووافق بعض المؤرخين على ذلك الرأى ، ولكن دراسة تلك الفترة أثبتت بعد هذه الاقوال عن

الحقيقة ، بل لقد بلغ الامر بسلطات الاحتلال الى حد ارهاب الصحف الوطنية .

كما ساعدوا على اصدار صحف تسبح بحمد الاحتلال «كالمقطم» و « الاعلام » و « النيل » وغيرها . ونلاحظ كذلك فى تلك الفترة صدور عدد هائل من الصحف غير السياسية بمصر .

وتناول الباب الثالث دور الصحف المصرية فى الصراع الذى احتدم بين انجلترا من ناحية وتركيا وفرنسا من ناحية أخرى فى سبيل السيطرة على مصر ، وكانت الصحافة هى السلاح الاول . فى هذا الصراع ان لم يكن السلاح الوحيد فى أحيان كثيرة !

ومن ثم وجدت فى مصر :

- صحافة أحرار الاتراك : ضد السلطان
- صحافة أرمن ويهود : ضد الدولة العثمانية
- صحافة مصريين : ضد السوريين
- صحافة سوريين : ضد المصريين
- صحافة تؤيد الاحتلال : ضد فرنسا وتركيا
- صحافة تؤيد فرنسا وتركيا : ضد الاحتلال الانجليزى
- صحافة ماسونية : ضد الجزويت
- صحافة وطنية : ضد الاحتلال
- صحافة احتلالية : ضد الوطنيين

وكان الهدف من وراء ذلك الموج المتلاطم من الصحف القضاء على الروح الوطنية وهدم الروابط التى كانت لاتزال تربط مصر بالدولة العثمانية ، وكانت السلطة رغم ضعفها لاتزال تمارس قدرا من النفوذ فى العالم العربى ، وكانت حلقة الوصل بين الشعوب العربية ، ومن ثم فان وجود مصر داخل هذا الكيان كانت له أهميته باعتبارها متمتعة بنوع من الحماية كجزء من الامبراطورية .

كذلك كان هناك هدف آخر هو اظهار فرنسا بمظهر الطامع فى مصر ومن ثم ينفض المصريون أو معظمهم عن التطلع الى تأييد السياسة الفرنسية وطلب حمايتها .

وهكذا تجد مصر نفسها وقد فقدت الروح الوطنية وفقدت العون الخارجى فلا تجد مناصا من الوقوع بين براثن الاحتلال

والباب الرابع عنوانه الصحافة وسياسة الاحتلال الداخلية ، يشير الى أنه منذ وقوع الاحتلال ظهرت قضية الاصلاح فى مصر وحاول الانجليز بث الدعاية لما يقومون به من اصلاحات ، وأخذت الصحف الموالية لهم تتحدث بفضل الاحتلال على البلاد والنعم التى أسبغها وجود الانجليز على المصريين ، وتربط فى الوقت نفسه ربطا تاما بين وجود الانجليز واستمرار هذه الاصلاحات وتنادى بضرورة بقاء الاحتلال حتى تجنى البلاد ثمرات الاصلاح .

وقد وضع الباحث ان كل هذه الاصلاحات كانت تدور كلها حول الزراعة ، وكانت تلك الصحف تؤكد ان مصر لن تصلح لصناعة او تجارة ، وأن على أهلها أن يقبلوا الزراعة حرفة وحياة وعليهم ألا يطمعوا فى غيرها ، وظهرت فى هذا الميدان صحف زراعية عمل الانجليز على تشجيعها ، ومدها بمختلف الوسائل ونشرها بين الاهالى كصحف « الزراعة » وكنز الزراعة » و « البستان » و « الفرائد » .

وأثارت الصحافة فى تلك الفترة قضية الكفاءة المصرية ، وحاولت الصحف الموالية للاحتلال اظهار عجز المصريين عن تولى ادارة مصر وحكومتها ومصالحها ، ومن ثم نشأت الدعوة الى ضرورة جعل الادارة المصرية انجليزية أما عن طريق وضع انجليز على رأس الادارات ، أو عن طريق تقليد المصريين للحضارة واقتباس مظاهرها ، وكانت صحيفة « المقطم » و « المقتطف » و « اللطائف » على رأس تلك الصحف ، فى حين أخذت صحف « الاهرام » و « المؤيد » و « والاستاذ » و « الآداب » تعارض هذا الاتجاه الخطير .

ومن الظواهر الصحفية الهامة فى تلك السنوات ظهور أول جريدة تصدرها سيدة فى مصر ، وهى صحيفة « الفتاة » لهند نوفل ، وكانت تدعو منذ العدد الاول الى الاخذ بالحضارة الانجليزية واتباع مايجرى فى بلاد الانجليز متمثلة بكل مايحدث للمرأة هناك . كذلك أخذت تلك الصحف تدعو الى القضاء على الجيش المصرى ، وتكاتفت على اهمال شان الحياة النيابية فى مصر ، مدعية أن مصر لاتصلح لحياة الشورى ، ونسيت «المقطم» خاصة فى حملتها أن مجلس النواب المصرى كان له دوره الهام فى سياسة مصر قبل الاحتلال .

وانتشرت الدعوة الى تاييد سياسة الاحتلال التعليمية التى قامت على أساس الاكثار من « الكتاتيب » والقضاء على المدارس المتوسطة والعالية ، والوقوف فى وجه مجانية التعليم بحجة ان من يريد ان يتعلم عليه ان يثبت ذلك بدفع نفقات تعليمه . كما زادت الدعوة الى تعلم اللغة الانجليزية ، ودعت « المقطم » قراءها الى كتابة المقالات بالانجليزية لتنشر فى بعض صحف انجلترا . واستخدمت الصحف الادبية الروايات والقصص فى بلادهم .

وارتبط بهذا الموضوع الصراع بين الفصحى والعامية واخذت بعض الصحف تحاول الحط من قدر الفصحى وتدعو الى ضرورة اهمال شانها ورفع شان العامية حتى تصبح لغة البلاد .

وكان لمجلة « الأزهر » بوجه خاص دور هام فى هذا الصدد ، اذ اشتراها مهندس انجليزى يدعى « ويلكوكس » واستعان على تحريرها ببعض خريجى الازهر ، ودعا فيها الى ضرورة اجتناب الفصحى والاعتماد على العامية فقط حتى يصبح المصريون أصحاب اختراعات وتدخل مصر بين الدول المتقدمة علميا . كذلك ظهرت الدعوة الى نشر الماسونية بين المصريين وأصبحت مجلة « **اللطائف » لسان حال الماسونية الى جانب بعض الصحف والمجلات الاخرى** ، وتبين من تحليل موقف صحف الماسونية فى أنها تدعو الى الاستكانة والخضوع التام للحاكم دون مناقشة .

وهكذا استهدفت الصحافة الموالية للاحتلال خلق مجتمع جديد تتغير فيه القيم المادية والمعنوية والمثل التى يسترشد بها الشعب لافى الاوضاع السياسية فحسب بل كذلك فى كافة نواحى الحياة الاخرى ، ومحاولة احداث تغييرات متلاحقة تهز المقومات التى رسخت على مر العصور حتى يسهل القضاء عليها والعمل فى الوقت نفسه على ارساء مقومات أخرى تتفق وأهداف الحكم الانجليزى واتجاهاته .

وأهم النتائج التى توصل اليها الباحث من دراسته :

❊ **قيام الصحافة المصرية بدور هام فى تطور الاحداث ووقوف بعض الصحف فى وجه محاولات الانجليز الدائبة لتحويل مصر الى بلاد ترتبط بهم ماديا وعاطفيا ومعنويا .**

* كذب اسطورة حرية الصحافة التى ادعاها الانجليز

* قيام الصحافة بدور هام فى نواحى العناية باللغة العربية وآدابها والاخلاق والعادات والاحتفاظ للشعب بمقوماته الاصيلة والدفاع عنها ضد الغزو الاجنبى .

* ارتباط الصحافة والزعامة فى مصر ببعضها البعض فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وكان الصحفى هو الزعيم ويمثل ذلك على يوسف الذى أنشأ صحيفة « المؤيد » وظهر حولها حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية ، كما ظهر مصطفى كامل واحمد لطفى السيد فى فترة البحث لينشىء كل منهما بعد ذلك جريدة يحارب بها التدخل الاجنبى ويدافع عن مصر ، ثم التف الحزب الوطنى حول صحف «اللواء لمصطفى كامل» والتف حزب الامة حول صحيفة «الجريدة» للطفى السيد

بدأ المناقشة الدكتور أحمد حسن أستاذ التاريخ الحديث بجامعة الاسكندرية قائلا : ان الموضوع الذى قدم الطالب رسالته فيه موضوع قيم يستاهل البحث لانه يدرس موقف الصحافة المصرية من الاحتلال الانجليزى وغير المصريين والدخلاء وهو موضوع له أهميته الخاصة من الوجهة الصحفية والتاريخية . ثم أورد ملاحظاته على البحث وكان من بينها أن الباحث أورد بعض المراجع وهى غير موجودة فى الهامش ، وكان من الواجب عليه تمحيص اقتباساته ..

وتحدث الدكتور محمد أنيس عن صاحب الرسالة وذكر أنه تخرج فى قسم التايخ بالكلية ، ثم درس فى معهد الصحافة ، ثم حضر للدكتوراه تحت اشراف الدكتور محمد فؤاد شكرى الذى توفى قبل أن يتم البحث . ويرى الدكتور أنيس أن ثقافة الباحث التاريخية ، جعلت للموضوع صفته التاريخية الى جانب صفته الصحافية ، ويبدو ذلك واضحا من عنوان الرسالة ولهذا يرجو قبل طبع الرسالة أن يقوم الباحث باستكمال الجزء الخاص بفنية الصحافة والكتابة الصحفية فى تلك الفترة .

ويرى الدكتور أنيس أن الباحث قد ذكر أهم المراجع الرئيسية اللازمة ، ولكنه أكثر فى هذا بعض الشىء ، كما أكثر من اقتباساته من الصحف ويقول ان للرسالة حسنات كثيرة ، فحسبها أنها أعطتنا فكرة عن اتجاهات الصحف فى تلك الفترة كما أنها كشفت عن بعض الصحف التى كان كثير منها مجهولا .

أما الدكتور عبد اللطيف حمزة ، فقد أخذ على الباحث قصر الفترة التى يتناولها فى البحث وهى عشر سنوات ، لان هذا جعل القارىء لهذه الرسالة يخرج بفكرة ناقصة عن دور الصحافة المصرية لقضية البلاد الذى لم يبدأ بصورته الفعالة الا بعد انتهاء فترة البحث .

وقد نال السيد سامى عزيز على بحثه درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف الثانية .

— ٢ —

تطور الصحافة المسائية فى الفترة مابين الحربين العالميتين الاولى والثانية

ونوقشت فى قسم الصحافة بكلية آداب جامعة القاهرة أيضا الرسالة المقدمة من الآنسة جيهان أحمد على رشتى لنيل درجة الماجستير فى الصحافة . وقد اختارت الآنسة جيهان الصحافة المسائية وتطورها فى الفترة ما بين الحربين العالميتين موضوعا لدراستها ، وأشرف على البحث الدكتور عبد اللطيف حمزة

ولاشك ان الصحافة كانت هى الذخيرة الحية فى جميع المعارك الوطنية والسياسية والاجتماعية التى قامت فى مصر فى أعقاب الحرب العالمية الاولى واستمرت الى قيام الحرب العالمية الثانية ، ففى هذه الفترة الغنية بالاحداث والتطورات ، ظهرت ملامح جديدة للمجتمع المصرى بعد أن تحولت مصر من محمية بريطانية الى دولة . وبعد أن شملت اليقظة الوطنية جميع فئات الشعب المصرى ، وفى هذه الفترة نشأت الحياة البرلمانية ، وظهرت طلائع نهضتنا الاقتصادية تستهدف الاستقلال الاقتصادى وكذلك ظهرت طلائع جديدة فى دنيا الفنون ، ودراسة الصحافة فى هذه الفترة تعطينا فكرة واسعة عن الاساليب المتضاربة التى نشأت فى المجتمع المصرى أثر الحرب العالمية الاولى ، فبينما نجد روح التضحية التى تخللت ثورة سنة ١٩١٩ ، نجد فى أثرها الوصولية التى نشأت من التنازع على السلطة والحكم .

تقول الباحثة انه من الملاحظ فى هذه الفترة الميل الى اصدار الصحف المسائية ، وقد توصلت الى هذه النتيجة بالمقارنة العددية فقد لاحظت ان الصحف التى نالت حظا من الثبات والانتشار فى هذه الفترة كانت ثمانى عشرة صحيفة، اربع عشرة صحيفة مسائية

اما لماذا كانت الكثرة من الصحف مسائية فترجعه الى ثلاثة اسباب :

أولا : اهتمام الرأى العام بالمقالات اهتماما ينافس اهتمامه بالاخبار ، وكانت المقالات تستوحى من أحداث الساعة فكانت تكتب فى الصباح ، وتظهر بعد الظهر .

ثانيا : متابعة النظام الزمنى الذى كانت تتبعه الدواوين الحكومية لان غالبية القراء كانوا من موظفى تلك الدواوين ، فضلا عن أن الصحفيين فى مصر فى تلك الفترة كانوا مرتبطين فى نواحى العمل والاخبار بالدوائر الحكومية التى تعمل فى أوقات معينة من النهار .

ثالثا : صعوبة تشغيل عمال الطباعة ليلا الا بمضاعفة أجورهم

وقد قسمت الرسالة الى مقدمة وخمسة فصول وخاتمة ، استعرضت فى الفصل الاول الظروف العامة التى كانت تصدر فيها الصحف المسائية ، وقسمت الصحفيين الذين عاشوا فى تلك الفترة الى أربعة أقسام :

١ ــ صحفيون يكتبون عن عقيدة حرة .

٢ ــ صحفيون ينطقون بلسان أحزابهم سواء أخطأت أم أصابت هذه الاحزاب .

٣ ــ صحفيون يميلون الى التجارة .

٤ ــ صحفيون انتهازيون للظروف المتغيرة .

وهذه الانواع الاربعة كانت صورة مطابقة للظروف الاجتماعية والسياسية التى تخللت الفترة الزمنية التى تؤرخ لصحافتها حتى ليبدو هذا التقسيم للصحف والصحفيين شيئا طبيعيا بالنسبة لظروف تلك الفترة . أما هذه الظروف فتنقسم الى قسمين :

الاول : موقف الشعب الذى قام بثورة سنة ١٩١٩ ، ثم تابع قادتها باخلاص حتى يئس منهم ، وماكان لهذا الشعب من تطلعات الى الحرية السياسية والاجتماعية ثم ماطرأ على حياته من اهتمامات بالحياة الدستورية ، وما اقتحم حياته من حزبيات

الثانى : موقف الحكومة والعجيب فى موقف الوزارات المتعاقبة فى هذه الفترة ان واحدة منها لم تنزل عن السياسة الرجعية القديمة فى مواجهة تحديات الصحف الحرة ، وكانت وسائل الحكومات مع هذه الصحف هى الاغراء بالمال ، ثم التهديد ويأتى بعد ذلك التفنن فى اصدار التشريعات التى تحمى الحاكم.

وقسمت الباحثة الصحف المسائية الى :

صحف رأى مستقل ، صحف رأى حزبى ، صحف أخبار ، صحف مناسبات وتناولت فى الفصل الثانى صحف الرأى المستقل ، وهى الصحف التى كان مصدروها يتمسكون برأيهم الخاص ويعبرون فى معالجة الشئون السياسية وغيرها مما يتفق مع تفكيرهم أو معتقداتهم الخاصة .

وهذه الصحف هى :

١ ـ ((الاهالى)) : لعبد القادر حمزة ، وقد صدرت فى ١٩ اكتوبر سنة ١٩١٠ .

٢ ـ « الاخبار » لامين الرافعى وصدرت فى ٢٢ فبراير سنة ١٩٢٢

٣ ـ « البلاغ » : لعبد القادر حمزة وصدرت فى ٢٨ يناير سنة ١٩٢٣

وعرف الفصل الثالث بالنوع الثانى من هذه الصحف وهى صحف الرأى الحزبى ، وكانت تنطق بلسان الاحزاب بحيث كانت تعبر فى توجيهاتها عن وجهات النظر الحزبية سليمة كانت أو غير سليمة . وهذه الصحف هى :

١ ـ ((النظام)) : لسيد على ، وقد صدرت فى ٢٨ يوليو سنة ١٩١٩ .

٢ ـ « كوكب الشرق » : لاحمد حافظ عوض وقد صدرت فى ٢١ سبتمبر سنة ١٩٢٤

٣ ـ « الاتحاد » : لحزب الاتحاد وقد صدرت فى ١٩ يناير سنة ١٩٢٥

٤ ـ « الوفد المصرى » : لحزب الوفد وقد صدرت فى ٢ مارس سنة ١٩٣٨

وتناول الفصل الرابع النوع الثالث من هذه الصحف وهى صحف الخبر .

ويبدو من تاريخ ـ صدور كل صحيفة من هذه الصحف طبيعة الاهداف التى صدرت من أجلها .

والفصل الخامس من البحث مخصص للحديث عن النوع الرابع من الصحف وهى صحف المناسبات ، وقد سميت صحف مناسبات لانها ظهرت على فترات متقطعة ، كما أن أصحابها كانوا على أتم استعداد لوضع صحفهم تحت تصرف أى حزب يدفع الثمن ، فضلا عن ظهورها فى مناسبات بعينها واختفائها بعد زوال هذه المناسبات وهذه الصحف هى :

١ ـ « مصر » : لتادرس شنودة المنقبادى وقد صدرت فى سنة ١٨٩٥

٢ ـ « الافكار » : لابو العينين بدر وقد صدرت فى اغسطس سنة ١٩٠٠

٣ ـ « وادى النيل » : لمحمد الكلزة وقد صدرت فى سنة ١٩٠٨

٤ ـ « الثغر » : لسليمان فوزى وقد صدرت فى منتصف ابريل سنة ١٩٢٩

٥ ـ « المساء » : لاحمد محرم وقد صدرت فى يوليو سنة ١٩٣٠

٦ ـ « الوادى » : لاحمد نجيب وقد صدرت فى يوليو سنة ١٩٣٠

وواضح من أسماء منشئى هذه الصحف أنهم وان كانوا من رجال الصحافة ، وكان لبعضهم شىء من الفضل والادب فى حياته الصحافية ، الا أنهم ليسوا من ذوى الرسالات الصحفية البارزة وتواريخ صدور هذه المجلات أيضا يحدد معالم أهدافها وبصفة خاصة الصحف الثلاث التى ظهرت فى سنتى ١٩٢٩ ، ١٩٣٠ فجريدة « الثغر » ظهرت فى عهد حكومة مناهضة لحزب الوفد لتستفيد من وجود هذه الحكومة فى الحكم بدليل أنها لم تستطع الاستمرار فى الصدور بانتظام حينما عاد حزب الوفد الى الحكم .

وعلى العكس منها جريدة « المساء » التى ظهرت فى ربيع سنة ١٩٣٠ لتحل محل الصحف الوفدية المعطلة وكذلك جريدة « الوادى »

أما جريدة « مصر » فكان من الممكن أن تكون من صحف الرأى لولا أننا لانستطيع أن نؤكد أنها كانت على الدوام مستقلة فى رأيها ، والواقع أنها نشأت للدفاع عن فكرة طائفية فلما لم يتجاوب معها الآخرون وضعت نفسها فى خدمة الآخرين وفى الخاتمة تحدثت الباحثة عن أسباب ضعف الصحافة المسائية بعد الحرب العالمية الثانية ولكن ذلك لم يمنع من أن تسجل للصحافة المسائية فى فترة مابين الحربين أثرها الكبير فى حياة الصحافة وحياة البلاد .

***

بدأ الدكتور محمد أنيس المناقشة بالثناء على مجهود الباحثة ولكنه أخذ عليها أن تصورها للتطور السياسى لمصر فى هذه الفترة أنها عبارة عن صراع بين الاحزاب دون مبادىء وهذا تصور خاطىء فالصراع فى هذه الفترة كان يقوم على قضيتين أساسيتين هما : الاستقلال والديمقراطية أو الدستور ، الشعب والوفد المصرى فى جانب ، والرأى والانجليز فى جانب آخر .

وتحدث الدكتور حسنين عبد القادر أستاذ الرأى العام بالكلية فقال ان للرسالة عدة مزايا ، فهى غنية بالمادة والمعلومات فى هذه الحقبة الهامة من تاريخ بلادنا ، غنية أيضا بالهوامش كما أنها كشفت عن مخازى الاحزاب والعهد السابق للثورة ، ولم تقتبس من النصوص الكثير ، كما أنها صححت لنا بعض الاخطاء التى ترد فى بعض كتب تاريخ الصحافة ، ولكنه أخذ عليها عدم عرض المسائل الكبرى جملة دون تكرار .

وأخيرا تحدث الدكتور عبد اللطيف حمزة ، فقال أنا أوافق الدكتور حسنين على أن للرسالة حسنات ، ولكنه أخذ عليه خطأ يقع فيه أغلب الباحثين وهو أنهم ينظرون للماضى ويحكمون عليه بعقلية الحاضر وهذا فهم خاطىء للتاريخ ـ كما أخذ عليها ان لها اطارا واحدا وناقصا وهو الاطار السياسى وحده ، ونحن عندما نعالج الصحافة يجب أن نعالجها من أطرها المختلفة السياسى والاجتماعى والفكرى

وقد نالت الآنسة جيهان احمد على درجة الماجستير بتقدير جيد جدا .



● **المقتطف**

رباعيات أبى العلاء

الرد على الدكتور صروف

جاء فى كلامكم على ترجمة رباعيات أبى العلاء المعرى للشاعر أمين أفندى ريحانى ماحرفه : « ٠٠ ولم يكن عمر الخيام الا تابعا لابى العلاء المعرى مقتبسا منه أو ناسجا على منواله ، ومع ذلك لم يقدم أحد على ترجمة أشعار المعرى الى اللغات الاوربية الا الان، حينما هزت الاريحية وطنينا الاديب أمين أفندى ريحانى » .

ويستفاد من هذه العبارة أن أول من أقدم على ترجمة شىء من أشعار أبى العلاء الى احدى اللغات الاوربية هو الاديب المذكور ، وهو خلاف الواقع فان لبعض المستشرقين من الاوربيين وغيرهم أبحاث جليلة عن هذا الشاعر العربى . وللبعض الآخر تراجم لأشعر أشعاره الفلسفية التى تجلت فيها صورته النفسانية واعتقاداته الدينية .

هذا ولا حاجة لنا إلى سرد جميع أسماء هؤلاء الكتبة وماترجموه من أشعار أبى العلاء ونحو ذلك مما تراه مذكورا فى حاشية المقدمة ترجمة رسائل أبى العلاء التى نشرها عام ١٨٩٨ فى اللغة الانجليزية المستر مرغليوث ، انما اقتصر هنا على ذكر واحد من هؤلاء العلماء وهو المستشرق النمساوى (فن كريمر) الذى وضع للبحث عن أبى العلاء وأفكاره جملة مقالات نشرها فى بعض المجلات الجرمانية وغيرها منذ عشرين عاما أو أكثر ثم كتابا خاصا (أشعار أبى العلاء الفلسفية) وقفه للبحث عن أبى العلاء الفلسفية ونقل فيه نثرا أكثر من مائتى بيت من رباعيات شاعرنا العربى .

والذى يهمنا هو أن الرباعيات التى نقلها الآن وطنينا الغيور الى اللغة الانجليزية كان قد نقلها قبلا مع غيرها العالم النمساوى المذكور ونشرها نظما عام ١٨٧٧ فى أعداد المجلة الجرمانية الآسيوية الذائعة الصيت .

فيستخلص مما ذكر أن أول من بحث عن أشعار أبى العلاء المعرى بحثا علميا وترجم نصيبا منها الى احدى اللغات الاوربية هو الكاتب النمسوى المذكور لا ابن وطننا العزيز ، كما جاء سهوا فى عبارتكم السابقة .

أما عن رقة الترجمة ومتانة الفاظها وعدم تعرف المترجم بشىء من معانى الاصل فيمكنكم أن تحكموا بالمقارنة (وأورد الكاتب شعرا بالعربية وترجمته بالجرمانية)

بندلى صليبا ـ جوزى (روسيا)

رد صرف

نشكر فضلكم على هذه الفائدة فاننا لم نكن نعلم أن العلامة فون كريمر ترجم هذا المقدار من أشعار المعرى الى اللغة الالمانية ، ولا انتبهنا الى ما ذكره الدكتور مرغليوث فى هذا الشأن .

وقد رأينا قبلا ترجمة بعض المقاطيع ولكنها قليلة متفرقة ، ولا نتذكر الآن أين مكانها الا ترجمة البيتين المشهورين

هفت الحنيفة والنصارى ما اهتدت
ويهود حارت والمجـــوس مضـــــللة
اثنان أهل الارض ذو عقـــل بلا
دين وآخر دين لا عقــــــل له

فقد ترجمها الى اللغة اللاتينية العالم كارليل الذي كان أستاذا للعربية في مدرسة كمبردج الجامعة في أواخر القرن الثـــامن عشر

● الضياء

الحماسة السنية في الرحلة العلمية

هي رسالة لحضرة الاستاذ العلامة ثقة الثقات وصفوة المحققين الشيخ محمد محمود بن التلاميد التركزي الشنقيطي المشهور تشتمل على عدة قصائد من شعره ضمنها أغراضا مختلفة وذكر فيها أشياء من تاريخ حياته أهمها رحلته الى المشرق ، ثم رحلته الى بلاد الاندلس للاطلاع على كتب العرب هناك .

وبين ذلك فنون شتى ومساجلات وتحقيقات في مسائل نحوية ولغوية وغيرها بالنظم والنثر ممادل على سعة علمه وغزارة محفوظه وامعان في التحقيق والتدقيق .

***

ديوان ابن التعاويذي

أطرفنا حضرة الاستاذ الفاضل البروفسور مرجيلوث أحـــد أساتذة العربية في مدرسة اكسفورد الجامعة بنسخة من هذا الديوان النفيس . وقد عني بطبعه في هذه العاصمة بعد أخذه عن نسختين من المكتبة البدليانية اختار من كل منهما ماراه أصح رواية ونفى عنه كل مالا يلائم آداب العصر الحالي . وقد صدره بجدول ذكر فيه أسماء الكتب الوارد فيها ذكر التعاويذي مع الاشارة الى مواضع وروده ، وقفى عليه بنقل ترجمة الناظم عن ابن خلكان وختمه بفهرسين ذكر في أحدهما أســـماء الممدوحين والمهجوين مع تعيين عدد الصفحة من الكتاب والبيت من القصيدة وفي الثاني المعاني الوارد ذكرها في الديوان .

وابن التعاويذي هذا من أكابر الشعراء المولدين من أهـــل القرن السادس للهجرة . قال ابن خلكان في ترجمته انه كان شاعر وقته ، ولم يكن فيه مثله جمع شعره بين جزالة الالفاظ وعذوبتها ورقة المعاني ودقتها وهو في غاية الحسن والحلاوة ، وفيما أعتقده لم يكن قبله بمائتي سنة من يضاهيه .

ا . هـ

ولاجرم أن طبع ديوانه يعد احياء لاثر من أكرم آثار الاولين وقد عني الطابع بضبطه بالشكل الكامل وتولى تصحيح طبعـــه بنفسه فجاء دليلا على فضله واجتهاده .

وقد تصفحنا بعضا من قصائده فوجدنا أنه مع عناية الاستاذ بتحرير روايته وضبط الفاظه لم يخل من أغلاط يجدر بنا التنبيه الى بعضها قضاء لحق النقد

على أن هذا لايغض من مزية الديوان وان اوجب أحيانا خفاء بعض المعاني بما يقع هناك من التحريف بين أنا على كل حال نثني على همة الاستاذ ثناء جميلا لما توخى من نشر هذا الاثر النفيس وجعله من الطالبين على جمل الذراع بعد أن كان مما لاتتعلق به الاطماع

مؤلفات جديدة

(الوفاق والطلاق) : رواية لتولستوي اسمها لحن كرتسر ترجمها سليم قبعين

(أسرار ديوان التفتيش) : تعريب كاتب مجيد

(مغائر الجن) رواية غرامية بقلم نجيب أسعد جاويش .

أسرار الارتقاء : عربه توفيق دوس المحامي

آفاق المدنية الحاضرة : ترجمه جرجس نقولا باز

زهرة النسيان : ثلاث قصائد في حـرب الروس لاسـكندر نحاس

مبهج الحياة : كتاب اقتصادي تأليف نقولا حداد

المرأة والشعر : خطاب تاريخي لنقولا فياض

مجلات وكتب جديدة

المنهل : لعطيه افندي حنا محرر المرشد

عنوان مجلة صدر العدد الاول منها في منتصف هذا الشهر

الاستقلال الاسبوعي : لنجيب افندي شقرا المحامي

صدرت مجلة الاستقلال أسبوعية بعد أن كانت شهرية فزادت مادتها غزارة في المباحث القضائية والاجتماعية الشائقة

رواية غرائب الاقدار : لعبد اللطيف شكري ومصطفى نافع

رواية تشخيصية أدبية كتبت بلغـة رائعة ، وتضـمنت من الوقائع المدهشة مايدعو القراء الى الاقبال عليها

الانسانية : لصاحبها محمد أبي النصر ومحررها ابراهيـــم الدباغ

مجلة أسبوعية تبحث في العلم والسياسة والادب والدين ، كثيرة الفوائد وتستحق الاقبال

الواعظ لمحمود سلامه

جريدة أسبوعية عمومية عرف صاحبها بالبراعة في التحرير والتفنن في انتقاء المواضيع المفيدة للبلاد .

